عِمَاد الأصفَر

بغداديات

٧٣ يومًا في العراق ولكن عن بعد
وبعد رُبع قرن من الفراق

رام الله / فلسطين ٢٠٢٠

بغداديات

73 يوما في العراق

ولكن عن بعد وبعد ربع قرن من الفراق

عماد الاصفر

رام الله / فلسطين

2020

اسمي عماد الاصفر، صحافي فلسطيني اقيم في رام الله منذ ربع قرن والى الآن، عشت طفولتي حتى سن 18 في الاردن، وبعدها لدزينة من السنوات في العراق (1995 – 1983) شهدت حروبا هناك وانتفاضات هنا .وبينهما وبعدهما ظللت اعيش بذاكرة انتقائية متحفزة، لم ابدا كتابة هذه السلسلة بقرار مدروس، لقد بدأت لكي ابتعد عن ازمة انتشار فيروس كورونا، والتي واكبتها يوميا بالمقالات والمنشورات واليوميات، كان علي ان اتغلب على الحجر المنزلي فبدأت بكتابتها يوم الجمعة 24 نيسان 2020 والزمت نفسي بكتابة حلقة يوميا، فتحت ابواب الذكريات والانطباعات، ولم يكن اقصى ما يمكن البوح به كثيرا، ولأسباب في بطني وستظل في بطني، ابتعدت عن اضفاء الطابع الذاتي عليها، فتحايلت عليها بالمعلومة والتاريخ ووصف الاماكن واستعنت بالسير الذاتية لكثير ممن احببتهم، ونقلت ابداعاتهم كتابة ورسما ونحتا وشعرا وموسيقى وغناء .وتذكرت الناس غجرا وكردا وصابئة ويهود وازايدة، والأماكن من اربيل الى الفاو، وتذكرت بائعات الهوى، واحاديث البارات والمقاهي وغيرها.

كتبت سلاسل كثيرة في شؤون شتى، على الفيسبوك وفي اماكن اخرى، وكان الخروج منها سهلا، كنت اتقيأ سياسة فترتاح معدتي، واكتب في شؤون اخرى فيرتاح دماغي، واما الخروج من بغداديات بعد 73 حلقة فهو صعب جدا، لان ما فيها يستقر ابعد من العقل، انه اصعب على قلبي من مغادرة بغداد عام1995 ، كنت يومها عائدا الى فلسطين، اما اليوم فأغادر لا اعرف الى اين .

ليس ان" الطريق الى البيت اجمل منه "كما قال الشاعر محمود درويش، فالبيت جميل وعزيز، ولكن الاشياء البعيدة تبدو اكثر رومانسية وجمالا،

وعندما تغدو ابعد في الجغرافيا والزمن، تصير اجمل وانقى، ولكن المكان يتبدل والزمان لا يتوقف الا في البال، كما قال الشاعر :

قد يهون الزمان الا ساعة / وتهون الارض الا موضعا

ورغم ان الزمان والساعة لم يكونا حقيقة في بغداد، او ربما كانا هناك ولكن خيالا ولدقائق ليس اكثر، وربما لم يكونا او لم يصيرا الى الآن، وربما كنت احاول نحتهما، وبث شكوى الزمن المفقود من سادية الحاضر، فانا مصاب بالحنين الذي عبر عنه محمود درويش :

الحنين وجع لا يحن الى وجع

هو الوجع الذي يسببه الهواء النقي القادم

من اعالي جبل بعيد

وجع البحث عن فرح سابق

لكنه وجع من نوع صحي

لأنه يذكرنا بأننا مرضى

بالأمل...وعاطفيون!!

عماد الاصفر

رام الله

6 تموز 2020

بغداديات 1

East Tea Can

لطالما احببت الشاي صغيرا وفضلته على كافة المشروبات الحارة والباردة، صيفا او شتاء، حتى ان إعداد الشاي كان اول مهارة اتعلمها من مهارات المطبخ .

كان الشاي الحلل أيامها يضاف الى الماء بعد اضافة السكر في الأباريق، فأيامها كان مزاج العائلة واحدا موحدا.

كبرت وكبر معي حب الشاي، كنت أفضله ثقيلا بعض الشيء ودون ميرمية او نعناع، الغالبية في بلادنا يضيفون اليه الكثير من هذين النباتين حتى لتشعر ان طعم الشاي قد اختفى تماما.

والغالبية يصنعونه خفيفا، او بالأحرى هم لا يصنعونه هذه الايام بل يضعون المكونات أمامك ويطلبون منك بأدب مصطنع ان تصنعه انت، حسب رغبتك .

وإذا جلست في كافتيريا وطلبت كأسا من الشاي سيحضرون لك كاسة ماء ساخن وضعوا بداخلها ضمة من النعنع ووضعوا بجانبها كيسا من اكياس الشاي وكيسين من السكر، تشعر ساعتها ان النعنع اجباري واما الشاي فأنت حر في ان تضيفه او لا تضيفه .

الادهى والامر من ذلك ان يحضروه في فناجين كبيرة، لا في كاسات شفافة، عندها يستحيل طعم الشاي الى شيء آخر، لا يمت بصلة قربى او نسب للشاي ابو الكباية .

شاء القدر ان اعيش في العراق سنوات طويلة، والعراقيون يعشقون الشاي ويتفننون في صنعه وتقديمه، سأظل اتذكر اول كاس شاي عراقي تناولته، كان ذلك في وقت الفجر في ساحة الوثبة) حافظ القاضي (بشارع الرشيد في منتصف بغداد حيث تقلع وتهبط هناك سيارات الجي ام سي التي تنقل الركاب من عمان الى بغداد برا .

كان النادل فتى يافعا وكان ابكم، تطغى طيبته وابتسامته وحيويته وتفانيه في الخدمة على كل شيء، كان يقرع الصحون بالكاسات، ويحمل منها عددا كبيرا بمنتهى المهارة ويقدمها في غاية السرعة.

العراقيون يسمون كاسة الشاي استكان ويؤنثونها احيانا ويجمعونها لتصير استكانات او استكاين، والتسمية جاءت من ضابط احتلال بريطاني طلب قدحا من الشاي الشرقي قائلاEast Tea Can :، وكعادتهم نحت العراقيون العبارة فصارت كلمة مميزة تميز العراق والعراقيين .

كان شرب الشاي بين المحاضرات في الجامعة التكنولوجية ببغداد الفعالية الوحيدة التي نقوم بها الى جانب الحديث في السياسة، وكان الشاي المشروب الوحيد المتواجد في حديقة الاتحاد العام لطلبة فلسطين في منطقة الوزيرية، كان يقدمه لنا عامل مصري لطيف وظريف اسمه ماهر.

‘إحتدم النقاش حول فتح ذات مساء في حديقة الاتحاد، وصار نقاشا حادا جدا، فما كان من هذا الماهر الا ان وزع كاسات الشاي على كافة الجالسين على حسابه الخاص وهو يعاتبهم قائلا بلهجته المصرية التي تحاول محاكاة العراقية: فتح ايه يا عم؟ !!!مهي مصر مفتوحة أهي، عملت ايه يعني !!!

وبعد احياء ذكرى الانطلاقة في احدى سنوات الثمانينيات من القرن الماضي، دخلنا انا ومعاوية على ماهر وهو يحسب مدخرات ذلك اليوم، كان

سعيدا جدا بالغلة الوفيرة، وقال بمنتهى الجدية :أمّا انا بعت بيع في المولد بتاعكم !!!لا اعتقد ان احدا غير ماهر يمكنه ان يسمي انطلاقة فتح مولد .

للعراقيين مع الشاي قصص لا تنتهي، فهم يعتبرون ان تقديم الاستكان غير طافح مسألة معيبة، وهم لا يشربونه من الاستكان بل يسكبونه في الصحن ليبرد قليلا ويرتشفوه سريعا، وشايهم لا يعد في الاباريق العادية كما لدينا وانما في السماور وفي ابريق من الخزف يسمونه القوري .

غنى مطربهم القديم" مرتي كسرت القوري "وغنت فريدة بصوتها الذي لا يماثله صوت آخر" خدري الشاي خدري "احب سماع هذه الاغنية بصوتها وبصوت يوسف عمر وبصوت فرقة بغداد .وغنى كاظم الساهر عن الشاي ابو الهيل وسمك المسكوف على شط دجلة وهو يحن الى بغداد، وغنت ساجدة عبيد اغنيتها الشهيرة" اسمع صوت استكاين جا وين الشاي؟ "!

لا ادري متى توقفت عن عشق الشاي والتجأت الى القهوة اكثر، ربما جاء ذلك متزامنا مع مخالطتي ومجالستي للمثقفين، وترددي على كافتيريا الخضراء بفروعها في الكرادة و الاعظمية و المنصور، المهم انه تم واصبحت ممن يدمنون القهوة صبح مساء .

لا اذكر انني شربت الشاي في برلين حيث عشت قرابة العام، ولا اذكر انني شربته في هولندا او ايطاليا او اليونان او كرواتيا، وكنت عازما على تجربة الشاي الانجليزي ولكن ذلك لم يحصل الا في الزيارة الثالثة للندن، ولم يعجبني شايهم على الاطلاق .شربته في تركيا فاعجبني جدا، ولم تعجبني ابدا قوتهم الشقراء .

الغريب في الشاي الى جانب تعدد نكهاته واصنافه هو تعدد الوانه وتضاربها في التسميات، فالشاي الأحمر يسمى اسود، والاصفر يسمى اخضر، والاخضر

يسمى ابيض، وهذا اغلى ثمنا واقدر على حرق الدهون والسعرات من الاخضر الذي يتناوله خالد سليم .

تعرفت الى الشاي الاخضر في الصين، وضعوه امامي خلال محاضرة طويلة، وكنت كلما شربت كمية منه تأتي فتاة صينية تقف خلفي لتعبأ الكأس مرة اخرى بمنتهى اللطف واللباقة، وظللنا على هذه الحالة مدة 3 ايام، وفي اليوم الرابع اخذونا لمحاضرة في قاعة اخرى لم يكن فيها شاي اخضر، فشعرت بان جسمي يفتقد شيئا ما.

في تلك الزيارة دخلنا الى سوق صيني ضخم من خمسة طوابق لا يباع فيه الا الشاي بمختلف اصنافه ومستلزماته بدءا من الفناجين الى الاباريق فالصواني والطاولات وخلافه، وشربنا من هذا النوع ومن ذاك في فناجين صغيرة كفناجين القهوة السادة في بلادنا.

ظل الشاي الاخضر رفيقا لي رغم انني لا احبه، ولكن جسمي يفتقده، وجربت تناوله في ماليزيا واندونيسيا وكمبوديا ولم يتغير طعمه الا في تونس والمغرب حيث يصنعون شايهم الخاص واللذيذ، والذي تزيد لذته بفضل الاجواء المصاحبة له.

الحقيقة انني ساظل احن للشاي العراقي، وبسبب هذا الحنين كنت اتناول طعامي في مطعم مغربي بكوالالمبور وانتقل بعدها الى المطعم الايراني الملاصق له فاطلب منه شاي عراقي فيقول محتدا ايراني، شاي ايراني، اشربه فاجده لذيذا، ولدينا في رام الله مطعم يقدم اكلا بائسا وغالي الثمن ولكنني ازوره أحيانا لانه يتقن صنع الشاي العراقي .

والآن هل يستحق هذا الموضوع الكلمات الـ 850 التي انفقتها في كتابته؟ ابدا لا يستحق هذا مجرد اعلان عن الافلاس وخواء الافكار، ولكنني عازم

على ان استهل غدي بكاس من الشاي لا بفنجان قهوة كما هو المعتاد، ولو على سبيل التغيير.

وسماء الآغا

بغداديات 2

محيبس

سقط خاتم الخليفة العباسي من يده ذات سهرة رمضانية بعد ان اكل ما لذ وطاب وادى صلاة التراويح، تدحرج الخاتم بين ارجل الندماء فالتقطه احدهم واخفاه، واوهم الحاضرين انه سلمه للجالس قربه، وكذلك فعل الآخر، قال الخليفة :اين خاتمي؟ فمدوا ايديهم المغلقة وقالوا هل يستطيع وزيرك ان يكتشف اليد التي تخفي الخاتم؟ !طلب الخليفة من وزيره ان يفعل، فاستطاع لشدة فراسته وحسن تمعنه في وجوه الندماء ودراسة ما يطرأ عليها من توتر او قلق حين ينظر اليها طويلا او يفاجئها بنظرة مباغتة .

سرى خبر تلك السهرة في اسواق واحياء وخانات بغداد، وسرعان ما تحولت الى لعبة رمضانية ما زال العراقيون بمختلف مذاهبهم وقومياتهم يتوارثونها ويضيفون اليها، بعد ان اسموها) المحيبس (أي تصغير محبس والمحبس هو الخاتم، وجاء على اسم آلة من حَبَسَ لانه يحبس المتزوجين حين يكون خاتم خطبة او زواج .

غنت المطربة العراقية ساجدة عبيد عن المحبس فقالت :

يلوك المحبس بجفك يا مزيون ** حلو وشعره يتناثر فوق العيون

يا حلو الطول يا زينة الشبان ** من يمشي تمايل غصن ريحان

الغناء في بغداد فعل مصاحب للمزاج والكيف، وللحزن والبكاء، وللعمل واللعب ولكل شيء، يستطيع العراقي صناعة ابيات الشعر من أي مخلفات

كلامية ملقاة على رصيف الشاعر، ويستطيع العراقي ان يطوع أي كلمة اجنبية لتصير عراقية خالصة ويصير لها صيغة جمع ومبالغة وتصريف وتأنيث وتذكير، ويستطيع العراقي ان يلحن أي كلام، حتى لو كان كتاب جغرافيا .

ولذلك كان لا بد من ادخال الغناء الى مسابقات المحيبس المنظمة على شكل دوري للاحياء، والتي تشهد مشاركات هائلة بحيث قد يصل عدد اعضاء الفريق الى 100 من الرجال البالغين العقلاء يتقدمهم وجوه الحي واكابره، واما الجمهور فانه يصل الى الآف في التصفيات النهائية .مثل هذه التصفيات تبث عبر الفضائيات على الهواء مباشرة، ويعمل معلق رياضي يشتعل حماسا على نقل وقائعها، وتفسير احكام اللعبة، وقوانينها، مع ايراد احصائيات عن تاريخ كل فريق، وعن السيرة الابداعية لأبطاله المخضرمين، وهم عادة ما يكونون في العقد الخامس من العمر .

بعد كل نقطة يسجلها لاعب هذا الفريق او ذاك، تنطلق حنجرة المغني بزيه التراثي المؤلف من قمباز مبتور الكمين وعلى وسطه شداد من القماش او حزام جلدي عريض، وعلى رأسه كوفية ملفوفة كعمامة، او طاقية بيضاء، ليصدح بابيات من المربع او الجالغي البغدادي، ويردد الجميع من وراءه . وهم يتقافزون فرحا بالنقطة، فيما ينشغل الفريق الخاسر بترتيب خطته للجولة القادمة .

المربع البغدادي فن اصيل يحتاج الى اربعة اشطر يلقيها المطرب واقفا وهو يراوح بين الفريقين بصوت جميل مع ضربات الايقاع فيما يردد الجمهور الشطر الاول، وليس مستغربا ان يسود هذا النمط الغنائي وان يشتهر في الاحياء التي تحوز عادة على لقب البطولة في مسابقات المحيبس وهي الكاظمية والاعظمية والفضل وباب الشيخ.

شهدت لعبة واحدة اعتقد انها كانت بين حي الكاظمية ذي الغالبية الشيعية وحي الاعظمية ذي الغالبية السنية، هالني ما رأيت، لقد وقف احد اللاعبين يتمعن في وجوه افراد الفريق الآخر وكان عددهم قريب من المائة، اختار فقط أربعة اشخاص، وهو يهتف بهالعظمين وبهالعظمين) يعني هاتين اليدين (وأمر البقية بفتح اكفهم، قائلا :والباقي طلق) أي مطلقي الايدي (وفعلا كان المحيبس في يد واحد من الاربعة، وفجأة طلب من اربعتهم افلات اليد اليمنى، وتمعن في وجوههم واختار واحدا فسجل نقطة فاصلة أهلت فريقه للفوز .

عندما يستمر الفريقان في فرض التعادل ولا يستطيع احدهما الفوز، تستمر اللعبة، يقال ان لعبة استمرت من الثامنة ليلا الى الثامنة صباحا وحسمها البطل المشهور لطيف ابو الشوارب، وهو واحد من بين عشرة مشاهير من ابطال هذه اللعبة، ويستطيع استخراج الخاتم من بين فريق مؤلف من 400 لاعب .

الفريق الذي يلعب على ارضه يكون عادة مسؤولا عن تقديم البقلاوة والزلابية وزنود الست والفواكه للفريق الضيف، وكذلك تقديم وجبة السحور، لا تنتهي كل الالعاب بروح رياضية، فقد تشهد خلافات واتهامات بالخروج على قواعد واصول اللعبة، وقد يحصل هناك شغب بين جمهوري الفريقين .ولكن ذلك لن يوقف منافسات الدوري وصولا الى ليلة الختام وتتويج البطل .

ظل المحيبس لعبة رجولية خاصة بالعراقيين، ولكنه انتقل الآن ليصبح لعبة خليجية، فيما نقله المهاجرون العراقيون الى الدول التي لجأوا اليها وجعلوه نشاطا اجتماعيا مختلطا تشارك فيه السيدات لعبا وحضورا وغناءا للمربع .

محيبس

بغداديات 3

عراقيون في تل ابيب

كان جدي لأمي رحمه الله مزواجا، فقد زوجته الاولى وام اولاده وبناته، في حادث سير خلال رحلة الحج، بكاها طويلا، ثم تزوج الثانية وطلقها فالثالثة وطلقها فالرابعة وطلقها، ورحل عن الدنيا اعزبا تزوج 4 مرات، لقد كان يبحث عن جدتي في كل النساء ولم يجدها .

بين كل زواجين كان يكثر من الجلوس الينا، على يديه عرفت ناظم الغزالي، وكان يفسر لي بعض المفردات الصعبة في اغاني هذا المطرب العظيم، سينقضي زمن طويل قبل ان اعرف ان بعض تفسيرات جدي لم تكن صحيحة، وانما مجرد اجتهادات توافق هواه .

كان الغزالي من اوائل مطربي العراق الواصلين الى اسماعي خارج العراق، ومنذ الصغر فضلته على صباح فخري في اداء اغنية فوق النخل، هذه المقارنة ستتسع على مدى سنوات العمر، وستشمل المقام العراقي في مواجهة القدود الحلبية، وسياسة الحزبين المقسومين بخيط، وجمال البغداديات الممشوقات في مواجهة الشاميات الليّنات، وسيكون لـ المنّ والسلوى نصيبه في مواجهة البقلاوة، وكذلك للفاو المحررة نصيب من المواجهة مع القنيطرة.

ستطول المقارنات الى ان يشهد البلدان تباعا مصيرا دمويا ومستقبلا اسودا لا تصلح معه الا الرأفة لحالهما .

وكان سعدون جابر، الثاني وصولا الى سمعي، وكان هذا كافيا لكي يستقر في ذهني ان العراقيين يغنون بطريقة مختلفة وجميلة، طريقة ستحكم معايير

الطرب في قلبي وعقلي وتثبتها على بوصلة اللحن العراقي الذي تمنى مظفر النواب عودته وإن كان حزينا .

في واحدة من محطات ذكريات الطفولة مع الغناء العراقي، واظبت على سماع برنامج" من الغناء العراقي القديم "والذي كان يقدمه المذيع شفيق جباي عبر اذاعة صوت اسرائيل باللغة العربية، ويقدم من خلاله بطريقة رائعة معلومات عن المقام العراقي ويعرض قراءات لأشهر قراء المقام .

كانت صدمة كبيرة، أجبرت عقلي الصغير على التمييز ولكن بمنتهى الصعوبة بين الاسرائيلي واليهودي، واليهودي العربي عن غيره، واليهودي العراقي عمن سواه من اليهود العرب كالمغاربة او اليمنيين او المصريين.

من خلال هذا البرنامج عرفت الفنان اليهودي العراقي فلفل كرجي المولود في سوق حنون الشعبي وسط بغداد، كان يكتب اغانيه باللغة العربية ويلحنها ويؤديها باتقان، وكان يقرأ القرآن على شاشة تلفزيون اسرائيل خلال شهر رمضان.

وعرفت عن صالح الكويتي وشقيقه داود، ولد هذان الشقيقان في الكويت وعاشا في البصرة وابدعا في تطوير الالحان والاغاني العراقية قبل ان يتركا العراق ويهاجرا الى اسرائيل كالآف آخرين من اليهود العراقيين، قبل عام تقريبا قام حفيدهما المغني دودو تاسا، بإصدار البوم عنوانه الهجر، وهو عبارة عن مزيج مُحدث من الألحان التي اشتهر بها جداه .

شهرة المطربين اليهود العراقيين لم يستطع مقاربتها الا الفنان اليهودي السوري موشيه الياهو، لقربه الشديد من العرب ولقدراته الفائقة في عزف وغناء القدود الحلبية .

ساء البعض ان يقول الرئيس محمود عباس ذات لقاء صحفي انه كان يستمع الى موشيه الياهو، الحقيقة ان كثيرين جدا كانوا يستمعون لهذا المطرب، ويدعونه لاحياء حفلاتهم، وظلوا يلحون عليه لمشاركته افراحهم حتى بعد ان اصابه العمى، ويقال انه لم يغن بالعبرية اطلاقا لانه مات قبل ان يتقنها.

لليهود العراقيين صولات وجولات في مجال الفنون، بعضهم لم يهاجر الى اسرائيل وظل مقيما في بلده العراق، هذا البلد الذي يحفل بتعدد طائفي وديني ومذهبي وقومي واسع، من بين هؤلاء الفنانة سليمة مراد وهي اول سيدة تحصل على لقب باشا وهي زوجة ناظم الغزالي، كانت تكبره بـ 16 عاما وتوفي قبلها بـ11 عاما.

قصة تعارف وزواج هذين الفنانين ومكان لقائهما وظروف ذلك اللقاء تستحق مساحة خاصة من سجل الذكريات، مساحة مماثلة يجب ان تمنح لكثير من الفنانين العراقيين الذين لم يحالفهم الحظ بالانتشار عربيا على نطاق واسع، مثل خضيري ابو عزيز وداخل حسن والياس خضر وزهور حسين ويوسف عمر ورياض احمد وفريدة وسيتا هاكوبيان وامل خضير وسعدي البياتي وسعدي الحديثي وسعدي توفيق وسعدي الحلي، وغيرهم كثير .

سرني ان اعلم ان ناظم الغزالي زار فلسطين قبيل النكبة وغنى للجيوش العربية التي كانت ترابط على ارضها، وسرني ان زارنا الفنان سعدون جابر العام الماضي، وان احدا وقتها لم يفتح صهريج الانتقادات حول التطبيع كما جرى مع زيارات اخرى لفنانين آخرين، هذا التسامح مع سعدون جابر يشير بوضوح الى حب الفلسطينيين له ولبلده.

حب العراق ظل حيا في قلوب الفلسطينيين والعرب، واكثر من ذلك لقد ظل حب هذا البلد وعمق حضارته وجمال تراثه حاضرا في قلوب واذهان 600 الف يهودي تناسلوا من يهود العراق الذين هاجروا الى اسرائيل بعد النكبة، كثير من المهاجرين الاوائل كان يتمنى العودة.

للثقافة حين تكون عميقة واصيلة مفعول اقوى من الايدولوجيا والسياسة . فالثقافة صادقة واما الايدولوجيا فمتلونة حسب التفاسير، والسياسة مخادعة من مبتدأها الى منتهاها .

ان تكون الثقافة عميقة واصيلة يعني ان تكون نهرا متدفقا ترفده قنوات من هذه الايدولوجيا او تلك بدفقات من المياه ولكن من دون ان تحرف مساره او تغير لونه او تعكر مائه .

سرى الخفاجي

بغداديات 4

تماثيل ودماء

لم تعجبني اطلاقا تماثيل الجنود العراقيين المزروعة على طول شط العرب في البصرة وكل منهم يشير بإصبعه الى العدو الايراني، لم تعجبني رغم انني كنت عائدا في ذلك اليوم 17 نيسان من عام 1988 من شبه جزيرة الفاو التي حررها العراقيون بعد احتلال ايراني دام عامين .

معركة التحرير التي سميت رمضان مبارك لتزامنها مع اول ايام الشهر الفضيل ذلك العام، شهدت تكتيكات ذكية من بينها بث رسائل لاسلكي مضللة يتمكن الايرانيون من التقاطها، واستمرت 35 ساعة، وانتهت بقتل الف جندي ايراني واصابة واسر الآف آخرين والاستيلاء على معدات كثيرة.

الكل سيهتم برصد خسائر المهزوم، لا احد سيحسب الخسائر البشرية للمنتصر، فهو منتصر وهو من سيكتب تاريخ الموقعة، قلة قليلة ستؤمن دوما بان لا منتصر في الحرب، وان الكل فيها خاسر .

فلسطينيا شهدت تلك الايام اغتيال خليل الوزير ابو جهاد عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، عمليا لم يؤثر ذلك على معنويات المنتفضين بل أججها الى اقصى حد، وفتح كوّة صغيرة في الجدار المغلق بين سوريا بقيادة الاسد ومنظمة التحرير بقيادة عرفات .

شيع جثمان الشهيد ودفن في مخيم اليرموك بدمشق، المختلفة بشدة وقتها مع ياسر عرفات، شارك مئات الالآف في مسيرة التشييع التي اعتبرت تصويتا

لصالح المنظمة في معقل خصومها المنشقين .لم تتسع الكوة بل جرى اغلاقها بعد ذلك .

واستمعت لياسر عرفات بعدها بأيام وهو يخطب بمهرجان جماهيري في الجامعة المستنصرية ببغداد، ويقول ليس مصادفة ان تبدأ فلسطين والفاو بحرف الفاء، لم يزد ساعتها بإضافة فتح الى ثالوث الفاء، ولكنه رحب يومها بأمين الحافظ الذي خلع من الحكم في سوريا عام ١٩٦٦ ولجأ الى العراق، وخاطبه قائلا انت الرئيس الشرعي لسوريا .

لو كانت هذه الكتابة بالقلم والورقة، لتركت كل الفقرات التي تلت تماثيل الجنود الى الهوامش، ادوات الكتابة تفرض اسلوبها احيانا، وانفتاح بوابات الذاكرة يفرض ذاته على كل الاساليب والادوات، الاولوية للذاكرة، فقد تغيب طويلا وقد لا تعود، واما الاسلوب والاداة فسيظلان قابلين للتعديل مرارا وتكرارا .

نعم لم تعجبني تلك التماثيل ولكن غيرها اعجبني كثيرا، واعتقد ان العراق من اكثر الدول العربية اهتماما بالنحت واتقانا لفنه، تشهد على ذلك عشرات التماثيل، التي بدأت ملاحظتها، بعد ان سكنت في حي المنصور وكنت اقف على بلكونة تطل مباشرة وعن قرب على تمثال لرأس الخليفة ابي جعفر المنصور، الخليفة العشرين للدولة الاسلامية، والثاني للدولة العباسية .

تم تدمير هذا التمثال بالمتفجرات بعد تحريض متشددين من ائمة الشيعة، الذين استذكروا ان بني العباس استغلوا عواطف العلويين الراغبين بالانتقام لمقتل آل البيت على ايدي الامويين، ثم تنكروا لهم بعد ان تمكنوا ووصلوا للحكم .

تاريخ العراق حافل بالحروب والثورات وقتل الملوك والرؤساء، من فيصل الاول الى صدام حسين تناوب ملوك ورؤساء على كرسي العرش الملكي في العراق او رئاسته عندما اصبح جمهورية، لم ينج من بينهم من القتل سوى عبد الرحمن عارف .

الملك فيصل الاول قتل بحقنة زرنيخ سامة حسب الكثير من المراجع، والملك غازي بحادث سيارة مفتعل داخل قصره، والملك فيصل الثاني قتل مع كافة افراد اسرته بإطلاق نار بعد مهاجمة قصره، الهجوم يومها طال ايضا ولي العهد والوصي على العرش عبد الاله بن علي، والسياسي المخضرم نوري السعيد ونجله وقد تم سحل جثثهم في بغداد قبل ان تحرق، يقال ان قاتل الملك وعائلته اطلق النار على رأسه وانتحر ندما على جريمته بعد 12 عاما .

نهاية العصر الملكي لم تنه ظاهرة قتل الرؤساء، فأول حاكم لعراق ما بعد الملكية هو الزعيم عبد الكريم قاسم وكان غريما للزعيم جمال عبد الناصر، نجا قاسم من محاولة اغتيال لتتم الاطاحة به واقتياده من مكتبه بوزارة الدفاع الى مبنى الاذاعة حيث جرت محاكمته سريعا في احد الاستوديوهات وبعدها مباشرة تم تنفيذ الحكم بإعدامه رميا بالرصاص، احكام مماثلة طالت اركان قيادته .

عبد السلام عارف الذي ثار على قاسم قال في آخر خطاب له" لقد نذرت نفسي للشعب العراقي "بعدها بساعات اشتعلت طائرته بينما كانت تحلق فوق بساتين النخيل قرب البصرة، انتهز لحظة تحليقها فوق النهر ليلقي بنفسه على امل السقوط في الماء، لكن جبينه اصطدم بجرف صخري ومات .

خليفته عبد الرحمن عارف كان مسالما، فما ان ثاروا عليه، حتى عرض عليهم التنحي عن الحكم مقابل ضمان سلامته وسلامة ابنه، وافقوا على ذلك، وتم ابعاده الى اسطنبول وظل فيها الى ان اعاده صدام حسين وعينه مستشارا، ليكون اول رئيس عراقي لا يقتل .

تولى قائد الثائرين وقتها احمد حسن البكر رئاسة الجمهورية، وظل فيها الى ان قطع التلفزيون بثه المعتاد ليعلن استقالة البكر بسبب كبر سنه وتولي صدام حسين رئاسة الجمهورية، ظل البكر في الاقامة الجبرية بمنزله الى ان مات بحقنة سامة حسب الرواة، وبنوبة قلبية حسب اطبائه وآخرين، فيما متن صدام حسين اركان حكمه وخاض الحروب داخلية وخارجية واحدة بعد الاخرى وانتهي مشنوقا في عملية اعدام مصورة وهو يهتف عاشت فلسطين حرة عربية .

ما كنت اريد ان استرسل في هذا البحر من الدماء الملكية والرئاسية، كنت اريد ان ابدأ بتماثيل الجنود لانتقل الى تمثال ابي جعفر فتمثال شهرزاد ونصب كهرمانة والاربعين حرامي وتماثيل غيرهم من القادة والمفكرين والشعراء، لكن السياسة اللعينة تبعدنا دائما عن كل ما هو جميل .

وطالما انني اسهبت في السياسة وجانبت الفن والتماثيل، فقد يكون من المناسب القول ان صدام حسين كان قد امر بتشييد تماثيل لكل من حكم العراق قبله بدءا من نبوخذ نصر وانتهاءً باحمد حسن البكر، لا ادري إن كان الامر قد صدر قبل او بعد تشييد تمثاله الشهير في الميدان الذي يتوسط فندقي عشتار شيراتون وفلسطين ميريديان، هذا التمثال الذي شاهدنا على الهواء مباشرة عملية اقتلاعه من جذوره في يوم السقوط، في مثل هذه الايام من نيسان عام 2003.

تماثيل جنود على شط العرب

بغداديات 5

منّ السما وبنات الرعد

كان والدي رحمه الله واحدا من بين مئات غادروا قراهم في فلسطين منتصف القرن الماضي، واتجهوا الى العمل في الكويت، وسرعان ما صار عددهم مئات الألاف، كنا ننتظر قدومه في اجازات الصيف بفارغ الصبر، وبقدومه يصير الصيف موسما للمتعة، كانوا يأتون الى الاردن برا، إما عن طريق السعودية وإما عن طريق العراق .

كنت اعرف من أي طريق جاء دون سؤال وجواب، فالقادم عبر العراق سيحمل معه دون ادنى شك، عددا من الصناديق الخشبية البيضاء المغلقة بالمسامير بإتقان وإحكام، في داخل كل صندوق قطع من حلوى بيضاء طرية مغمورة بالدقيق، لم يكن لطعمها شبيه، كانت رغم صلابتها تذوب على لساني، وتصبح هشة، سامحة لي باستكشاف ما بداخلها من لوز او فستق.

يصعب وصف الطعم، غير ان الشعور المصاحب لتذوق تلك الحلوى كان مدهشا، لدرجة انه يدعوك الى التمهل، وتركها تذوب في الفم ببطء قبل ابتلاعها، لن تشعر بامتلاء، او اقتناع، ستطلب المزيد، ففي كل حبة من حبات (منِّ السِما)، تتكرر دهشة التذوق، ومحاولات الوقوف على الطعم الجميل والمحير .

لم تكن حبات (منِّ السِما) قاسية كحبات النوغا السورية البيضاء، ولا مليئة بالسكر كالحلاوة الطحينية، التي تقنعك بل تدفعك لتركها بعد اول ملعقة.

باختصار لقد كانت شيئا مختلفا وخرافيا، وهو ما ثبت لي لاحقا، عندما عرفت انها مجرد تحوير ونحت عراقي للمنّ والسلوى، التي وردت في ثلاث آيات في القرآن الكريم وكانت دوما مرتبطة ببعضها ومرتبطة بفعل انزلنا عليكم أي على بني اسرائيل .

العراقيون ماهرون جدا في نحت العبارات، تفعل كل الشعوب ذلك ولكن العراقيين امهر من كل الشعوب، حدثتكم سابقا عن الضابط البريطاني الذي طلب كوبا من الشاي الشرقي قائلاً:East Tea Can، وكيف نحت العراقيون العبارة لتصبح استكان، ولتصير هوية مميزة للعراق وللعراقيين ولكل كاسة شاي على مر التاريخ . هناك شواهد كثيرة على ابداع العراقيين في نحت الكلمات .

كيف نحت العراقيون المنّ والسلوى لتصير منِّ اِلسما، وهل هذه النعمة التي انزلها الله سبحانه وتعالى على بني اسرائيل في زمن التيه، هي ذاتها التي تصنع في السليمانية وتوضع في علب خشبية، ليشتريها القادمون من الكويت الى الاردن؟

رأى المفسرون ان المنَّ الذي انزله سبحانه وتعالى كان سائلا غليظا كالصمغ ينزل على الاشجار كالثلج، ويكون أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، واما السلوى فهي وفقا لبعض المفسرين العسل، ووفقا لآخرين هي طائر السُّمان .

وطبعا رأى آخرون ان المنَّ انما هو كل ما امتنَّ الله به على بني اسرائيل من طعام وشراب، وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، ورأوا ايضا ان السلوى المقصودة هي السلوان وكل ما يُسلي الانسان .

وامام احتشاد وتضارب التفاسير، لا بد من الذهاب الى طريقة صنع هذه الحلوى وتبين مكوناتها ومن اين تأتي؟ لا اختلاف هنا ولا مجال للتفاسير المتضاربة .

يجمع الفلاحون العراقيون المادة الخام التي تفرزها حشرة المن على جذوع اشجار الجوز والبلوط والمازو في فصل الخريف وتكون صمغية لزجة مائلة للاخضرار ويبيعونها لمعامل الحلويات حيث يتم تذويبها في الماء المغلي، ثم تصفيتها ثم تصنيعها وحشوها بالجوز او اللوز او الفستق ثم يتم عجنها بالدقيق قبل ان تعبأ في العلب الخشبية .

وبذلك يكون العراقيون قد جمعوا كل التفاسير :ما هو مادي كالسائل الصمغي الغليظ او العسل، وما هو لا مادي كالمنّ بمعنى الفضل والهبة والنعمة التي تتأتي للإنسان من رب السماء دون كد او جهد او تعب، وصاغوا منَّ سمائهم، لنحتار في طعمه وفي معناه أهو مادي تجمع مادته اللزجة من الاشجار، ام هبة السماء لأنه لا يزرع ولا يستنبت ولا يحتاج ارضا او حراثة او سقاية.

اصحاب منهج الهبة الربانية يسندون رأيهم بحديث نبوي صحيح يقول "الكمأة من المنّ، "..... والكمأة) الفقع لدينا في المشرق، والترفاس هناك في المغرب العربي(، نبات لا ساق ولا اوراق له، وينمو تحت الارض في الصحراء، ويستخرج منها على ايدي العارفين بالحفر في فصل الربيع وفقط بعد نهاية ايام المطر المصحوب بالرعد والبرق، ولذلك يسمون حبات الكمأة ببنات الرعد.

بنات الرعد هذه مفيدة ولذيذة تشبه البطاطا شكلا وحجما ولكنها رخوة وملساء، اللافت في الموضوع ان لا احد زرعها او إستنبتها فهي تخرج

لوحدها بعد الرعد والبرق وفي الاراضي التي لم تطأها قدم الانسان، انها هبة الله ومنّة السماء والرعود والبروق.

في السنوات الاخيرة لم يعد المسافرون يشترون منّ السما من بغداد لنقله الى الاردن، لقد اصبح يصدر الى هناك، وربما يصنع هناك ايضا، غير ان المسافرين في الربيع كانوا يتوقفون في منطقة الرمادي لشراء اكياس كبيرة من الكمأة التي نمت في اراضي الانبار .

اغلب الظن ان شباب الانبار يضعون الآن اطراف دشاديشهم بين اسنانهم او يربطونها الى وسطهم، ويحمل كل منهم فأسا صغيرا بعصا طويلة، يسير كل منهم متتبعا شقوق الارض التي جفت، وبعين الخبير سيلحظ نتوءا صغيرا، سيحفر على عمق 10 سم لا اكثر، ليجد بنت الرعد هناك في انتظاره، سيجمع منها الكثير، فهذا موسمها .

من السما

بغداديات 6

كله عند العرب بطيخ

كنا صغارا نلهو ونستمتع باي شيء جديد، اذكر بوضوح الآن اول تعارف لي مع البطيخ، ككرة خضراء مبرقعة، كملابس القوات الخاصة والصاعقة وشوادر التمويه التي يضعها الجيش على سيارات اللاند روفر، قبل ان اتعرف اليه كنبات وطعم، وقشر وبزر.

لقد أقيم معرش كبير في حارتنا، وكان شبيها بخيمة السيرك، وفرشت ارضه بالقش، وسرعان ما حضرت شاحنة كبيرة تحمل عددا هائلا من رؤوس البطيخ، بدأ الشباب ذوو العضلات بتفريغ الشاحنة، من خلال تقاذف تلك الرؤوس بكل مهارة، لتحتضنها الايادي وتقذفها من جديد الى شخص يضعها بكل أناة الى جانب اخواتها البطيخات الأخريات .

كانت الاسر تشتري البطيخ بالجملة وخاصة عندما يتلاقى موسمه الصيفي مع شهر رمضان، كانت رؤوس البطيخ تتزاحم تحت السرير، وكان شرائه مهارة يدعيها الكل ولا يتقنها احد الا بالصدفة، وكان تقشيره فن يدعي الكل انه امهر من غيره فيه، وكان يقدم للأمير وللغفير كضيافة لا غبار عليها، وكان سحورا مميزا حين يقدم مع الجبنة البيضاء.

كان البزر الاسود وفيرا في بطيخ تلك الايام، كان يجمع ويغسل ويجفف ثم يحمص بإضافة الملح وربما الفلفل الاسود، بطيخ اليوم لم يعد مدورا فقط، ولا اخضرا مبرقع فقط، ولم يعد اسمه البطيخ فقط، ولم يعد يذبح ويقطع ويقدم بذات الطريقة، لقد امتلك اسماء واشكال والوان جديدة، وتنافس المئات

في تصوير مهاراتهم بذبحة وتقطيعه ونشر ذلك عبر فيديوهات اليوتيوب حيث تلاقي متابعة كبيرة .

اول اسم آخر للبطيخ، واول شكل مغاير لكرة البطيخ، واول لون جديد للبطيخ واول طريقة ذبح غير تقليدية للبطيخ تعرفت اليها في بغداد، فهناك اسمه رقّي، وشكله اسطواني متطاول، ولونه فستقي وغير مموه، واما ذبحه فلا يتم بشقه نصفين طوليا او عرضيا، وانما بتحوبل الكتلة الاسطوانية الى دوائر .

الطعم ذاته ان لم يكن افضل، رغم غرابة الاسم وحداثة الشكل، لكنني لا استطيع الجزم انه سيكون ذات الطعم حين يصبح مكعبا، او على شكل قلب حب كما انتجته اليابان مؤخرا وبيع هناك بأثمان مرتفعة جدا كهدايا قيمة . يبلغ سعر البطيخة اليابانية المكعبة 96 يورو، واما البطيخة على شكل قلب حب فانها تباع ب 2600 يورو .

ومؤكد انه لن يكون ذات الطعم حين يصبح اسمه شمزي كما في الموصل، او شفتي كما عند الاكراد، او دلاع كما في الجزائر وليبيا، او دلاح كما في المغرب، او جبس كما في حلب، او جح كما في السعودية وسلطنة عمان، او يح كما في الامارات، او حبحب كما في اليمن، او قرة ما في الصومال، او دبشي كما في دير الزور .هنا يحتاج القول اننا" امة عربية واحدة "الى دفاع مستميت، افضله المثل الشعبي القائل:"كله عند العرب بطيخ ."

الحقيقة ان كل الاسماء بدءا من بطيخ ومرورا بـ جح و يح وانتهاءا بـ دبشي، لا تعكس من البطيخ لا شكله ولا لونه ولا طعمه ولا أي شيء منه،

هناك اشياء واضحة اكثر، اسمها على لونها كالبيضة مثلا، اما هذا الاخضر والابيض والاحمر والاسود، فلا اسم يحمله بوضوح وشفافية .

درج العراقيون على شراء البطيخ ع السكين، ومن هنا جاء المثل الشعبي الذي يردده غير المهتمين بـالجندرة" :المرة مثل الرقية انت وحظك ع السكين ."ويقابله لدينا" :الزواج مثل البطيخة"، والحقيقة ان البطيخ دخل كثيرا في الامثال والاقوال المأثورة والشعبية فاذا اردنا طمأنة شخص قلنا له" :حط في بطنك بطيخة صيفي "وكأن هناك بطيخ شتوي مثلا.

واذا اردنا تحذيره نقول له" :بطيختين بالايد ما بتنشال "وكأن اليد مثلا يمكنها حمل خروفين او شمامتين، واذا ما اردنا ايصاله الى حافة اليأس من الدراسة مثلا نقول له" :بلا دراسة بلا بطيخ "واذا ما اردنا حمل احدهم على نسيان خسارته نقول له" :ياما كسر هالجمل بطيخ"، واذا ما اردنا التذكير باصل الشيء قلنا" :ازرع البطيخ بقثاة، كل شيء يرجع لأباه ."وفي مصر يقولون لمن يفتعل مشكلة على شيء تافه" :علشان حتة بطيخ عمل مشكلة وصريخ."

وانا ايضا عملت من الحبة بطيخة وليس مجرد مشكلة او قبة، وبقي ان اقول ان باعة البطيخ مميزون باشكالهم واصواتهم وسلوكهم، فهم عادة سمينون جدا يرتدون دشداشة في وسطها حزام، ومعلق به سكين، وينادون على بضاعتهم بصوت عال جدا، ويتفنون في المناداة عليها، وفي طريقة عرضها .

واما بائعات البطيخ فيكفيهن زهواً ان نانسي عجرم هي نقيبتهن او ملكتهن، ولقد حازت هذا اللقب بجدارة عندما رقصت وغنت بفستانها الاحمر

الجميل اغنية" ما تيجي هنا "فيما كانت تبيع البطيخ قبل ان يجري اعتقالها بتهمة تكسير البطيخ في الشارع العام .ذكية جدا هذه النانسي، لقد تمكنت من الافلات من قبضة العدالة يومها .

لبطيخ العراقي

بغداديات 7

فوق إلنا خل

واحدة من اكثر الحقائق ازعاجا، بالنسبة لي على الأقل، هي ان اغنية فوق النخل، التي نعرفها منذ الصغر، لا علاقة لها بشجر النخيل ابدا، وان اصلها هو" فوق إلنا خِلّ "أي هناك في الأعالي لنا حبيب، والأعالي تبعا لقصة الاغنية هي الطابق الثاني من منزل بغدادي .

تقول كلمات الاغنية التي غناها كثيرون جدا، بعد ان لحنها وأداها لأول مرة الملّا عثمان الموصلي قبل اكثر من 100 عام :

فوق النخل فوق يابه فوق النخل فوق

مدري لمع خده يابه مدري القمر فوق

والله ما اريده باليني بلوه

متن وشعر وخدود يابه ميزك ربك

لهذا السبب يا هواي خلاني أحبك

والله معذبني وما عنده مروه

وينشدني البطران ليش وجهك أصفر

كل ما مر بيه يابه من درب الأسمر

والله سابيني بعيونه الحلوة

تسالني علتي امنين يابه وانت سببها

كتبه عليه هاي يابه ربك كتبها

والله ماريده باليني بلوه

انه اللّي تعبت وياك يابه واعدمت حيلي

وانت إطلعت) بذات (يابه ناكر جميلي

والله ما اريده باليني بلوه

ماجوز انا من اهواي يابه مهما جفه وراح

اتمنه اعيش وياه يابه ريحته قداح

والله ماريده باليني بلوه

هل قرأتموها ملحنة؟ بأداء ناظم الغزالي ام صباح فخري؟ لعلكم لاحظتم انني احتفظت بعبارة) فوق النخل (غير الصحيحة، ولم استخدم عبارة) فوق إلنا خل(، هكذا ستظل في وجداني، والوجدان يفضل الانطباعات على الحقائق، والخيال على الوقائع، ليس في الاغاني فقط وانما في كل شيء.

أعتقد ان كلمات هذه الاغنية العراقية مفهومة، ربما باستثناء كلمة) بذات (والتي جعلتها بين قوسين، هذه مفردة عبقرية ينفرد بها العراقيون، وينطقونها بباء مفتوحة، وهي شديدة التعبير والتكثيف والاختصار، وتعني الانسان الاناني الذي يحب ذاته .

وردت هذه المفردة العظيمة على لسان سعدون جابر في اغنية" عيني عيني "ويقول فيها :

لا انت فرح وابتسم ولا انت دمع وابجيك

ولا انت حبيب ونحب ولا انت عدو انعاديك

عيني عيني عيني عيني

لاتعاشر) البذات (والماله تالي

مثل اللي يلم الماي يرد جفه خالي ياعيني

عيني عيني عيني عيني

خلاني وقتي وياك ريشة بوسط ريح

لاتثبت على القاع ولاتقبل اتطيح ياعيني

عيني عيني عيني عيني

بية بكثر مابيك هم وشده بال

وانت ادرى ما بالحال حال اشوى من حال ياعني

عيني عيني عيني عيني

ما ارجو من الصفصاف يطلع ثمر بيه

وانا اعلى كيد اعداي ازرع واداريه ياعيني

عيني عيني عيني عيني

من بين الانطباعات التي لن تتغير، صورة المنزل البغدادي الذي وقعت في حوشه احداث قصة هذه الاغنية، المنازل البغدادية التقليدية تتألف من حوش واسع تصطف الغرف على جنباته على طابقين، وامام غرف الطابق الثاني ممر رفيع محفوف بدرابزين يطل على الحوش، وتسكن العائلات الفقيرة في غرفه، متشاركة في الحوش والسطح حيث يطيب للعراقيين ان يناموا صيفا .

آخر منزل دخلته من هذا الطراز هو مطعم المضيف، في شارع ابو نواس المقابل لما كان القصر الجمهوري ولما بات يعرف بالمنطقة الخضراء، صاحب هذا المطعم الانيق هو صحفي لبناني مخضرم اسمه اياد موصللي، تطوع في صباه للقتال في فلسطين مع جيش الانقاذ، وله شهادة مهمة عن تلك الفترة اودعها في كتابه" حاربت في فلسطين قبل بيعها "واما بقية سيرته كصحفي في لبنان وغيرها وكرجل اعمال في العراق فقد اودعها في كتابه" سيفنا هو القلم ."

لقد حول موصللي هذا المنزل البغدادي الذي كانت تقطنه عمة ملك العراق فيصل الثاني وشقيقة الوصي على العرش عبدالاله الى مطعم سياحي فاخر وقبلة للوفود الرسمية، ومعلما بارزا من معالم شارع ابو النواس، المزدان بعدد كبير من الحانات التي يحمل بعضها اسماء الالوان بدءا من البيضاء فالحمراء فالزرقاء والخضراء .وانتهاءا بالمقهى البغدادي .

فوق النخل

آخر مرة سرت فيها في هذا الشارع كانت عام1995 ، مررت بالمضيف، فاذا بقربه يافطة حديدية كبيرة لونها ازرق وضعتها امانة بغداد، وقد كتب عليها بخط كبير" حتى التفكير بالوقوف هنا ممنوع منعا قطعيا"، كانت العبارة صادمة جدا حتى لمن هم مثلي ممن عاشوا في بغداد طويلا، وعرفوا طبيعته الامنية وظروفه المعقدة في ذلك الوقت .

بغداديات 8

ماكو اوامر يا عساكر

في العراق كل شرطي هو ابو اسماعيل، حتى لو لم يكن له من الابناء لا اسماعيل ولا غيره، وحتى لو لم يكن متزوجا من الاصل، ويقال في سبب ذلك ان اول من تسجل للخدمة في جهاز الشرطة سنة 1921 تحت امرة البريطانيين والهنود كان اسمه خليل، والخليل كما هو معروف صفة نبي الله ابراهيم، والد رسوله اسماعيل عليهما السلام .

ثمة رواية اخرى تقول ان اسم اول من تسجل للخدمة في الشرطة لم يكن خليل على الاطلاق، وهذه الكنية مأخوذة من ان العراقيين يكنون الرجل الذي اسمه اسماعيل ابو حقي، والذي اسمه حقي ابو اسماعيل، وبما ان دور الشرطي مرتبط بتحقيق العدالة والامن، واعطاء الحق لأصحابه، فانسحبت هذه الكنية على الشرطي انه) حَقِيّ (بفتح الحاء وكسر القاف وتسكين وتشديد الياء، واصبحوا ينادونه ابو اسماعيل .

في العراق يكاد يكون لكل اسم كنية خاصة به، فكل محمد هو ابو جاسم، وكل ابراهيم ابو خليل، وكل علي ابو حسين، وكل حسن ابو علي، وكل خالد ابو الوليد، وكل طارق ابو زياد، وكل فاضل ابو العباس، وكل سليمان ابو داود، وكل يوسف ابو يعقوب، وكل فيصل ابو غازي، وكل احمد ابو شهاب، وكل نضال ابو عزيز، وكل فهد ابو نمر، وكل خليل ابو اسماعيل.، وكل اسماعيل ابو حقي، وكل حقي ابو اسماعيل .

ولا شك لدي بان كل مظفر عراقي سيحمل كنية ابو عادل تيمنا بالنواب، وكل مهدي عراقي سيكنى بابي فرات تيمنا بالجواهري وكل بدر سيكون ابو شاكر تيمنا بالسياب.

وكما يقال لكل شرطي ابو اسماعيل فان كل عسكري عراقي هو ابو خليل، ويقال والعلم عند الله، ان السبب هو القرعة التي حددت لكل جيش من الجيوش العربية التي دخلت فلسطين مدينة ليدافع عنها، حيث كانت محافظة الخليل من نصيب الجيش العراقي، وان صحت هذه الرواية الضعيفة، فمن الصحيح القول ان القرعة لم تنفذ فالجيش العراقي عسكر واستبسل في مدينة جنين وليس في الخليل، وتشهد على ذلك قبور ابنائه في المدينة .

كان اسم احد مدرسينا العراقيين) جنين (تيمنا بوالده الذي استشهد من اجل فلسطين ودفن في مقبرة الشهداء العراقيين بمدينة جنين شمال الضفة الغربية .

حقيقة لا تقبل الجدل ولا التشكيك هي استبسال الجيش العراقي، في جنين والمثلث، اما عبارة" ماكو اوامر "والتي نسبت لقائد ميداني عراقي فهي إن قيلت تكون قد أُخرجت من سياقها اللحظي، واستخدمت لوصم مرحلة كاملة، لكن من دون ان تصيب جيوش بقية الدول العربية .

قاد الجيش العراقي في معركة جنين اللواء ركن عمر علي البيرقدار، من يقرأ سيرته يعرف كيف جعل الاسرائيليين يخشون جيش العراق لسنوات طوال ويحسبن له الف حساب .

سرني كثيرا ان يستقبل رئيس الوزراء الدكتور محمد شتية في مكتبه برام الله ابن وابنة هذا القائد العراقي، لدى زيارتهما لفلسطين للمرة الاولى في شهر آب من العام الماضي .

عندما انسحب الجيش العراقي اخذ معه بضعة الآف من سكان قرى المثلث : إجزم، جبع، عين غزال، ورفض رفضا مطلقا ان تقوم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الاونروا، بإسكانهم واطعامهم وتدريسهم وطبابتهم، لقد اعتبر ذلك اعتداء على واجبه تجاه ضيوفه.

لقد كان موقفا شهما وكريما، لكن تبدل الظروف والسياسات والاحوال، اثبت ان هذا الموقف النبيل قد سمح للانروا بالتخلي عن هؤلاء للابد، خاصة انهم ليسوا مقيدين في سجلاتها، ولا يملكون أي دليل على انهم لاجئون من فلسطين .ذاق الفلسطينيون الامرين في العراق خلال العقدين الماضيين، بعد ان عاشوا هناك آمنين مطمئنين وتكاثروا وتضاعف عددهم مئات الاضعاف، لقد تناقص عددهم الآن ليصبح اقل من عدد اجدادهم الذين هُجروا من فلسطين في عام النكبة .

لجيش العراق

بغداديات 9

داود اللمبجي

كان داود طويلا، أطول من أي شخص آخر عاش ببغداد مطلع القرن الماضي، واصبح واحدا من مشاهيرها، وشخصية تُستحضر في الشعر والغناء والامثال وظل كذلك الى ايامنا هذه، حيث يرد اسمه كثيرا في المقالات السياسية، وكلما خرجت جنازة لأحد السياسيين الاوغاد.

لم تتحقق هذه الشهرة لـ داود بسبب طوله، فالطول ليس كافيا لمثل هذا النوع من الشهرة، ولم تتحقق بسبب عمله المعلن كـ" لمبجي "أي مسؤول عن وضع الزيت في اللمبات، المنتشرة في حواري بغداد، وانارتها كلما اقبل الليل، صحيح ان هذه المهنة خُلقت لداود، بل انه خلق لها، بسبب طوله المفرط والذي كان يمكنه من وضع الزيت واشعال القناديل دونما الحاجة الى سلم، حتى اصبح اسمه في كل المراجع داود اللمبجي.

لقد تحققت هذه الشهرة لـ داود اللمبجي بسبب اشتغاله في القوادة، وادارته لبيوت الدعارة، وللتذكير ففي تلك المرحلة الزمنية، لم تكن بيوت الدعارة او احيائها وقفا على بغداد، لقد كانت موجودة على هامش كل مدينة عربية .ولا زالت، ولكن الصنعة الاقدم في التاريخ اصبحت اكثر تعقيدا وحرفية وتوحشا وأكثر خضوعا لمعايير ومتطلبات السوق.

مات داود بعد ان تزوج فاطمة الصمنجي، وهي واحدة من اجمل جميلات بغداد، ويحلو للعراقيين ان يثبتوا الرواية التي تقول :ان الملّا عبود الكرخي وهو شاعر واديب مشهور، ويعد اميرا للشعر الشعبي في زمانه، كان جالساً

في قهوة لدى خروج جنازة داود من المبغى العام في حارة الميدان وتحديدا من محلة الصابونجية، تتبعها جوقة من المومسات الباكيات النادبات، وتتقدمهن زهَيّه وبنت النجفي ومريم الكرديه، وغيرهن من العاهرات المشهورات في ذلك الوقت، هزّ الموضوع الملا الكرخي، والذي اشتهر بالكتابة عن ادق تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية بنقد لاذع وسخرية مرة، فكتب قصيدته) داود اللمبجي (التي ذاعت واشتهرت بصورة لم يسبق لها نظير رغم إحتوائها على الكثير من الالفاظ الخادشة للحياء.

طبعا لم تُنشر القصيدة في أي جريدة أو مجلة ولكنها دارت شفاهاً بين الناس حتى رسخت في الموروث الشعبي البغدادي، كمرآة للوضع الاجتماعي في ذلك الزمان، وخاصة بعد ان غناها مطرب المقام الاول يوسف عمر، بدء من مطلعها الذي يقول :

مات اللمبجي داود وعلومه / كوموا اليوم دنعزّي فطومة

مرورا بسيرة داود في القوادة، ووصف هندامه ولباسه وطوله وعرضه، وانتهاءً بمعايرة ابراهيم بيك الطنبوري، هذا البيك الذي تزوج فطومة ارملة داود، وقد خصه الكرخي بهذين البيتين من القصيدة:

شَدعي عالزمان منين إجاك البين / خلّي البيك يتنعّم وياكل زين

إنتَ بزمانك جان إلك كرنين / هذا أربعه مشندخات طوال

ومعلوم طبعا ان القرنين هي رمز للدياثة .

يوسف عمر مطرب قدير وقارئ مقام من الطراز الاول، تفتق ابداعه في السجن حيث قضى حكما بالحبس لـ 15 عاما بتهمة قتل، وقد زار السجن بعد ذلك عدة مرات لفترات متقطعة بسبب غنائه لهذه القصيدة، كانوا

يسجنونه بتهمة المساس بالأخلاق العامة، فيقول لهم :كنتُ سكرانا، ولن اكررها، فيطلقونه ليغنيها مرة أخرى في المقهى البغدادي، الكائن في شارع ابو نواس على شاطئ دجلة .

يقال ان احد اصدقاء يوسف عمر طلب طلبا استثنائيا من وزير الصحة، فاشترط عليه الوزير مقابل تلبية الطلب، ان يقنع يوسف عمر بغناء قصيدة داود بحضوره في الحفلة القادمة، وهكذا كان، ويومها سجلت دون علمه، على الارجح، وما زال هذا التسجيل متداولا وبكثرة عبر اليوتيوب .

من يقرأ القصيدة ويدرك معاني كلماتها الموغلة في العامية، ويلحظ وصف الشاعر لأدق تفاصيل الحياة في بيوت الدعارة، فضلا عن ايراده لأسماء العاهرات العاملات في تلك البيوت، والصبية الذين كانوا يساعدون اللمبجي، يدرك ان الكرخي رحمه الله، لم ينته من القصيدة خلال جلوسه على المقهى في ذلك اليوم، وانما بعده بفترة تتعدى على الاقل، فترة حداد فطومة وانقضاء ايام عدّتها وزواجها من ابراهيم بيك .هذا الادراك قد يقودنا الى ان الكرخي نفسه قد يكون من زوار هذه البيوت، إن لم يكن للاستمتاع بالعاهرات فلربما للاستمتاع بالحفلات الغنائية التي كانت تقام فيها .

الكاتب العراقي رياض كاظم سجل حكاية الكرخي واللمبجي بطريقته الخاصة، طريقة لا تخلو من خيال وإمتاع ومؤانسة، يكتب رياض في زاويته ضمن محور الادب والفن في موقع الحوار المتمدن :

) ....ان اليهودي المرح المدعو كرجي عثر على داود ووجد فيه ضالته المنشودة فاقتاده للعمل لمبجياً في حارة الصابونجية التي لم يدخلها داود قبل ذلك ابدا، وبدأ بتعريفه على اشهر بيوتها، هذا بيت ريمة أم العظام، وهذا بيت بدرية السودة، وهذا بيت بدرية السواس، وهذا بيت نزهة الحلوة.

رفع داود حاجبيه متعجباً، فهو لم يسمع من قبل ببيوت تنسب للنساء، اتجها ناحية بيت جميل المنظر واسع الحديقة، قال كرجي :هذا بيت بنات مراد .

فتح الباب ونادى بصوته الرخو : ريجينا، مسعودة، روزة، سليمة ؟

أطلت أربع حسناوات، غارقات بالكسل والنعاس .. فغر داود فمه متعجباً، فمنظر البنات نصف العاريات أخرسه، فهو طيلة حياته لم ير شعر امرأة غريبة.

قال كرجي :لگيته .. أطول واحد ببغداد . راح يضوي الصابونجية كلها!

قالت ريجينا وهي تمط شفتيها : شايفه أطول منه هواي.

قهقهت البنات وأخذن يقدرن طوله فهو يقارب المترين، بحيث لو وقفت ريجينا على أكتاف مسعودة، ستكونان بطوله.

قالت سليمة وهي تغمز أخواتها :يفيد ؟

ردت إحداهن :كلش يفيد.

رفعت صوتها منادية :فطوم .. فطوم ؟

جاءت فطوم بنت الصمنجي، شعرها أشقر وعيونها زرق كزرقة السماء، جميلة ورقيقة كنسمة هواء.

شهقت حالما وقع بصرها على دواد، ضربت بكفها على صدرها وصرخت :يمه .. شنو هذا ؟

تبسم داود للبنت الجميلة وعدّل وضع عصفوريته) الكوفية الملفوفة على راسه كعمامة(، وضعها بشكل مائل.

قالت سليمة لفطومة :إعتني به وعلميه الشغل؟

أخذته للمطبخ وأطعمته وهي تثرثر: دير بالك زين من أثنين ، حسين فخري كاتب العدل، هذا يفتر وراي من سنة ، كلش غيار ، ودير بالك من ناظم الغزالي.

ردد داود: ناظم الغزالي!

قالت فطومة مؤكدة: نعم هذا يحب سليمة.. الباقين مو مهمين، بس خنزر عليهم راح يخافون.

ثم أرته كيف يرفع صدره ويحدق بعيون الزبائن مباشرة، وكيف يطوح بعصفوريته عند الحاجة.

واضافت :بس عفية، لا تبسطهم ؟

تبسم داود وفتل شاربه وقال مستفسرا: واللمبات؟

ردت باستهزاء :ما راح تاخذ منك أكثر من ساعة، ساعتين.. شغلك هنا بالبيت.

عند حلول الظلام بدأ توافد رجال يبدو عليهم الثراء والأهمية، جاء) حمدي بك (موظف السفارة التركية مع شلته من الأفندية، وجاء حسين فخري كاتب العدل، فهربت فطوم واختبأت في واحدة من الغرف، كما حضر المطرب ناظم الغزالي والشاعر الملّا عبود الكرخي وبعض الأعيان من موظفي الدولة.

جلست سليمة باشا الى جانب ناظم الغزالي وأخذا يغنيان كالبلابل سوية، هز حسين فخري رأسه طرباً وعيناه تبحثان عن فتاة أحلامه فطوم، دارت الكؤوس وداخت الرؤوس.

قام حسين فخري كاتب العدل ورفع كأسه وقال :فطوم .. فطوم ؟

صاح الجمع خلفه :فطوم ، فطوم ؟

ظهرت فطوم بملابس الرقص، حدق بها داود طويلاً، فشعر بحب جارف نحوها، حب لجسدها الوردي وصدرها الواسع وشعرها الأشقر، ففتل شاربه ووقف بالمرصاد لتحرشات كاتب العدل.

رقصت فطوم طويلاً، شع جسدها ولمعت حبات العرق على أثدائها، فقفز كاتب العدل عليها وأمسك خصرها وأخذ يراقصها .ثم جذبها من ذراعها يريد أخذها لإحدى الغرف، استنجدت بـ داود فخلع عصفوريته وصفع بها الهواء مهدداً، فأصاب طرفها الحاد كالشفرة وجه كاتب العدل، فسال منه الدم.

جن جنون الرجل فأمسك بتلابيب داود وأخذ يضربه، توقفت الموسيقى، كفت سليمة باشا عن الغناء، صمت ناظم الغزالي، وساد البيت سكون قاتل.

إرتجفت شوارب داود، فحمل كاتب العدل الى ما فوق رأسه، دار به عدة دورات ورماه على الفرقة الموسيقية، حيث يجلس الملا عبود الكرخي، سقط كاتب العدل فوق الملا عبود وسبب له كسراً بأنفه.

ذلك الكسر المؤلم هو الذي جعل الملا يحقد كثيراً على داود ويشمت به شعرا حينما مات.

الملا عبود الكرخي اللوحة من موقع ملاحق المدى

بغداديات 10

شهامة قواد في الكلجية

حاصر المغول بغداد ودكوا اسوارها، واجتاحوها وعاثوا فيها فسادا وقتلا وتدميرا، ثم وقف هولاكو ذات نهار من شهر شباط عام1258 م على تلة يحصي عدد الرؤوس التي يقطعها جنوده ويلقونها في تلك البطحاء، صار اسم المنطقة كلجية (بالدارجة العراقية، وهو دمج لكلمتين) كله جيه ومعناها بالفارسية موقع الرؤوس .

بعد ذلك بنحو 400 عام الا قليل، حاصرت جيوش السلطان التركي مراد الرابع بغداد، لاستعادتها من الصفويين الايرانيين، وطال أمد الحصار فجمع السلطان أركان حربه للتشاور وكان من بينهم القائد المدفعي الارمني (كيورك نزريتان) الذي اقترح استخدام مدفع ذا مواصفات خاصة، فكان له ما أراد، وبفضل المدفع الجديد تمكن جند السلطان من دخول بغداد .

تمركز المدفع الجديد قرب الكلجية مما سمح لها بالحصول على اسم ثان هو (كوك نزر)، تيمنا باسم القائد الارمني .

وفي ليلة عيد الميلاد، اراد السلطان تكريم ومكافئة قائد المدفعية وانصاف الارمن الذين تعرضوا للقمع على ايدي الصفويين، فامر بإطلاق قذيفة وجعل مكان سقوطها موقعا للكنيسة الارمنية.

لم تبتعد القذيفة كثيرا، وحيث سقطت بنى الارمن كنيستهم واسموها مريم العذراء، وظلوا يصلون فيها ويبتهلون الى الله، لكن ذلك لم يمنع احفاد احفاد السلطان التركي من ابادة الارمن ابادة جماعية بعد نحو 300 عام الا قليلا .

شاءت الاقدار ان يستأجر تجار الصابون مخازن في المنطقة لتخزين بضائعهم، فنشأت محلة الصابونجية، واصبحت جزءا من الحي المسمى كلجية وكوك نزر، وشاءت الاقدار كذلك ان تتحول الاسماء الثلاثة الى اسماء لأوسع احياء الدعارة، برعاية المحتل البريطاني، الذي سعى لتنظيم المهنة واصدار التراخيص واجبار العاملات على الخضوع لفحص طبي دوري .

ظل الامر كذلك في هذه البيوت، رغم قربها من وزارة الدفاع التي اقيمت هناك بجوار قلعة تاريخية، ورغم وقوع ساحة الميدان حيث يبدأ شارعا الرشيد والجمهورية .

تفيد احصائيات مركز الوقاية الصحية لعام1939 ، ان قرابة مليون زبون دخل هذه البيوت البالغ عددها مئة، وتفيد احصائية نشرت عام 1952 أنَّ جميع» عاهرات «حي كوك نزر البالغ عددهن» 314 عاهرة«، مصابات بأمراض جنسية مختلفة، أهمها الزهري.

شن المؤرخ الموسوعي جلال الدين الحنفي حملة ضد بيوت الدعارة منذ العام 1943 وتكللت بهدم هذا الحي عام1952 ، غير ان هدم الحي ادى الى بروز اشكال اخرى مُقَنعة للدعارة .

لم تكن بيوت الدعارة او احيائها وقفا على بغداد، او الموصل او البصرة، لقد كانت موجودة على هامش كل مدينة عربية .ولا زالت، ولكن الصنعة الاقدم في التاريخ اصبحت اكثر تعقيدا وحرفية وتوحشا وأكثر خضوعا لمعايير ومتطلبات السوق .

كان هناك حي قرندول في جزيرة اللؤلؤ (البحرين) وكان هذا الحي متنفسا لشيبة وشباب البحرين، وكذلك لشيبة وشباب السعودية في أوائل وأواسط

القرن الماضي، قبل ان يفتح الله عليهم بالفنادق والملاهي في الدول القريبة والبعيدة .

كان في هذا الحي ٣٠ قوادا يديرون ٧٠ قحبة ، و ٢٠ قومجدي (خكري اي شاب مثلي جنسيا)، فضلا عن النساء المسارقيات اللواتي يقضين يوما ويذهبن.

سعى المستعمر البريطاني عبر مستشاره في البحرين أيامها الى تنظيم هذه المهنة الأقدم في التاريخ بإصدار قرار جاء فيه :تمنع العاهرات المجاهرات من مزاولة اعمالهن الا في حي قرندول بالمحرق، وحي قبلة في المنامة، وهدد القرار بمعاقبة من يؤجر منزله لهذا الغرض خارج الحيين المذكورين .

تقول الأديبة الكويتية ليلى العثما: "اماكن البغاء كانت جزءا من تاريخ المدن العربية دون استثناء ، في الكويت كان هناك منطقتا الرميلة بمدينة المرقاب والحرية التي كانت تقع قرابة مقر وزارة الإعلام حاليا .وفى الإمارات كان هناك محل اسمه العين، وكذلك في مصر وسوريا وكل المدن العربية القديمة، وهذا أمر ثابت في تاريخ تلك المدن، ولم آت به من عندي، وهذه ليست دعوة لعودة هذه البيوت وانما تأكيد لحقيقة تاريخية لا يجب إنكارها ."

قرندول البحرين اصبح اسمه اليوم" فريج الزراريع "وصار شبيها بجيتو للعزّاب من افراد العمالة الآسيوية .وكذلك زالت الكثير من الاحياء المخصصة للدعارة في بقية المدن، خاصة بعد انضمام كافة الدول العربية لاتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بمنع الإتجار بالبشر.

تقول المراجع ان ويندل ويلكي نائب رئيس الولايات المتحدة ومؤلف كتاب) عالم واحد (زار بغداد ابان الحرب العالمية الثانية، وأصر على زيارة حي

الكلجية لعدم وجود مؤسسة تماثلها في الولايات المتحدة، فطاف فيها وتحدث مع القوادين والسماسرة ودخل بيوتهم واندس بين القحاب وجلس في المقاهي الموجودة هناك، وتحدث مع احد القوادين وشرب معه الشاي واثنى عليه .

تحت عنوان "جنازتان" عقد الدكتور إقبال محمد علي مقارنة مُرّة بين جنازة القواد الشهير المدعو داود اللمبجي في ثلاثينيات القرن الماضي والجنازة التي اقيمت عام 2015 للسياسي ورجل الاعمال العراقي احمد الجلبي المتهم بالفساد، والذي كان صديقا للأمريكان وتولى رئاسة هيئة اجتثاث البعث .

في هذا المقال يرى الكاتب ان ممارسي وممارسات القوادة والدعارة في الثلاثينيات كانوا اكثر وطنية وخدمة للصالح العام من سياسيي اليوم، ومما جاء في مقاله هذه القصة :

" في عام 1938 فاض نهر دجلة وانفتحت العديد من الفجوات في جدار السدة، وراحت المياه تتدفق في الشوارع، والمعتاد في مثل هذه الحالات أن تقوم الشرطة بتجنيد الناس بالسخرة لدرء الفيضان وتقوية السور، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فمن أين لمدير شرطة بغداد ان يأتي بالسخرة؟ !وقد آوى الناس لبيوتهم نائمين وخلت الشوارع من المارة، لم يكن هناك سوى حي الدعارة حيث ما زالت بيوته تعج بالناس وبالنشاط.

اقتاد مدير الشرطة ثلة من افراده وهرع الى هناك فجمع كل من وجده في تلك البيوت من القحاب وزبائنهن واقتادهم للعمل في حفر الارض وملء اكياس التراب التي حملتها القحاب على ظهورهن لردم الفجوة، وايقاف تدفق المياه، استمرت القحاب وزبائنهن بالعمل حتى آذان الفجر، واسهمن حقا في سد الثغرة وانقاذ العاصمة من الغرق ولولاهن لاجتاحت مياه الفيضان الجوامع والمساجد والبيوت.

وبعد صلاة الفجر عادت بهن وبزبائنهن سيارات الشرطة كل الى بيته .وفي اليوم التالي بعث امين العاصمة رسالة شكر وتقدير لكل القحاب والقوادين الذين ساهموا بالعمل الشعبي لدرء الفيضان عن بغداد .

ولاثبات افضلية قوادي الدعارة في تلك الايام على سياسيي اليوم يستشهد رواد الفيسبوك العراقيون بهذه القصة الواقعية والتي حصلت في الحي المذكور اعلاه :

في أحد الأيام، وبينما كان سائق التاكسي يحمل راكباً واحدا من الميدان الى باب الشرقي، حاولت امرأتان إيقاف التاكسي لركوبه، عندها صاح الراكب بسائق التاكسي : عمّي لا توگف لا توقف ,وأنا أعطيك أجرتهم .

أستغرب سائق التاكسي لهذا الطلب ولكنه انصاع لرغبة الراكب ومضى في طريقه

وعند الوصول الى منطقة الباب الشرقي أخرج الراكب نقوده ودفع أجرته مع أجرة المرأتين، عندها قال له سائق التاكسي : بس قول لي شنو السبب حتى ما خليتني أشيل النسوان ، ودفعت أجرتهم على حسابك؟"

ضحك الراكب وقال: عمّي، أني أشتغل قواد والناس تعرفني، وهذول النسوان بنات أوادم ، أخاف أحد يشوفني ويّاهم، ويسيء الظن فيهم!! "

عندها رفض سائق التاكسي أخذ الفلوس من الراكب القوّاد لشهامته!!

حارة الكلجية

بغداديات 11

كلنا حسنة ملص

حدثتكم عن اشهر حي للدعارة وقبلها عن اشهر قواد، وحان الآن موعد الحديث عن اشهر عاهرة من عاهرات هذا السوق وعن علاقتها بالزعيمين الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم والزعيم المصري جمال عبد الناصر .

لم يترك مذيع صوت العرب احمد سعيد شتيمة كبرى او صغرى ضد الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم الا ونطق بها عبر الهواء مشحونة بكل مهارته في الاداء الاذاعي، لتنقلها امواج الاثير الى اسماع الجماهير التي ترى في صوت العرب منبرا للوحدة والحرية واحمد سعيد ناقلا لرسائل وتوجهات الزعيم جمال عبد الناصر.

وعندما نفذ صبر الزعيم وجماعته قام احدهم بتسريب خبر مُضلل الى المذيع الاشهر في صوت العرب، مفاده ان الشيوعيين) جماعة قاسم (قد القوا القبض على السيدة الفاضلة العروبية المجاهدة" حسنه ملص "وراحوا ينكلون بها وبشرفها، وكذلك تم القاء القبض على المناضل المجاهد" عباس بيزه."

وكما هو متوقع اطلق الاذاعي الكبير صاحب الصوت المجلجل تعليقات صارخة، يندد فيها بحكومة قاسم وبالشيوعيين وظل يهتف" :اذا ماتت حسنه ملص فكلنا حسنه ملص . "كلنا حسنه ملص .... كلنا عباس بيزه ... من المحيط الى الخليج.

اثارت تعليقاته سخرية عراقية جماعية انهت اسطورة صوت العرب وسطوة احمد سعيد فالحقيقة ان المناضله" حسنه ملص "لم تكن سوى واحدة

من اشهر العاهرات في سوق البغاء واما المجاهد" عباس بيزه "فلم يكن سوى واحدا من اشهر قوادي ذلك السوق!!!

انتهت القصة ولم تنته حكاية احمد سعيد، فلا احد حاسبه، ولا هو خجل من نفسه، واستمر في نشر الاكاذيب الى ان اعلن اسقاط عشرات الطائرات الاسرائيلية وانتصار الجيش المصري في النكسة فيما كانت الحقيقة ان الطائرات المصرية هي التي تعرضت للقصف الاسرائيلي وهي على الارض قبل ان تقلع.

لم اكن حيا عندما قال القائد العسكري العراقي" :ماكو اوامر يا عساكر " ولكنني سمعتها في قصيدة بصوت الشاعر ابو الصادق، وكنت صغيرا عندما كان احمد سعيد يهتف" :تجوع يا سمك "لان الجيش المصري سيرمي الصهاينة في البحر، وكنت شابا عندما وصف الصحاف جنود التحالف الامريكي البريطاني بـ" العلوج "وكنت كهلا عندما سمعت تهديدات ايران ومن خلفها حماس والجهاد بـ " مسح اسرائيل عن الوجود خلال اسبوعين وجعلها اثرا بعد عين"، وقبل عام سمعت عبد الباري عطوان وهو يتوعد الاسرائيليين بـ" صواريخ بالستية انطلاقا من غزة ."

مات احمد سعيد قبل عامين، عن 93 عاما، كان رحمه الله وغفر له من ابرز اعلاميي النكسة وقد رحل عن عالمنا في ذكراها الـ 51 . وقبيل وفاته دافع عن ادعاء البطولة والنصر، قائلا :ان هذه البيانات رسمية وكانت تأتيه من القيادة، وانه ليس مسؤولا عن دقتها، فهو ليس في الميدان، طبعا هو لم يفكر برفع قضية ضد القيادة التي افقدته مصداقيته واضرت بسمعته المهنية .

واما حسنة وعباس فلم يمتلكا اي منبر للدفاع عن تهمة النضال التي وجهت اليهما، ولم يفكرا برفع قضية ضد الاذاعة التي انتهكت حقهم في الحفاظ على الخصوصية، وجعلتهم مدار سخرية وتندر المجتمع العراقي باسره.

ومن قصص حسنة ملص ما رواه السيد اياد قاسم الحسيني الموظف في مصرف الرافدين بالموصل في ثلاثينيات القرن الماضي حيث يقول :كانت حسنة ”تملك ملهى في مدينة الموصل، وكان لها حساب بنكي جاري في مصرفنا .وذات يوم وفي نهاية الدوام كان هنك نقص مقداره 300 دينار، فاتصلنا بجميع العملاء الذين تعاملوا مع البنك، علَّ احدهم يرجع المبلغ الذي دفعه له المحاسب سهوا ,إتصلنا بجميع العملاء باستثناء حسنة ملص صاحبة الملهى، ولما لم يجدي ذلك نفعا ,قررنا دفع المبلغ جماعيا لسد النقص ,فسمح لنا المدير بالخروج من البنك.

وفي صباح اليوم الثاني ذهبنا الى البنك كالعادة، فرأينا ابن حسنة ينتظر بالباب لدخول البنك .فدخل الى غرفة المدير قائلا :استاذ امي تسلم عليك وتقول انتم توهمتم معي البارحة اعطيتموني (300) دينار زايد تفضل خذها ,ووقف قبالتي فشكرته وبلغته ان يشكر الوالدة ولكنه لم يتحرك فقلت له ابني هذا هو خذ راحتك ,قال لا عد المبلغ امامي وهذه وصية الوالدة.

وحديثا وبعد أن عجز الشاعر العراقي رحيم المالكي عن مخاطبة الشرفاء لحل ما يدور في العراق، أضطر لمخاطبة غير الشرفاء، فكتب قصيدة بعنوان" رسالة للدكتورة حسنة ملص "واستهلها:

ياهو أشرف منك خاطر أشكيله

دليني ياحسنة وباجر أمشي له

أمشيله وأحجي كل الحجي المضموم

كَبل حفاي كَالوا هسة ماكو اهدوم

بيتي من القنابل والقصف مهدوم

وحكومة بلا حكومة بغير تشكيلة

بعد انتشار القصيدة، لقي الشاعر حتفه في تفجير انتحاري عام 2007 اثناء مشاركته في مؤتمر للمصالحة الوطنية.

المذيع احمد سعيد

بغداديات 12

السنيور موركان

كان اسم المطعم المقترح لسهرتنا غريبا، ومع ذلك وافقت لأنني انسان مهادن بطبعي، خان مرجان؟ !!، هل يمكن ان يكون هناك مطعم جميل بهذا الاسم، زاد شكي عندما علمت ان المطعم يقع في بداية احد ازقة شارع الرشيد، في ظهره سوق الشورجة الشعبي، وفي وجهه سوق الصفافير)النحاس (ومع ذلك وافقت ومضيت مع الرفاق .

في منتصف الطريق سمعت اسم المطرب الذي سنسهر على صوته، اسم جديد عليّ ايضا، عباس جميل، صحيح ان الاسم فني قياسا ببقية اسماء المطربين العراقيين، كـ داخل حسن او جبار عكار او عبد الجبار الدراجي او حضيري ابو عزيز مثلا، الاسم فني ومستساغ لمطرب او ممثل ولكنني لم اسمع به سابقا، رغم انني اعرف الكثير من الاسماء غير المعروفة، تذكرت انني مهادن، وقلت في نفسي :ياما كسر هالجمل بطيخ، هي مجرد ليلة ستنطوي، واطويها من دفتري، وقد تكون شوكة نافعة في جلدي المهادن .

وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم، لقد تجسدت هذه الحكمة امامي في تلك الليلة، فالمكان بديع الى درجة يصعب وصفها، واما المطرب، فانه سيجعلك تشعر بالكثير من الذنب لأنك لم تستمع اليه سابقا، ولم تعرف ان هذه الاغاني البديعة التي تحفظها عن ظهر قلب وترددها باستمرار، وهي الاغاني التي شكلت واجهة العراق الغنائية هي من تلحينه، وان الحانه خلافا لغيره ليست متشابهة ابدا .

المكان البديع مؤلف من 45 غرفة مقسمة على طابقين وموزعة على اضلاع مستطيل يشكل الفناء المسقوف والمدعوم باقواس ترتفع 14 مترا، وتحفها شبابيك تضيء المكان بنور الشمس وتلقي بظل الجالسين على شرفات الطابق الثاني الى ارض الحوش .

هناك وضع التجار أحمالهم، وذهبوا للسير على شاطئ دجلة القريب جدا، اكلوا سمكا مسكوفا، وشربوا شايا ثقيلا، ثم عادوا للنوم في الغرف، او عقد الصفقات التجارية في الحوش، حدث ذلك في الاعوام التالية لمنتصف القرن الرابع عشر الميلادي .

في ذات المكان الذي شهد صفقة مربحة لبيع حمل قافلة من الحرير ، وقف مطربنا عباس جميل فغنى" جا وين أهلنا "وهي اغنية جميلة وحزينة ككل اغاني العراق تتحدث عن حبيبين فرق بينهما الواشي، وفضحهما مما اجبر اهل الفتاة على الرحيل عن الديرة، اعرف الاغنية جيدا ولقد سمعتها مرارا وتكرارا بصوت المطربة العظيمة وحيدة خليل، وبصوت مطربين آخرين ايضا، ولم اكن اعرف ان عباس جميل هو ملحنها .

ماني صحت يمه أحا جا وين أهلنا

جا وين أهلنا، جا وين أهلنا

ولف الجهل بالدار وأبعد ظعنا

حملتوا يا أهلي بليل والولف غافي

اسهر وخلي ينام نوم العوافي

يا الواشي عاد ارتاح واضحك بالفراق

حسبالك اترجاك ولحبك اشتاق

كم احزن عندما ينسب فضل ابداع الاغاني للمطرب فقط، وينسى كاتب الكلمات والملحن، يمكن الاستدلال بسهولة على ابداع صياغة الكلمة لتصبح موزونة وحمالة للجرس، ويمكن الحكم على قدرات المغني، بمحاولة تقليده، او الاستماع لذات الكلمات واللحن من مطرب آخر، ولكن المسألة مختلفة مع التلحين، هذا سر لا يتحدث عنه اصحابه، وليس سهلا عليهم ان يتحدثوا عنه، ربما لأنه إلهام، او ربما لأنهم يحسنون الاصغاء لما وراء الكلمات، ولا يحسنون الحديث عنها الا بالموسيقى .

لهذا الملحن الكثير من الاغاني التي رسخت في الذاكرة والوجدان مثل : أريد أحجي، غريبة من بعد عينج يا يمه، يم عيون حراكه، جيت لأهل الهوى، عليمن يا كَلب تعتب عليمن، بسكوت أوّن بسكوت، هذا الحلو كاتلني يا عمه .

سرني جدا ان اعلم حديثا ان سحر ،ابنة عباس جميل، الذي رحل عن دنيانا عام 2005 ، اعلامية جريئة ومحبوبة، وتقدم برامج ناجحة على قناة دجلة الفضائية .

لا يجب ان تنتهي هذه الحلقة بإنصاف الملحن فقط، بل يجب ايضا انصاف باني هذا الخان الجميل امين الدين مرجان، وايراد قصته لشدة ما فيها من غرابة.

تشير العديد من الروايات الى انه إيطالي وان اسمه الحقيقي هو السنيور موركان، وانه كان جنديا مرتزقا، اسره المغول ذات حرب، وتم بيعه من سيد الى سيد الى ان انتهى خادما ثم طباخا في قصر السلطان أويس، وهو ابن حفيد هولاكو المغولي .

وكان كلما قدم الطعام للسلطان اسمعه اقوالا من عيون الشعر والحكمة، وظل كذلك الى ان عينه السلطان وزيرا، فجمع ثروة هائلة.

وذات حرب خرج السلطان لقتال التركمان وعهد بكرسي الحكم الى مرجان، الذي خان الامانة وقام بمحاولة انقلاب سرعان ما فشلت، والقى السلطان القبض عليه، فقال له مدَّ عنقك لأقطعها، ففعل، لكن السلطان لم يفعل بل عفا عنه، وأخرجه من خدمته .

ندم مرجان على فعلته، وعلى ما تسبب به من قتل لأبرياء بسبب انقلابه ومغامرته الفاشلة، فانفق كل ما يملك من اموال على بناء مسجد يحمل الى الآن اسمه، وهذا الخان البديع الذي يحمل اسمه ايضا، و 300دكان آخر، وجعل ريعها كلها وقفية لأعمال الخير وخاصة اطعام الفقراء، وكان يأمر العاملين في الوقفية بترك طعام للقطط في الازقة، والقاء طعام للأسماك في دجلة، فعل ذلك ومضى الى المسجد فعمل فيه خادما حتى وفاته عام 1377 حيث دفن تحت احدى قباب المسجد، وصار قبره معلما اثريا .

قاطنو دبي وزوارها يستطيعون مشاهدة نسخة محدثة من خان مرجان في السوق الذي حمل ذات الاسم ويضم 150 متجرا وورشات للحرف اليدوية التقليدية ومطعما شرقيا، غير انهم لن يستطيعوا مشاهدة عازف الكمان وهو يسرع في وضع كمنجته في حقيبتها، ويشرع في مساعدة عازف القانون وضارب الايقاع، وكيف وضع الاخير يده على كتف زميله فيما الكمنجاتي المبصر يقودهما لنزول درج المنصة .

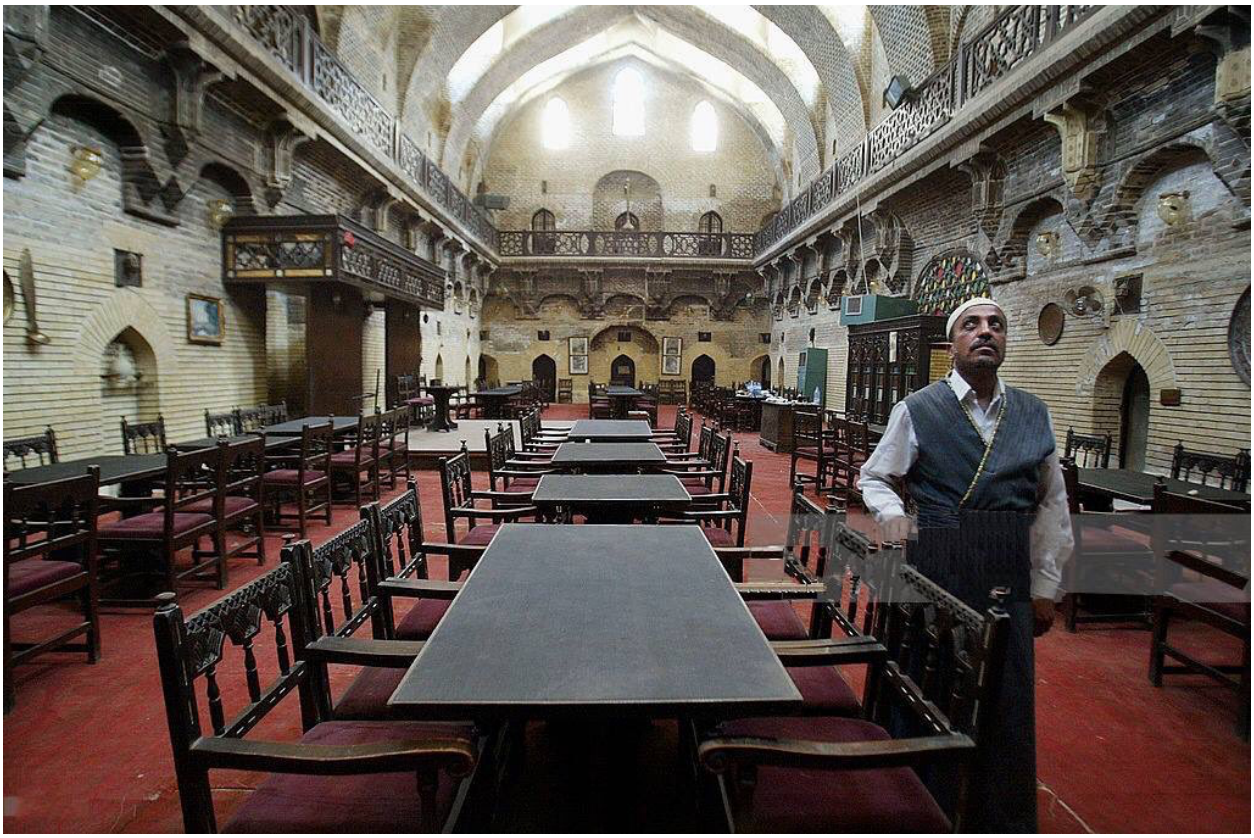

مطعم خان مرجان

بغداديات 13

سجع وهجع

لبغداد مكانة أثيرة في قلوب الفلسطينيين، لا اقول ان قلوبهم لا تتسع للقاهرة ودمشق وبيروت ومراكش وتونس والكويت، ولكن لبغداد ميزة خاصة، على الرغم من انها:

لم تنتج لا كثير ولا حتى قليل من الافلام والمسلسلات والمسرحيات التي شوهدت عربيا كما مصر مثلا.

ولم يكن طعامها وشرابها وحلوياتها ألذ وأطيب من طعام وشراب وحلويات الشام.

ولم تستطع جميلاتها على جمالهن ان ينافسن بنات لبنان لا في اناقة الملبس والماكياج ولا الكلام المغناج.

ولم تستطع بكل تاريخها وعمرانها وتنوعها ان تنافس مراكش لتكون قبلة سياحية وموطنا للفرجة الشعبية.

ولم تكن دافئة ولطيفة مع الفلسطينيين كما تونس.

ولم يجن الفلسطينيون من العمل فيها ولا حتى واحد بالمليون مما جنوه لقاء العمل في الكويت .

بغداد تجاوزت هذا كله وزرعت نفسها في القلوب بطرق أخرى، رغم انها ظلت على الدوام حادة المزاج، إن أحبت، احبت بجنون وإن كرهت، كرهت بلا حدود، واذا ما سادتها المشاعر القومية عقدا، تلته عقود من ضيق

القطرية، واذا ما حاربت بكل بسالة في حرب، استسلمت في حرب أخرى تليها، واذا ما ثارت على طغيان داخلي، سكتت طويلا على طغيان آخر يليه، واذا ما تجاوزت فقرها واصبحت غنية، ارتدت سريعا لتصير الافقر بين شقيقاتها .

بغداد موجودة في الواح الحضارات، وفي قصص الف ليلة وليلة، لدرجة انك ما ان تسمع قصة حتى تفترض بداية انها وقعت في بغداد، بغداد موجودة في كتاب التاريخ، فما ان تسمع قصة عن الخلفاء حتى تفترض انها جرت في القصور والاسواق والمساجد البغدادية، بغداد موجودة في سيرة كل فيلسوف وعالم عربي مسلم، وفي كل قصيدة جميلة، وفي كل ليلى مريضة، وفي كل نغمة حزينة، وفي كل ثورة وانقلاب، وكل هزيمة وانتصار، وكل محاولة للخروج من قائمة دول العالم الثالث، وفي كل حبة تمر، وبرميل نفط، وموقف شجاع، بغداد موجودة في كل نحو وصرف، بغداد موجودة في تنقيط الكلام، وفي كل قافية ومقام، وكل بديع وجناس وطباق وفي كل رقصة ردح وعبارة سجع وفي كل تجليبة ورقصة هجع .

تبدأ التجليبة عادة بعبارة اجلبنك يا ليل، أي اتقلب فيك ساهرا مهموما مؤرقا .

اجلبنك يا ليل وراح أدق على الراح

ولا مر هـ الوسن عيني ونمت مرتاح

ولا صاحب نفعني ولا نفعني صياح

انا طايح والـ يوقع تكثر سكاكينه

****

اجلبنك يا ليل وطال تجليبك

عفاك شلون تحمل ونّ مصاويبك

أظن عاشق يا ليل وجرحك يثيبك

وكَرّب كَلبي ينكر كل تجاريبه

****

اجلبنك يا ليل والـ يلوم يلوم

وما تدري القلب شايل كثير هموم!

يصير اقضي العمر من شوفتك محروم؟!!

وانت داري بحالي شلون تعذيبه

ابدع في اداء هذه الكلمات الفنان طارق الزين في المسرحية الاستعراضية الكوميدية العالم في ليلة، وابدعت في رقص الهجع على انغامها الفنانة ملايين .

كثيرون هم من غنوا التجليبة بأداء متقن ومتميز، حتى لتحتار في ايهم افضل من الآخر، داخل حسن ام فرج وهاب ام زهور حسن او لميعة توفيق او فريدة لقد ابدعوا جميعا، رغم ان كل منهم أداها بطريقة مختلفة عن الآخر .

اول من كتب الهجع او شعر التجليبة هو الشاعر حسن العلكاوي بحدود عام 1850، وفي قصيدة من 37 بيتا وصف فيها اوجاعه بعد ان اصابه مرض شديد .ولقد صبغها بكل اوجاعه واحزانه .

وبعد ما يزيد على مئة عام، وقف الشاعر كريم العراقي على جسر الشهداء، غداة الافراج عنه من احدى الحبسات التي كانت تطال الشيوعيين، فقال لرفاقه تعالوا لنرتجل شعرا على وزن التجليبة، وارتجل قائلا :

أجـلبنك يا ليلي أثنعـش (12) تجـليبه

وضعي صعب والسوفييت تدري به..

****

صحيح البكـر نكـّل بالوطن والناس

وراية حكمه صارت فاس فوكَ الراس

لكـــــن قارنه بصـــــدام بالمقياس

راح تشوف حُكـــــمه منتهى الطيبه

****

فرد شقيقه رحيم :

أجلبنك يا ليلي والبكر صدام

هو المحكمة والعفو والإعدام

هو النفط والأوقاف والإعلام

والسلطات كلها صارت بجيبه

وبعد 45 عاما وقفت فتاة عراقية منتفضة في ساحة التحرير ضد الفساد والطائفية فانشدت تجليبة بديعة، ولحقتها تجليبات عديدة، فيما ألف المغتربون العراقيون آلاف ابيات الهجع التي تروي حنينهم للوطن .

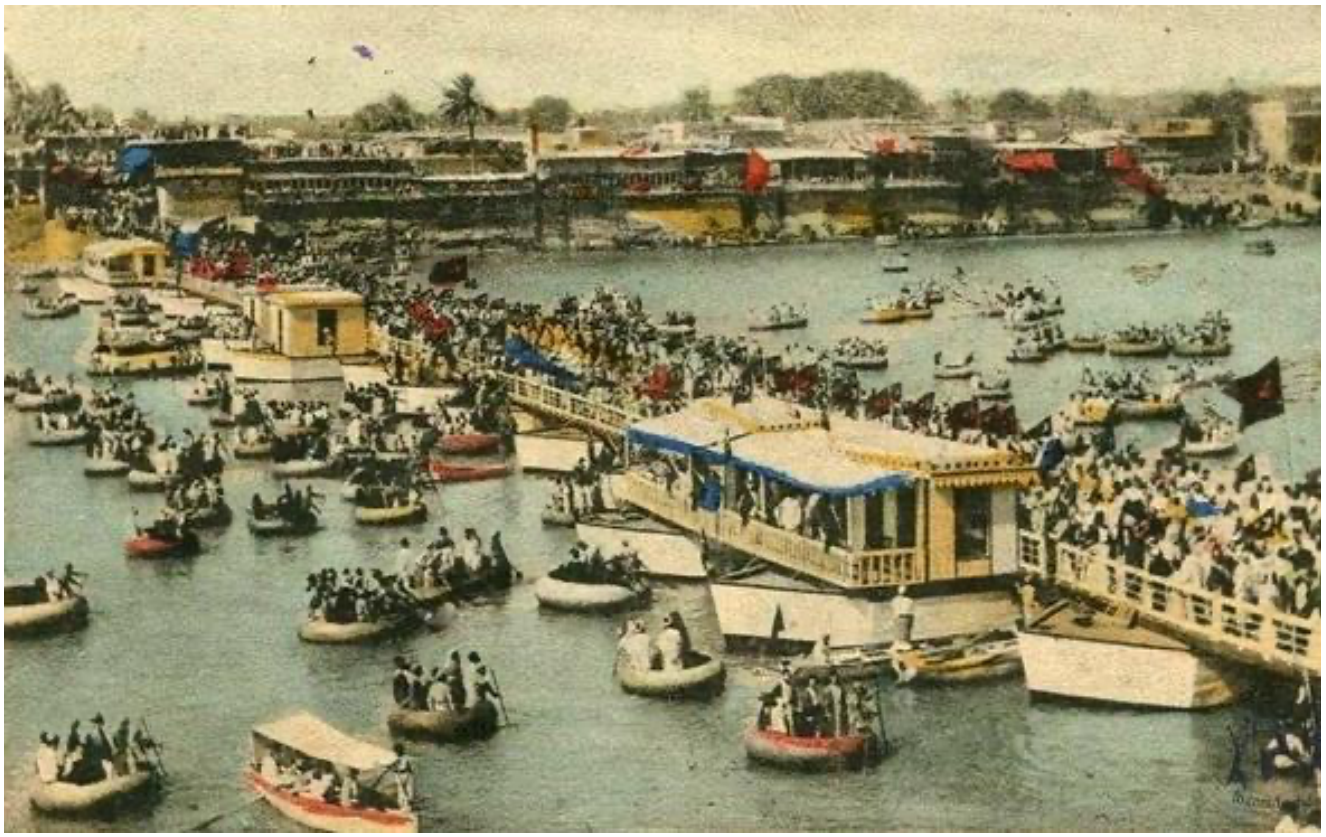

حفل افتتاح جسر الشهداء عام 1902

بغداديات 14

قدك المياس يا عمري

محمد حمزة هو صاحب كلمات 1200 اغنية شهيرة ومحفوظة في ذاكرة العرب، بينها 37 للعندليب عبد الحليم حافظ وحده.

واما بليغ حمدي فهو ملك الموسيقى العربية، ولولاه لتدنت درجة ابداع الكثير من مشاهير الطرب في عالمنا، لقد لحن للعندليب 29 اغنية، و لكوكب الشرق11 ، ولوردة التي تزوجها 26 اغنية، ولشادية 20 ، ولنجاة الصغيرة 17 ، وللشحرورة صباح 7 اغاني، ولمحمد رشدي 8 ، ولسميرة سعيد 10 اغاني، ومثلها ايضا لميادة الحناوي، ولهاني شاكر 14 اغنية، ولعلي الحجار 7 اغاني .

قائمة اعمال البليغ حمدي تطول، ولولاه لما وجدت كلمات محمد حمزة" يا حبيبتي يا مصر "طريقها الى شادية ومنها الى ملايين المصريين جيلا بعد جيل .ولولاه لما سمعنا الشيخ النقشبندي في رائعة :

مَوّلاي إنّي ببابك قَد بَسطتُ يَدي

مَن لي ألوذ به إلاك يا سَندي؟

أقُوم بالليّل والأسّحار سَاجيةٌ

أدّعُو وهَمّسُ دعائي بالدموع نَدى

بنُور وجهك إني عائذ وجلُ

ومن يعذ بك لَن يَشّقى إلى الأبد.

كان الرئيس المصري الراحل محمد انور السادات قد أمر بهذا التعاون بين بليغ والشيخ النقشبندي، واعترض النقشبندي كثيرا، غير ان بليغ سحره واستولى على لبه، حتى شوهد الشيخ وهو يُنحي العمامة عن راسه، ويتمايل بطرب ويصيح :انت مجنون يا بليغ !!، انت ابن جنية .!!

صدق النقشبندي، فالإبداع يأتي على ايدي البشر، ولكنه من فعل الجان، وهذا ما حصل مع الجان والبشر ذات اغنية :

كانت كلمات اغنية مداح القمر للشاعر محمد حمزة تسيل من بين شفتي العندليب الاسمر، كأجمل ما يكون، متهادية بكل اناقة، محمولة بكل اتساق على الحان بليغ حمدي، وعند لحظة معينة بلغت حدا يفيض جمالا وعبقرية، مال الشاعر والملحن والمغني معاً، نحو المقطع العبقري :

قدك المياس يا عمري

ايقظ الاحساس في صدري

أنت أحلى النـاس فى نظــري

جل مـن ســواك يـا عمري

لقد استعار ثلاثتهم ذلك القدّ المياس جسدا من قدٍ حلبي شهير، كان من ابرز من غنوه المطرب السوري الشهير صباح فخري، وتمايلت عليه قدود كثيرة ابدع الباري سبحانه وتعالى في سكبها وصقلها وتليينها وتلوينها، كما ابدع في شق صخرة الافكار لتسيل افكارا وكلمات رقراقة، تشدو بها حناجر ، احسن الرب في صنع اوتارها وتعميق قرارها، وجند لها سحرة كبليغ حمدي ينقلونها على بساط النغم، لتظلل عيشنا في كنف الرحمن ودنياه، وفي

هذا الوجود الفيزيائي المتكامل مع وجود رديف لا نستطيع استجلاء مبتدأه ولا منتهاه .

تقول كلمات هذا القد الموشح، والتي ابدعها القارئ الحافظ والشاعر الموسيقي الملّا عثمان الموصلي قبل نحو قرن من الزمان :

قدك المياس يا عمري يا غصين البان كاليسر

أنت أحلى الناس في نظري جل من سواك يا قمري

قدك المياس مد مال لحظك الفتان قتالا

هل لواصل خلد لا لا لا لا فاقطع الآمال وانتظري

عاش الملّا عثمان في الموصل فقيرا يتيما فاقدا لنعمة البصر، حفظ القرآن صغيرا، واجاد ترتيله بسبع قراءات، وامتاز بحسن الصوت، وكان ركنا من اركان الصوفية القادرية، واصبح عالما بالعربية والفارسية والتركية، وشاعرا صوفيا، وعالما بالموسيقى، طاف عواصم الطرب في عصره، بأمر من الاستانة، وانشد اشعاره الصوفية في الموصل وبغداد والحجاز وليبيا والقاهرة حيث تتلمذ على يديه عبده الحامولي وسيد درويش وغيرهم . وظل مقربا من بلاط السلطان العثماني، حتى ان السلطان عبد الحميد قد اعطاه تصريحا خاصا يسمح له بموجبه بدخول كافة قصوره بما فيها قصور الحريم .

القد لغة هو القامة والمقدار، واصطلاحا هو صنع شيء على مقدار شيء آخر، وهذا ما فعله اهل حلب تماما، حين انشأوا قدودهم، لقد قدّوها من

تواشيح والحان دينية صوفية في الغالب، وجعلوها منظومة غنائية بُنيت على قد اغان والحان شائعة .

ولقد فعلوا هم وغيرهم ذلك في كثير من موشحات عثمان الموصلي رحمه الله، ومن ذلك الكثير :

ربيتك زغيرون، التي كانت موشح يا صفوه الرحمن

زوروني بالسنة مرة، والتي كانت موشح زر قبر الحبيب مرة

فوق النخل، والتي كانت موشح فوق العرش فوق

طلعت يا محلى نورها، والتي كانت موشح بهوى المختار المهدي

اسمر يا ابو شامة، والتي كانت موشح أحمد أتانا بحسنه سبانا

يا حبيبي لا تلمني فالهوى غدار، والتي كانت موشح لغة العرب اذكرينا، تقول كلمات هذا الموشح والتي غناها يوسف عمر :

لغة العرب اذكرينا واندبي ما فات

كيف ننساك وفينا نسمة الحياة

هكذا الدهر علينا في شقى الانكاب

كيف لا يرضى بنوك طالع الاسواد

ومن موشحاته ايضا :يا ام العيون السود التي غناها ناظم الغزالي، آه يا حلو يا مسليني والتي غناها كثيرون جدا، وع الروزنا ع الروزنا والتي غنتها فيروز وآخرون كثر .

نمت القدود وترعرعت في اجواء الموشح والاجواء الصوفية التي عاشها سادتنا الاخيار والمتصوفة الابرار كعثمان الموصلي، ففي هذه الاجواء تحلق الارواح في الملكوت، وتستجلي كل ما جميل لا مرئي، لتثبت ان الدين الحق جميل، وان الله جميل يحب الجمال، وهكذا يسهل على النقشبندي التعامل مع بليغ والاعجاب به، ويسهل على المؤذن في مساجد حلب صباح فخري ان يصبح مطرب القدود والموشحات، ويسهل على عثمان الموصلي الحافظ لقرآن الله ومرتله بسبع قراءات، ان ينشد قدك المياس يا عمري .

عندما داهمت داعش مدينة الموصل هدمت تمثال هذا العالم الفاضل، لأنها لا تريد للدين ان يكون جميلا كما اراده الله .

تمثال الملا عثمان الموصلي في مدينة الموصل

بغداديات 15

طفل نابلسي في بغداد

في عام 1935 دعا الملك غازي ملك العراق، طفلا من مدينة نابلس لا يتجاوز عمره الـ 11 عاما لزيارة بغداد والاقامة فيها والغناء في مدارسها ومسارحها .لبى الطفل الدعوة، وما كان يعلم ان مصائره كافة ستنعقد بهذه المدينة حتى الممات .

كان احد افراد حاشية الملك قد شاهد على الصفحة الاولى في جريدة فلسطين اليومية، صورة للصبي الفنان روحي خماش وهو بعمر 8 سنين محتضنا العود، ومكتوب تحتها هذا الفتى النجيب احيا حفلا بديعا في جمعية الشبان المسلمين بحيفا، ولقد ابدع في تقليد الاستاذ عبد الوهاب، والانسة ام كلثوم، مما يبشر بمستقبل باهر له في عالم الغناء.

وبعدها بعامين قرأ خبرا يقول ان الطفل الفنان روحي خماش قد عزف وغنى أمام عبد الوهاب لدى زيارته لفلسطين، ثم امام أم كلثوم بعد احيائها حفلا على مسرح مقهى ابو شاكوش في يافا، فنال استحسانهما وتشجيعهما، وحظي بهدية رمزية من عبد الوهاب وقبلة من ام كلثوم .

اقام الطفل الفنان في بغداد تحت رعاية ملكية مدة 6 اشهر غنى خلالها في العديد من الحفلات، وعاد يحمل معه هدية ثمينة هي ساعة الملك شخصيا كعربون تقدير ومحبة .

عاد من بغداد ليغني ويعزف في اذاعة هنا القدس التي نشأت حديثا، وظل فيها الى ان حلت النكبة فاتجه الى العراق مجددا، ووجد فيها ضالته

الموسيقية المنشودة، فلعب دورا كبيرا في تطوير الموسيقى العراقية والحفاظ عليها.

قام بتأسيس فرق فنية أسهمت بدور كبير في حفظ التراث الفني وتطويره، مثل فرقة الموشحات عام 1948 التي تحوّل اسمها إلى فرقة أبناء دجلة، وفرقة الإنشاد العراقية، وفرقة خماسي بغداد، التي طافت العالم وحصدت جوائز عالمية، ولقد ظل هو شخصيا موضع احترام وتقدير العراقيين فنانين ونقاد وطلاب موسيقى وعارفين بالألحان، وظل الفضل منسوبا اليه في اضافة وتر سابع لآلة العود .

درّس مادة العود لسنوات طويلة في معهد الفنون الجميلة ببغداد، ووضع ألحان ثلاثين موشحا، وسبعة ابتهالات دينية، ثمانية أناشيد وطنية، والف العديد من المقطوعات الموسيقية .

يعجبني كثيرا سماع الاغاني العراقية القديمة التي اعادت فرقة الانشاد العراقية تسجيلها تحت اشراف خماش .رغم انني انزعج غاية الانزعاج من الفنانين الذين يعيدون تسجيل اغاني زملائهم .

ظل روحي خماش في بغداد الى ان توفاه الله عام .1998 وظل العراقيون يذكرونه لسنوات طوال فلقد ارتبط صوم رمضان لديهم بسماع ابتهالات" يا اله الكون "و" لبيك قد لبيت لك "و "فالق الإصباح "التي لحنها الخماش .

كتب صديقنا الشاعر والصحفي هشام عودة كتابا تحت عنوان‘‘ الموسيقار روحي الخماش :سيرة وإنجازات ’’رصد خلاله أهم المراحل في الخمسين عاما التي قضاها الموسيقار في بغداد.

فيما كتب الاستاذ العراقي حبيب ظاهر العباس كتابا بعنوان" الموسيقار روحي الخماش وتأثيره في الموسيقى العراقية "ورصد فيه ابرز انجازات هذا الموسيقار على صعيد تدريس الموسيقى وتدريب وتشكيل الفرق وتلحين الموشحات وتاليف القطع الموسيقية .

وقام الصديق نادر جلال مدير المؤسسة الفلسطينية للتنمية الثقافية" نوى " بتجميع اجزاء مهمة من موشحات ومقطوعات الخماش حيث قدمتها الفرقة الموسيقية للمؤسسة واصدرتها على اسطوانة اولى من مشروعها المعنون "هنا القدس "والهادف الى توثيق وارشفة تراثنا الموسيقي قبل النكبة.

الطفل روحي خماش الصورة من منصة الاستقلال الثقافية *روحي خماش*

بغداديات 16

جوزة لو غيتار؟

لا يعجبني المطرب الهام المدفعي، لا يعجبني اطلاقا لا بزيه ولا صوته ولا موسيقاه، ولا جنسياته المتعددة، انا حر في رأيي بهذه الكتلة البشرية المسماة الهام، ولكم رأيكم، واحترم حريتكم وحقكم في ابداء الرأي به، ولكنني لست مجبرا على احترام مضمون رأيكم بهذا الرجل، الذي شوه الغناء العراقي كثيرا، على عكس ما فعلت فرقة الانشاد العراقية تحت اشراف الموسيقار الفلسطيني العراقي روحي خماش .

إجمالا انا انزعج من المطربين الذين يغنون اغاني زملائهم، هذا اعتداء كبير، وانزعج اكثر، حين تنسب الاغنية للمطرب الجديد، ويضيع اسم صاحبها الاصلي، تخيلوا مثلا ان تنسب اغنية يانا ايانا لرولا بدلا من الشحرورة صباح، او اغنية من غير ليه لهاني شاكر بدلا من اللواء محمد عبد الوهاب، تخيلوا ان تختفي تسجيلات اغاني ام كلثوم لنجبر على سماعها بصوت عوض الدوخي مثلا!

وللصراحة فانا انزعج اكثر واكثر حين يقارب المطرب الجديد المطرب الاصلي او يتفوق عليه، ولكن هذا قلما يحدث، او قلما اعترف به إن حدث فعلا .ولكنه وبكل تأكيد لم يحصل مع اي اغنية اعاد غنائها المدعو الهام او اعاد توزيع موسيقاها على غيتاره اللعين، كيف امكن لهذا الكائن ان يضع صوت الغيتار فوق السنطور والجوزة والكمان والدمبك .أي غناء عراقي سينتج مع غيتار ودون دمبك او زنبور او خشبة او كاسورة !!

يعجبني الغيتار وتعجبني الربابة، ولكن كل في موضعه، احب الغيتار مع الفلامنكو، والربابة مع عبده موسى، لينشد عليها:

ريت المنايا يا اللي تجي يا سلامه .....تحوم ع الأنذال دار بدار

ويطول عمرك يا حفيظ السلامة... ...وتدوم يا عز الأهل والجار

يا أبو الفضايل ما عليك الملامة ....اللوم يغشى الخاين الغدار

خلي العدا بحسراتها والندامة ....وقلوبها توقد عليها نار

ربع المذلة ما تريد الكرامة ....ع وجوهها وصم الخزي والعار

وبيت إنبنى بلا ساس سرع انهدامه ....ولو ارتكز لا بد ما ينهار

بيت الأصل باقي متين الدعامه ....راسي وما ينهز مهما صار

وبيت الشرف والعز عالي مقامه ....ومحفوظ وما يعلق عليه غبار

ولكي ننتهي من هذا الرجل مرة والى الابد يجب القول مع كل تأكيد ان زبدة الاغاني التي يقدمها هنا وهناك، ليست له على الاطلاق، وانما لمطربين اصلاء، لو سمعوه يغنيها لما سمحوا له بهذا الهذيان والهرطقة .

إياكم ان يعارضني احد ويقول انه اجاد في اغنية " يا عذولي لا تلمني فالهوى غدار "فلا الأغنية ولا اللحن له، لقد غناها كثيرون قبله بسنوات طوال، علما ان كلامها ولحنها الاصلي يعود للملّا عثمان الموصلي، إن اردتم التأكد فاسمعوا ليوسف عمر اغنية لغة العرب اذكرينا .

علي الاعتراف بان بعض الاغاني قد اصبحت اجمل عندما تم توزيع موسيقاها بشكل جديد، حصل ذلك مع بعض اغاني عبد الحليم، او عندما تمت اعادة تسجيل اغاني قديمة باستوديوهات حديثة لتكون صافية الصوت،

كما حدث مع مجموعة كبيرة من الاغاني التراثية العراقية التي سجلتها فرقة الانشاد العراقية .

فرقة الإنشاد العراقية

بغداديات 17

جبرا واجاثا كريستي

تشكلت صورة بغداد في ذهني طفلا كمدينة اسطورية، رسمت معالمها قصص الف ليلة وليلة، ثم كمدينة تاريخية بفضل ما جاء في كتب التاريخ عن الخلفاء، ثم صارت بغداد في ذهني موطنا لنغم حزين وكلمات معبرة، بفضل ما كنت اسمعه من اغاني .

انفقت ساعات وانا ابحث :متى تشكلت في ذهني بغداد كمدينة واقعية؟ وبفضل من؟ أغلب الظن ان ذلك تم بعد قراءتي لروايتي جبرا ابراهيم جبرا : صراخ في ليل طويل، وصيادون في شارع ضيق، واغلب الظن ان ذلك جرى بحدود العام1980 ، قبل زيارتي الاولى لبغداد بثلاث سنوات، كنت ايامها طالبا في المرحلة الاعدادية، ولم اكن قد عرفت بعد ان جبرا فلسطيني، وليس عراقي .

ايهما قرأت اولا؟ لا استطيع التذكر، ولكن مراجعة سريعة عبر جوجل، تثبت ان صراخ في ليل طويل، وإن كانت تصف مدينة تشبه بغداد، وتتقاطع شخصية بطلها" امين "مع شخصية جبرا نفسه، في مستهل حياته ببغداد، إلا انها كتبت قبل عامين من رحلته الابدية الى العراق.

كتب جبرا رواية صيادون في شارع ضيق، بالإنجليزية اولا، بعد مرور 12 عاما على اقامته ببغداد، في هذه الرواية تتداخل سيرة المدينة بسيرة شخوصها المثقفين، الذين يحملون افكارا متباعدة جدا، هكذا كان الحال فعلا في تلك الحقبة حيث تصارعت الافكار الشيوعية مع القومية، وتصارعتا مع موروثات المجتمع، وعاداته ودينه .

في هذه الرواية تتقاطع شخصية البطل جميل فران مع شخصية جبرا.

بعد ربع قرن من كتابة الرواية، وبعد 3 او اربع سنوات من قراءتي لها، تمشيت لأول مرة في شارع الرشيد ببغداد، فكنت كمن يزوره للمرة الثانية، عرفت اكثر عن بغداد ومجتمعها ومعارف جبرا فيها من الفلسطينيين والعراقيين والعرب، واكاد اجزم ان بعض شخوص الرواية هم اشخاص حقيقيون، وربما لهذا السبب نشرها بالإنجليزية قبل العربية .

تمشيت كثيرا في شوارع بغداد ومن بينها شارع الاميرات، الشارع الذي اخذ اسمه من منزلي الاميرتين بديعة وجليلة، والآن استحضر الشارع خطوة فخطوة وبيتا فبيت من خلال الجزء الثاني من سيرة جبرا الذاتية والتي اسماها" شارع الاميرات ."

لفت نظري في هذا الجزء الثاني من سيرته انه تعرف بالصدفة في بغداد الى الكاتبة الانجليزية اجاثا كريستي، التي باعت 2 مليار نسخة من 66 رواية بوليسية ألفتها، وتمت ترجمتها الى 103 لغات، فضلا عن اعمال ومسرحيات اخرى، بينها مسرحية مصيدة الفئران التي كتبتها في العراق، وحققت الرقم القياسي كأطول عرض مسرحي .

جلس جبرا اليها وهي تغزل الصوف بصنارة، ولم يخطر بباله ابدا ان هذه السيدة يمكن ان تكون قد امسكت قلما في حياتها، سألته عن فلسطين، وحدثها عن جرائم الصهاينة، وكانت تقول له :هذا كله يجب ان يعرفه العالم بمنتهى التفصيل، كان جبرا ايامها يبث مع آخرين احاديث منتظمة باللغة الانجليزية عبر اذاعة بغداد عن هذه الجرائم مستصرخا الضمير العالمي لمؤازرة شعبه .

اجاثا التقت في بغداد بعالم آثار يصغرها بـ 13 عاما فتزوجته، وداومت على السفر معه الى بغداد، والموصل والقاهرة وحلب والبتراء والقدس وبيت لحم وغيرها، وهو ما انعكس في رواياتها :جريمة في قطار الشرق السريع، موت على النيل، جريمة في وادي الرافدين، جاءوا الى بغداد، ولؤلؤة الشمس حيث تحدثت عن البتراء، والموعد الغرامي حيث وصفت بدقة روعة بناء المسجد الاقصى وقبة الصخرة، وكذلك فعلت في روايتها نجمة فوق بيت لحم .

ومن طريف ما يروى، أنها كلما كانت تسأل عن سر تعلّق زوجها بها وحبه لها كلما تقدمت في العمر، وهي تكبره أصلاً فتجيب :إنه أمر طبيعي، فزوجي عالم آثار يعشق الآثار القديمة .

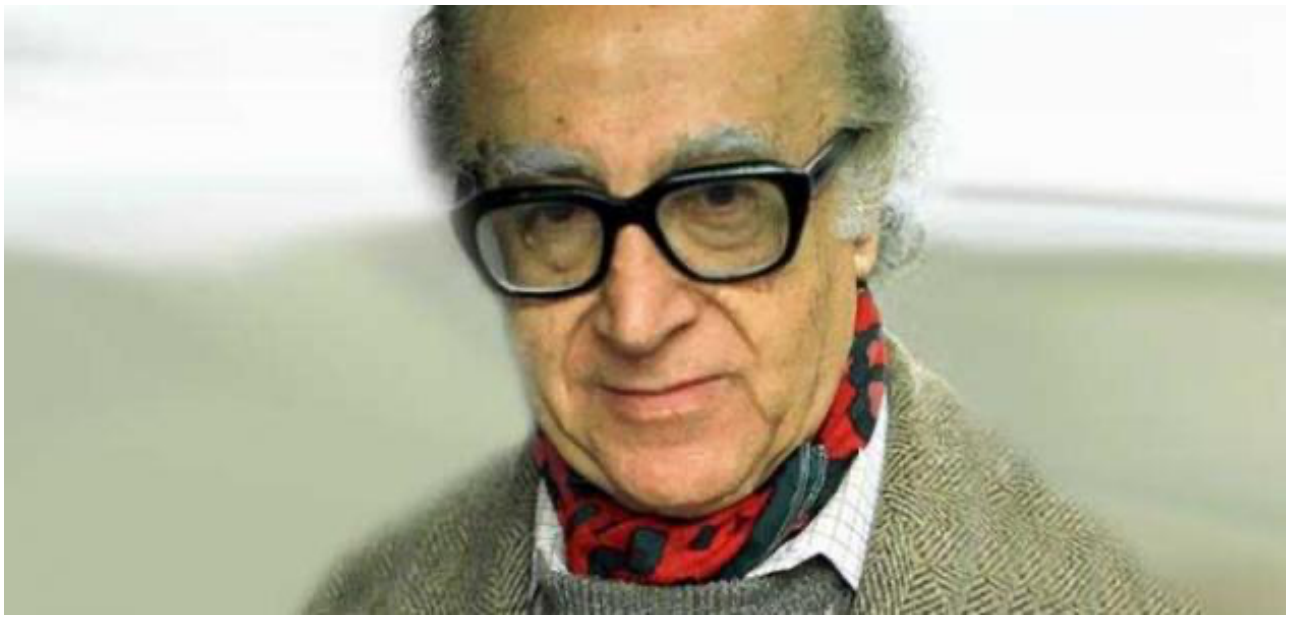

جبرا ابراهيم جبرا

بغداديات 18

ترافة وليل ودك ريحان

"انا قلبي دليلي قالي هـ تحبي دايما يحكيلي وبصدق قلبي"، هكذا غنت ليلى مراد ، كلمات الشاعر المصري ابو السعود الابياري .

العراقيون لا يجعلون القلب دليلا، بل يسمونه الدليل او الدلال، كما غنى الرائع حسين الاعظمى : وفراقهم بكاني كالماطلية بالضلع

بيك اشترك) دلالي (يقولون حبي زعلان

آه يا قهوتك عزاوي بيها المدلل زعلان

وغنى الشاعر مظفر النواب مع صديقه ورفيقه في الشيوعية والزنازين الدكتور الفنان سعد الحديثي، زهيري يقول :

يا) ترف (هجرك علي حنظل اقيسة وأمر

ما تجرعه الروح كيف احكم عليها واؤمر

لهفان اجي لرؤيتك واوصل لدارك وأمر

واصيح يا منيتي صوت الصدى ينبيه

والما درى بعلتي قال الرجل جن بيه

ما علم حدر الضلع شج السهم جنبيه

اطلع ثلث جبدتي وادعي بـ) دليلي (يمر

الزهيري نوع من أنواع الشعر النبطي، تتكون قصائده من سبعة أشطر : الثلاث الأولى لها نفس كلمة القافية، ولكنها تحمل في كل بيت معنى مختلف، بينما الأشطر الثلاث الثانية بكلمة قافية مغايرة، وتحمل كل مرة معنى جديدا ايضا، وينتهي الشطر السابع بنفس كلمة القافية الأولى .نشأ هذا النوع من الشعر في جنوب العراق ومنها انتقل إلى الخليج.

كم كنت سعيدا بالاستدلال الى شعر مظفر النواب بالعامية العراقية وتفكيك ما يمكن من معاني مفرداته الصعبة حتى على العراقيين انفسهم، فانا اعتبر شعره العامي اروع بكثير واغنى بالصور من شعره الفصيح، يكفينا للتدليل على ذلك المقارنة بين قصيدتين يقول في الاولى :

القدس عروس عروبتكم

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها ؟؟

اولاد القحبة

ان حظيرة خنزير أطهر من أطهركم

ويقول في الثانية وهي بعنوان البراءة، وعلى لسان ام تزور ابنها الشيوعي السجين وتوصيه بان يصمد وان لا يتبرأ من الحزب مقابل اخلاء سبيله :

يا بني ضلعك من رجيت لضلعي جبرته وبنيته

يا ابني خذني لعرض صدرك واحسب الشيب اللي من عمرك جنيته

يا بني طش العمى بعيني وجيتك بعين القلب أدبي على الدرب ألمشيته

شيلة العلاكة يا بني تذكر جتوفي بلعب عمرك عليهن

سنة وكفوفك وردتين على رأسي وبيك أناغي كل فرح عمري لنسيته

يا اللي شوفك يبعث الماي الزلال بعودي وأحيا وأنا ميتة

أبيض عيونك لبن صدري وسواد عيونك الليل اللي عد مهدك بجيته

يا بني ارضى الكلب يرضع من حلبيي ولا ابن يشمر لي خبزه من البراءة

هذه قصيدة بالعامية العراقية، حفظها وفسر كلماتها وردد ابياتها جيل كامل من الثوريين العرب في كافة الاقطار، وهي ليست الا واحدة من دواوين كثيرة كتبها مظفر بالعامية، فأول ديوان اصدره كان بالعامية حمل عنوان " للريل وحمد "وضمنه قصائد شهيرة مثل" : عشاير سعود "و" الريل وحمد " والتي يقول فيها:

مرينه بيكم حمد وأحنه بقطار الليل

وأسمعنه دق اقهوه وشمينه ريحة هيل

ياريل صيح أبقهر صيحة عشك ياريل

هودر هواهم ولك حدر السنابل كطه

آنه أرد ألوك لحمد ما لوكن لغيره

يجفلني برد الصبح وتلجلج الليره

ياريل باول زغرنه لعبنه طفيره

هودر هواهم ولك حدر السنابل كطه

كضبة دفو يانهد لملمك برد الصبح

ويرجفنك فراقين الهوى ياسرح

يا ريل لا...لا...تفززهن.. تهيج الجرح

خلهن يهودرن حدر الحرايـر.. كطه

جن كذلتك والشمس والهوى هلهوله

شلايل بريسم والبريسم أله سوله

وإذري ذهب يا مشط يالخلقك شطوله

بطول الشعر والهوى البارد ينيم الكطه

تو العيون أمتلن ضحكات وسواليف

ونهودي زمن والطيور الزغيره تزيف

ياريل سيس هوانه وما أله مجاديف

هودر هواهم ولك حدر السنابل كطه

اعتقد ان كل عراقي من شتى الاعمار يستمع لهذه الاغنية، ويستمتع بها، ولقد غناها عشرات المطربين العراقيين، غير انها اجمل ما تكون حين يغنيها مظفر مع رفيقه الحديثي على احد مسارح لندن امام حشد كبير من العرب والعراقيين المهاجرين، ودون موسيقى، فللرجلين صوت منغمٌ لا يحتاج الموسيقى .

في هذا الحفل الذي اقيم بلندن عام 1995 غنى الرفيقان قصيدة ترافة وليل، وترافة من الترف، ويصف العراقيون الانسان بالترف حين يكون من الذين يعيشون في نعيم ورغد وسعة، فيصيرون اكثر نضارة و تنعما وجمال ودلال، تقول كلمات القصيدة التي ابدع في غنائها ايضا الفنان رياض احمد :

ترافه وليل ... ودق ريحان ... يا اسمر لا تواخذنه

يلَن كل دقه من حسنك .... شتل ريحان للجنه

ليالي ... ودق نحر حدّار .... واحنه الشوق ناحرنه

تحنّن ... دوس فوق الروح ... واحسبها عليّ منّه

من اتلّك بالحلم يا اسمر .... يجي القداح بيديه

واعتّك واطبج بحرقه .... رفيف الريّه ع الريّه

وتسيل دموعي بجفوفك ... نبع برمال نجديّه

واقلك ... ويــن هالغيبة ؟؟ سنه .. وبالحلم منسيّه

يطيف شويه عاشرنه .... الصبح دنياك مقضيّه

شگلك ... وانت هالمايع .. ونه من الحرگه زهديّه؟؟

حسافه سقيتك بروحي ..... وحسافة العمر ما ورّد

في هذا الحفل وتحت الحاح الجمهور انشد مظفر رائعته" حمام نسوان " باداء لا نظير له، فاستحوذ على ارواح وعقول الحاضرين وابكاهم كثيرا بعد ان اضحكهم كثيرا .

فرقة الجالغي

بغداديات 19

العراق وفلسطين يتبادلان العلم والنشيد

لا خير ولا شر ، ولا ذكرى سيئة او حسنة احملها الآن من صباحات رفع العلم في المدارس، كان امرا اكثر اعتيادية من أي شيء آخر، مثله مثل طابور الصباح، مثل الاذاعة المدرسية التي لم يستقر في ذهني وربما في ذهن الآخرين أي شيء منها، لم يكن رفع العلم مغلفا بأية مشاعر من أي نوع، امر مؤسف ولكنه حقيقي، هذا ما كان يحصل في المدارس الاردنية، لا ادري كيف هي الامور هنا مع تلاميذ المدارس في فلسطين؟، هل يزرع المعلمون في وجدان الطالب أي قيمة رمزية للعلم؟، هل هم قادرون على ذلك؟، وان فعلوا فهل ستصمد هذه القيمة خارج اسوار المدرسة؟، اسئلة مزعجة.

ربما تكون الذكرى الاولى لي مع العلم سيئة كان ذلك في صالة السينما التي ادخلها للمرة الاولى، كانت دور السينما ايامها تعرض 3 افلام بتذكرة واحدة، ولا يبدأ العرض في موعده تماما، سيطول الانتظار الى ان تخفت الانوار، كانت مفاجأة كبيرة ان الانطلاق يبدأ برفع العلم والنشيد الوطني مهما كانت طبيعة الافلام التي ستعرض في تلك الوجبة، وكان على الجميع ان يقف احتراما، لا ادري ان كان هذا التقليد ما زال ساريا ام لا، لكنه كان تقليدا غريبا وهذا اقل ما يقال فيه، خاصة وان هناك من يتطوع بالتهديد والصراخ على من يتلكأ في الوقوف إجلالا للعلم .

وقعت اعلام معظم الدول العربية في براثن بيت شعر زاخر بالألوان قاله الشاعر العراقي صفي الدين الحلي في القرن الرابع عشر وهو :

سَلي الرّماحَ العَوالي عن معالينا /واستشهدي البيضَ هل خابَ الرّجا فينا

إن الزرازيرَ لما قام قائمها / توهمت أنها صارت شواهينا

بيض صنائعنا سود وقائعنا / خضر مرابعنا حمر مواضينا

لا يَظهَرُ العَجزُ منّا دونَ نَيلِ مُنى / ولو رأينا المَنايا في أمانينا

اختلفت مواضع الالوان الاربعة على الرايات، وتوزعت على ثلاث مستطيلات ومثلث يساري، اضاف البعض نجمة كالأردن او نجمتين كسوريا، او نسرا كمصر، وظل علم العراق يتبدل ويتغير الى ان استقر عام 2008على ثلاث مستطيلات :احمر في الاعلى يتلوه ابيض مكتوب عليه باللون الاخضر عبارة الله اكبر بالخط الكوفي ثم الاسود في الاسفل .

في النسخة السابقة كانت العبارة موزعة بين 3 نجوم ترمز للوحدة التي لم تحدث ابدا بين مصر وسوريا والعراق، وفي النسخة الاسبق كانت العبارة بخط يد صدام حسين وليس بالخط الكوفي، واما النسخة التي سبقتها فقد خلت من التكبير، لان صدام لم يكن قد اعلن حملته الايمانية والتي اشرف عليها نائبه القوي عزت الدوري، كان الدوري بعثيا حتى الصميم وأحد الاتباع المخلصين للتصوف على الطريقة النقشبندية .

في مرحلة من مراحل تطوره كان علم العراق متماثلا تماما مع فلسطين، فلقد نزعت منه النجمتين السباعتين التين ترمزان الى محافظاته الـ14 ، وتم تحويل شبه المنحرف في يسارة الى مثلث متساوي الاضلاع .

الارتباك الحاصل في تصميم العلم مؤشر على ارتباك اوسع، ارتباك يطال صميم الاشياء ليصبح جوهرها مرتبكا .

ربما لم يرتبك علمنا ولم يتغير، لكننا ارتبكنا في كيفية رفعه، تارة نضع الاخضر في الاعلى بدلا من الاسود، حين يكون افقيا، ويظل الخلل قائما احيانا حين نعلقه بشكل عمودي، ولن نتحدث طويلا عمن يكتبون عليه الشهادتين، ولا عن الاعلام الممزقة فوق المؤسسات والالوان الكالحة .

لم يكن هذا هو الشبه الوحيد في الرموز السيادية بين فلسطين والعراق، فثمة شبه آخر يطال رمزا سياديا آخر هو النشيد الوطني .

نشيدنا الحالي والذي يسبق الاستقلال على غير العادة، هو نشيد فدائي، الذي ألفه فتى الثورة الشاعر سعيد المزين ولحنه الموسيقار المصري علي اسماعيل، ووزعت موسيقاه على مرحلتين قام بالاولى المتضامن اليوناني ميكيس ثيوذوراكيس عام 1981 والثانية الملحن الفلسطيني حسين نازك عام 2005.

هذا النشيد طويل ومربك ويبدو ان هناك نسختين منه بأطوال مختلفة، كلما سمعناه في بداية احتفال رسمي وقفنا، ثم جلسنا فيأتي من يطالبنا بالوقوف لقراءة الفاتحة، لم نؤسس بعد أي تقليد او بروتوكول متفق عليه يضمن انضباط الحضور وحسن التصرف وهيبة المكان والحدث والنشيد والعلم. ربما لأننا لم نصبح دولة، هذا المبرر يعمل عمل الجوكر في العاب الكوتشينة .

هذا النشيد الرسمي الذي يعاهد على الحياة والمضي والقضاء الى ان تتحقق العودة، لم يكن الاول، فلقد سبقه نشيد آخر غير رسمي هو موطني الذي الفه الشاعر ابراهيم طوقان ولحنه الاخوان محمد واحمد فليفل .ولقد اضحى هذا النشيد هو النشيد الوطني لجمهورية العراق بعد سقوط صدام حسين. إعتمد

هذا النشيد رئيس سلطة الائتلاف المؤقتة بول بريمر بعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003.

كان النشيد الوطني العراقي الاول في عهد الملكية خاليا من الكلمات وجاء مجرد مقطوعة موسيقية اعدها ضابط بريطاني، ومع كل تغيير سياسي كان العراقيون يغيرون نشيدهم، لقد بدلوا 5 اناشيد خلال قرن من حياتهم .

في العهد الجمهوري الاول كان الموسيقار لويس زنبقة اول عراقي يضع لحنا رسميا للجمهورية العراقية، وكان خاليا من الكلمات ايضا، وجاء النشيد الذي يليه بعد الانقلاب على عبد الكريم قاسم، من كلمات الشاعر المصري صلاح جاهين والحان الموسيقار المصري كمال الطويل، كان مصريا خالصا لا يمت للعراق بصلة، وتقول بعض كلماته :

و الله زمان يا سلاحي

اشتقت لك في كفاحي والله زمان يا سلاحي

يا حــرب والله زمان انطق وقول أنا صاحي

زاحفة بترعد رعود والله زمان على الجنود

ياللى اتبنيت عندنا يا مجدنا يا مجدنا

عمرك ماتبقى هوان بشقانا وكدنـــا

مع مجيء صدام للحكم تبدل هذا النشيد الذي يحمل نكهة مصرية الى نشيد عراقي خالص كتبه الشاعر العراقي شفيق الكمالي، ولحنه اللبناني وليد غلمية، تقول بعض كلمات هذا النشيد:

وطن مد على الأفق جناحا، وارتدى مجد الحضارات وشاحا

بوركت أرض الفراتين وطن، عبقري المجد عزماً وسماحا

مجدي، جذلى، بلاد العرب، نحن أشرقنا، فيا شمس أغربي

الجباه السمر بِشر ومحبة، وصمودٌ شق للإنسان دربه

أيها القائد للعلياء شعبه ، اجعل الآفاق للصولات ساحة

يا سرايا البعث يا أُسْد العرين، يا شموخ العز والمجد التليد

ازحفي كالهول للنصر المبين، وابعثي في أرضنا عهد الرشيد

شعبنا الجبار زهوٌ وانطلاق، وقلاع العز يبنيها الرفاق

دمت للعُرب ملاذاً يا عراق، وشموساً تجعل الليل صباحا

آخر ما كنت افكر فيه قبل ان اغادر عملي في اذاعة صوت فلسطين، هو اعداد برنامج عن الاناشيد الوطنية، تاريخها واجواء اعدادها وانطلاقها وكلماتها ومن هو صاحب الكلمات ومن هو الملحن، لم يكن النشيد الفلسطيني ولا العراقي هو الباعث للفكرة، وانما النشيد الوطني الجزائري، فهذا النشيد مرعب، يماثل طباع الجزائريين، ويقارب حجم ما قدموه من تضحيات لطرد الاستعمار الفرنسي .

كتب هذا النشيد الشّاعر مفدي زكريا داخل سجن فرنسي عام1956 ، ولحنه الموسيقار المصري محمد فوزي، وتقول بعض كلماته :

قسما بالنازلات الماحقات، والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات، في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات، و عقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا ...فاشهدوا ...فاشهدوا...

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب، وطويناه كما يطوى الكتاب

يا فرنسا ان ذا يوم الحساب، فاستعدي و خذي منا الجواب

ان في ثورتنا فصل الخطاب، وعقدنا العزم ان تحيى الجزائر

فاشهدوا ...فاشهدوا ...فاشهدوا...

خلاف مرير وطويل ما زال يدور داخل الجزائر وبين فرنسا والجزائر بشأن مطالبة باريس بشطب مقطع يا فرنسا من هذا النشيد .

اعلام العراق

بغداديات 20

عيناك يا بغداد أغنيةٌ / يُغنى الوجود بها ويختصرُ

منغرز في اعماقي منذ الطفولة صوت المذيعة كوثر النشاشيبي عبر الاذاعة الاردنية في برنامج رسائل شوق، كنت اسمع البرنامج لشدة اعجابي بمقدمته الفيروزية الرحبانية :

جسر العودة،،، جسر العودة

يا جسر الأحزان أنا سمّيتك جسر العودة

المآساة ارتفعت، المآساة اتسعت

وَسِعَتْ، سَطَعَتْ بَلَغَتْ حدّ الصلبِ

مَنْ صلبوا كلّ نبيٍّ صلبوا الليلة شعبي

*****

تقفون كشجر الزيتون، كجذوع الزمن تقيمون

كالزهرة كالصخرة في أرض الدار تقيمون

وسلامي لكم يا أهل الأرض المحتلة

يا منزرعين بمنازلكم

قلبي معكم وسلامي لكم

من خلال هذا البرنامج، وعلى حافة جسر العودة، كان النازحون المُقتلعون من وطنهم يتلقفون اخبار من ظلوا منزرعين هناك .

لفيروز وللرحابنة في اعناقنا كفلسطينيين دين كبير، من منا سينسى : سنرجع يوما خبرني العندليب، وشوارع القدس العتيقة حيث ترحل عيوننا كل يوم، لتعانق الكنائس، وتمسح الحزن عن المساجد، وبلد يستشهد فيه السلام، ويبكي الطفل مع امه مريم في المغارة، ويظلان يبكيان في انتظار غضب ساطع .

كانت فيروز في العشرين من عمرها حين تزوجت من عاصي رحباني، الذي كان قد وقع للتو عقدا مع المذيع احمد سعيد مدير اذاعة صوت العرب من القاهرة، لإنتاج اناشيد خاصة بالقضية الفلسطينية بعد مرور 7 سنوات على النكبة، رأى الرحابنة ان ما انتج حتى حينه كان حزينا وبكائيا، وصمما على اضافة ما يستنهض الهمم.

بعدها زارت فيروز القدس وتجولت في شوارعها القديمة، وتحادثت مع سيدة فلسطينية اهدتها مزهرية، وقالت لها انها هدية من الناطرين للغضب الساطع .

وهكذا ولد البوم فيروز الشهير" القدس في البال "ليضم اغاني :يافا، بيسان، زهرة المدائن، أنا لا أنساك فلسطين، القدس العتيقة، جسر العودة، غاب نهار آخر، سيف فليشهر .

نعم لفيروز وللرحابنة في اعناقنا :افرادا وأمة عربية دين كبير، لقد جعلوا صباحاتنا اكثر اشراقا، ومشاعرنا اكثر رومانسية، وذائقتنا الفنية اكثر تنوعا، لقد زودونا بمفردات ونغمات واجواء تجعل ذكريات الطفولة والصبا والحب اكثر القا ودفئا وحميمية .

وكأمة عربية سنظل مدينين لهم على ما قدموه من مجد غنائي لعواصم ومدن العروبة، سنظل نذكر الاسكندرية وعمان والشام وبيروت ومكة وبغداد .سنذكرها بصوت فيروز وبالحان وكلمات الرحابنة وسعيد عقل .

نعم سنظل نذكر محاسن سعيد عقل وننسى مساوئه، ونقول ليته احسن ختامه، ولم ينحرف نحو العنصرية البغيضة .

استغرب احدهم ان تكون اجمل اغنية عن مكة المكرمة من تأليف مسيحي ومن غناء مسيحية وتلحين مسيحي فسأل الشاعر اللبناني سعيد عقل لماذا كتبت وانت المسيحي اغنية فيروز الشهيرة" غنيت مكة"، فقال له :والله كتبتها كرمال هالفلسطيني، وكان يقصد صبري الشريف.

الفلسطيني صبري الشريف كان الاخ الثالث للاخوين عاصي ومنصور الرحباني، فبعد ان ترك ادارة اذاعة الشرق الأدنى تولى إدارة وإخراج أعمال الرحابنة في أواخر الخمسينيات، وطوال عقد الستينيات من القرن العشرين .ومن دون صبري الشريف ما كان في إمكان أعمال الرحابنة أن تكون على مثل ذلك البهاء والإتقان .

الشريف لم يكن سوى واحد من بين عرب وفلسطينيين كثيرين اسهموا في مسيرة الرحابنة، ومن بين هؤلاء الفنان الفلسطيني ابن قرية بيت دجن قضاء يافا عبد العزيز حسين أبو شاويش والمعروف فنيا باسم محمد غازي، والملقب بملك الموشحات، وقد إشتهر بتأدية موشح" يا شادي الألحان "مع الفنانة فيروز،" يا وحيد الغيد "و" حجبوها عن الرياح لأني قلت يا ريح بلغيها السلاما "و" يا غصن نقا"، وغيرها .

كان العالم وقتها اكثر حبا واتزانا واقل عنصرية وعنجهية .غنت فيروز للدول العربية ولكن من دون ان تذكر زعيمها لا بخير ولا شر، ومن طريف

ما يروى ان الاذاعة اللبنانية منعت بث اغانيها 7 اشهر طوال عقابا على رفضها طلبا رسميا للغناء للرئيس الجزائري الاسبق هواري بومدين.

الطلب ذاته تكرر، وتكرر معه الرفض الرحباني، ولكن دون عقوبة هذه المرة، تكرر في بغداد التي زارتها فيروز والرحابنة ذات يوم من صيف العام.1976

تقول الروائية العراقية انعام كججي عن ذلك اليوم" :استمعت إليها تغني بقاعة الخلد، والحضور في حالة وجد وانخطاف :

بغداد والشعراء والصورُ /ذَهَبُ الزمان وضوعُهُ العَطِرُ

يا ألف ليلةَ يا مُكَمّلة الأعراس /يغسل وجهك القمرُ

حتى إذا وصلتْ إلى المقطع الذي تقول فيه :

جئتُ من لبنان من وطن /إن عاكستْه الريحُ تنكسرُ

ارتفع من القاعة صوت يعترض" :بل ينكسر ."وكان التعليق الفظ، وحرائق لبنان في أولها، صادرا عن الشاعر السوري خليل خوري."

في هذه القصيدة هناك مقطع يقول :

عيـــــــــــــناك يا بغداد أغنيةٌ / يُغنى الوجود بها ويختصرُ ..

كانت هذه ثاني اغنية فيروزية لبغداد لقد سبقتها اغنية دار السلام عام 1954، وفيها تغني فيروز :

دار السلام على الانسام ألحان / يزفُّــها طائرٌ والصبح فتّــانُ

ياجنّة في الظلال السمر وارفة / نسيمها بالهوى العذريّ نديان

حيـيت دجلة والأيام هانـئة / تغـفو وتصحو على شاطيـك أزمان

اعتقد ان فيروز والرحابنة قد غنوا لهذه المدن بشكل ارقى واجمل مما يستطيع ابنائها، لقد خلدوها في اذهاننا ولن ننساها ابدا، من منا سينسى شط اسكندرية:

ليالي مشيتك يا شط الغرام، وإن أنا نسيتك ينساني المنام

او سينسى :عمّان في القلب، انت الجمر والجاه ببالي، عودي مري مثلما الآه

او :اردن ارض العزم، اغنية الظبى، نبت السيوف وحد سيفك ما نبا

او :شام يا ذا السيف لم يَغِبِ، يا كلام المجد في الكُتُبِ

او سائليني يا شآم :

سَائِلِيني حينَ عَطَّرْتُ السَلَامْ، كيف غارَ الوَرْدُ واعْتَلَّ الخُزَامْ

وأنا لَوْ رُحْتُ أسْتَرْضِي الشَذَا، لانْثَنَى لُبنانُ عِطراً يا شَآمْ

او : مر بـــي يا واعداً وعـــداً، مثلما النســـمة من بردى

تحـــمل العـــمر تـبدّده، آه ما أطـــيـــبه بـــددا

او ، غنيتُ مكةَ أهلَها الصِّيدا، والعيدُ يملأ أضلُعي عِيدا

غنى كثيرون لهذه العواصم والمدن، فلبغداد مثلا، غنت ام كلثوم" بغداد يا قلعة الاسود "وغنى لها فريد الاطرش في بساط الريح، غير ان ما غنته فيروز لها ولغيرها ظل راسخا في الاذهان اكثر .

فيروز في بغداد

بغداديات 21

كلچن يا مظلومات للكاظم امشن

عد سيد السادات فكن حزنچن

رأيت فتاة كالغزال تميل / فقلت لها ليت اللقاء يطول

قالت تخاف العوم في بحر الهوى؟ !

فالصدق في هذا الزمان قليل

بهذا الموال تقدم فرقة الانشاد العراقية اغنية

الافندي، الافندي عيوني الافندي

دورت كل بغداد حتى وصلت للبصرة

تحبني، تحبني، اشعر تحبني / من نظرتك بالعين، اشعر تحبني

سحرني، سحرني، وجهك سحرني / كلك عطف واحساس، وجهك سحرني

الله يخلي صبري افندي، صندوق امين البصرة

صبري افندي صاحب الوجه الساحر والقلب الحساس العطوف، شخصية حقيقية وكان فعلا امينا لصندوق البصرة، في عهد الاتراك، وقد كافأته المطربة البصراوية الحسناء والمعروفة باسم حسنية، بهذه الاغنية التي ظلت تتردد بحناجر كثير من مطربي العراق، حتى اصبحت واحدة من اهم الاغاني التراثية.

تعود قصة الأغنية الى عام1914 ، حين وقع والي البصرة دروبي باشا في غرام حسنية، لكنها رفضت مبادلته الغرام، رغم انه باشا ووالي في ذلك الزمان المليء بالفقر والقهر، فأثار ذلك سخطه، وقرر الانتقام منها، فطلب من مسؤول التجنيد ان يستدعي ابنها الوحيد وفيق، الذي لم يكن وقتها قد بلغ عمر التجنيد، لأداء الخدمة العسكرية.

خافت أمه عليه، واستجابت لنصائح الاصدقاء فلجأت الى صبري افندي المشهور بكرم اخلاقه وشهامته، فساعدها ودفع بدل الجندية عن ابنها للسلطات التركية .

حفظت له حسنية ذلك المعروف .وظلت تغني هذه الاغنية، التي لم تسجل على اسطوانات بصوتها، إلى أن جاءت المطربة العراقية المعروفة صديقة الملاية، وسجلتها في منتصف العشرينات، ومن يومها اشتهرت الاغنية واشتهرت قصتها ومطربتها .

الحقيقة ان الكلمات الاصلية للأغنية لم تحمل أي عبارات غزل ومشاعر حب، بل فقط عبارات شكر وامتنان .

حاول الانكليز احتلال العراق ابتداء بالبصرة سنة1914 ، وحشدوا جيشهم قرب شبه جزيرة الفاو، فقاتلهم صبري افندي تحت امرة القائد التركي سليمان باشا المسؤول عن جبهة البصرة.

بعد هزيمة الأتراك وسقوط المدينة، انتحر سليمان باشا، وقرر صبري افندي التقاعد من الوظيفة رغم ان حاكم البصرة الانجليزي عينه قائم مقام، وظل يعتبر الانكليز أعداء، واتخذ نفس الموقف بعد تأسيس الحكومة العراقية الاولى لاعتقاده بأنها لم تكن حكومة وطنية وإنما حكومة تخدم الاحتلال.

واليوم لا يزال شاهد قبر المرحوم صبري محمد سلمان، 1963 – 1875 يحمل عبارة" :صندوق أمين البصرة ."لكن هذا القبر وذلك الشاهد، وكل المواقف الشجاعة والسيرة النبيلة، حُفظت من خلال الاغنية، اكثر بكثير مما حفظتها الكتب .

العراق كما غيره من الاقطار عاش في تلك الحقبة مرحلة الضياع والتشتت، ووقع فريسة الاختيار بين امرين احلاهما مر :بين من يصدق وعود التحرير البريطانية، وبين من يعتقد ان الاتراك سليلي الخلفاء العظام وان طاعتهم واجبة، بين من يحن للأتراك العثمانيين بطرابيشهم ذات اللون)الرُمّاني(، وبين من يتأمل خيرا من البريطانيين ببشرتهم البيضاء المائلة للون الاصفر كما لون حبات) النومي .(

وهذا ما ارادت الاغنية ان تقوله وتشرحه وتعطي موقفا منه :

چلچل علي الرمان / نومي فزع لي

هذا الحلو ما اريده / ردونـي لأهلي

يا يمه لا تنطرين / بطلي النطارة) الانتظار (

واللي أريده يصير / ماكو كل چاره) حل (

كلچن يا مظلومات / للكاظم امشن

عد سيد السادات /فكن حزنچن

لم يعرف صاحب الكلمات، الذي اعطى موقفا واضحا ضد هذا وذاك، ورفض الوصاية على شعبه، ودعاه الى التوقف عن الانتظار، والتخلص

من الحزن، ومباشرة الفعل، لان هدفه النبيل سيتحقق، ولأنه لا يوجد حل الا بتحقيق هذا الهدف وهو العودة الى الذات والاهل.

ابدع في غناء هذه الاغنية مطرب المقام الاول يوسف عمر، واضاف اليها وأجاد في غنائها حسين الاعظمي، وظلت تتردد بحناجر الكثيرين، الى ان جاء المدعو إلهام المدفعي، فغناها على غيتاره اللعين، وكاد ان ينحرها. وفعل مثله ايضا المدعو حمزة نمرة حين غناها على البيانو. سيقول البعض انه غناها بإحساس، وبفيض من مشاعر الحب، وانا سأقول انه ليس مطلوبا من المطرب حتى ينجح ان يغني باي إحساس سوى احساسه بروعة الكلمات بحد ذاتها، وبجمال الموسيقى بحد ذاتها وان يمزج بين الاحساسين، ليصبحا جنسا واحدا يستحيل فصل مكوناته، فنصير كلما قرأنا الكلمات قرأناها منغمة بلحنها، وكلما استمعنا الى الموسيقى نطقنا الكلمات لا شعوريا، لا ان يستعطف الجمهور ويسترضيه ويتسول منه الاعجاب بأداء حساس، ومشاعر تمثيلية.هذا هو الـX Factor، العامل المجهول الذي يجعلنا نحب فلانا ولا نحب فلان رغم انهما يؤديان ذات الاغنية .

المطربة صديقة الملاية

بغداديات 22

طاقية الجواهري

لا يعجبني مديح الاشخاص ابدا .قد اتسامح مع مديح الجماعة او الموقف حين يأتي مجردا من الشخصنة ومسببا ومعللا، ولكنني اظل افضل التعاطي مع مديح الافكار، سأعترف انني خالفت هذه القاعدة، وبكل سرور، وبشكل متكرر، وسأظل اخالفها واتسلل الى اليوتيوب لسماع الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري وهو يمدح العاهل الاردني الملك حسين.

قبل هذه القصيدة حفظت للشاعر قصيدة اخرى درسناها في المنهاج المدرسي ويقول فيها :

فاضت جروح فلسطين مذكرة جرحا بأندلس للآن ما التأما

يا امة غرها الاقبال ناسية ان الزمان طوى من قبلها اممما

سيلحقون فلسطين باندلس ويعطفون عليها البيت والحرما

ويسلبونك بغداد وجلقة و يتركونك لا لحما ولا وضما

بالمدفع استشهدي ان كنت ناطقة او رمت ان تسمعي من يشتكي الصمما

بقامته الفارهة ولكن المسنة والمتعبة، وبالطاقية التي لم تكن تفارق رأسه ابدا، حتى خلال النوم، وبسنوات عمره الاربع والتسعين يومها، ارتجل الجواهري امام الملك وحاشيته قصيدة :

يا سيّدي أَسْعِفْ فَمِي لِيَقُـولا / في عيدِ مولدِكَ الجميلِ جميلا

يا أيّـها المَلِـكُ الأَجَلُّ مكانة / بين الملوكِ ، ويا أَعَزُّ قَبِيلا

يا ابنَ الهواشِمِ من قُرَيشٍ أَسْلَفُوا / جِيلاً بِمَدْرَجَةِ الفَخَارِ ، فَجِيلا

نَسَلُوكَ فَحْلاً عَنْ فُحُولٍ قَدَّموا / أَبَدَاً شَهِيدَ كَرَامَةٍ وقَتِيلا

للهِ دَرُّكَ من مَهِيبٍ وَادِعٍ / نَسْرٍ يُطَارِحُهُ الحَمَامُ هَدِيلا

يُدْنِي البعيدَ إلى القريبِ سَمَاحَةً / ويُؤَلِّفُ الميئوسَ والمأمُولا

قصيدة لا تنسى حين تشاهد وتسمع بصوته المتعب، وهو تعب لم يفارقه الا بالممات عن 98 عاما، قضاها يقول :يا عُراق) بعين مضمومة(، لأنه لم يكن يرتضي ابدا ان تُكسر عين العراق.!

بهذه العين المرفوعة، وبالطاقية الاوزبكية التي اشتراها لتحميه من البرد والحر من متجر في مستشفى روسي تعالج به ايام الاتحاد السوفياتي، وبسيرة حياتية وسياسية ظلت تتقلب من الملكية الى الجمهورية، بسحب متكرر لجنسيته، ولجوء من منفى الى منفى، ووفاته خارج وطنه، يحاكي الجواهري بل يماثل حال العراق وحال كافة شعراء ومبدعي بلده .

عمل في البلاط الملكي العراقي ايام الملك فيصل ثم استقال ليفتح جريدة سرعان ما اغلقوها وسجنوه، أُنتخب عضوا في البرلمان ولكنه استقال احتجاجا على توقيع معاهدة مع الانجليز، ايد الانتقال من الملكية الى الجمهورية وصار مقربا من عبد الكريم قاسم، وتم انتخابه ليكون اول نقيب للكتاب والادباء، الا ان علاقاته بالنظام سرعان ما تدهورت، فخرج طلبا للجوء السياسي، أعادوه واعادوا له جنسيته العراقية المسحوبة، ولكنه رفض ان يمدح صدام حسين، رغم انه مدح كثير من الزعماء الآخرين، فتم التضييق عليه الى ان خرج الى دمشق ليموت فيها.

مات في دمشق التي مات فيها ايضا الشاعر عبد الوهاب البياتي، مات خارج وطنه تماما كما مات السياب وفؤاد سالم في الكويت، كما ماتت نازك الملائكة في القاهرة، وكما مات شاذل طاقة في المغرب، كما مات عبد الرزاق عبد الواحد في فرنسا، وكما يقضي مظفر النواب آخر ايامه في الامارات، بعد سيل متلاحق من المنافي .

مات الجواهري وكان لقبه شاعر العرب الاكبر، مات من حفظ في صباه الباكر 500 بيت من عيون الشعر في يوم واحد، مات ابو فرات وهو من وسم بغداد بلقب دجلة الخير ام البساتين، وتحدث عمّا الحقه بروما عسف نيرون .مات من وقف له طه حسين مصفقا حين سمعه يقول في قصيدة مديح لابي العلاء المعري :

لثورةِ الفكر تاريخ يُحدِّثُنا / بأنَّ ألفَ مسيحٍ دونها صُلِبا

الجواهري

بغداديات23

مشكول الذمة على الفالة

تطلق الثورات عادة امرين :الاول هو العنفوان الذي يفور ثم يخبو ويهمد ويظل يفور ثم يخبو ويهمد، واما الثاني فهو تراثها الفني، الذي يظل يتمدد ويتوسع.

هذا التراث الفني يبقى رغم ان الثورة الجديدة تحاول عادةً البدء بكتابة التاريخ انطلاقا من انتصارها، وشطب حتى الارث الفني الذي سبقها باعتباره من رموز الزمن البائد.

حصل ذلك في ثورتنا الفلسطينية التي اهملت كثيرا من القامات الفنية والادبية التي سبقتها، وحصل في مصر ايضا، ومع من؟ !مع كوكب الشرق ام كلثوم.

كان مسؤولو الاذاعة المصرية قد قاطعوا اغاني ام كلثوم بعد الثورة على اعتبار انها من رموز العهد البائد فلما علم الزعيم جمال عبد الناصر، استدعاهم وامرهم بهدم الاهرامات، فلما استغربوا ذلك قال لهم :لأنها ايضا مثل ام كلثوم من العصر البائد؟. !!!

حصل ذلك ايضا مع ثورة العشرين في العراق، لقد خبا بريقها، وتوسع فنها وتمدد، واوجد لنفسه مكانا لائقا في التراث.

على ارض الرميثة بين الديوانية والسماوة اطلق شيخ عشيرة الظوالم، شعلان بن عناد ابو الجون، الرصاصة الاولى لثورة العراق ضد المحتل البريطاني، الذي نكث بوعوده، واحتل البلاد بدلا من تحريرها من الاتراك .

استدعى الحاكم البريطاني ارنولد ويلسون شيخ العشيرة ووجهائها بقصد اذلالهم، فقرر ابو الجون ان يذهب وحده، تحسبا لأي غدر بريطاني.

بدأ الحاكم بتوبيخ الشيخ وتهديده، فقال له الشيخ :انظر ايها البريطاني، هذا العراق وليس الهند، وسيكون لأفعالكم رد لا تحمد عقباه، فأمر الحاكم البريطاني بحبسه في سجن الديوانية .

وفي اثناء انتظار قدوم القطار الذي سيقوم بنقل السجين، قام الشيخ شعلان بتسريب رسالة الى بقية المشايخ يطلب فيها عشر ليرات ذهبية، ففهموا الرسالة المشفرة، وارسلوا اليه عشرة رجال اشداء يقودهم حبشان الحاج، فقتلوا ضابطا بريطانيا وجرحوا اثنين، وتمكنوا من اطلاق سراح كل المحتجزين والعودة بهم سالمين غانمين.

تطورت هذه المعركة التي استمرت ساعات الى مناوشات ثم الى ثورة عارمة ومعارك بينها معركة القطار التي استمرت 11 يوما، وانتهت الى مفاوضات عرض خلالها المحتل البريطاني على العراقيين اقامة حكومة تحت امرتهم واشرافهم على ان يختاروا هم رئيسها .

كان المندوب البريطاني معنيا بإظهار تفوقه، فجلس بمنتهى التكبر على منصة مرتفعة، ووضع رجلا على رجل، فقال له الشيخ علوان الياسري : انزل رجلك، كشرط لبدء الحديث .فانزلها، وبعد ذلك رد عليه الشيخ عبد الواحد الحاج سكر آل فرعون شيخ عشيرة آل فتلة، قائلا :لسنا عجما او اتراك او انجليز ، نحن عرب ونريد اميرا عربيا يقود حكومة عربية مستقلة لا تخضع لوصاية احد.

عندما حاكم البريطاني الشيخ عبد الواحد الحاج سكر بعد سنوات، سأله من معك من الثوار، ومن اين جلبتم الفلوس لشراء السلاح :فأجابه انا لوحدي

مسؤول عن الثورة، واما الفلوس فإنها اموال الضرائب التي لم لن ندفعها لكم، لقد جمعناها وبها اشترينا السلاح، فحكم عليه بالنفي.

وفي انتظار تنفيذ الحكم تم ايداعه في سجن الحلة، فبدا غريبا بزيه التقليدي بين المساجين الذين يرتدون البنطلون والقميص، فقاموا بإلباسه ملابس السجن ووضعوا في رجليه سلاسل الحديد، ونفوه بعدها الى البصرة، فصار مسكنه الخاضع لرقابة الشرطة، قبلة للزوار المؤازرين للثورة، وحصل ان امير الكويت وقتها الشيخ احمد الجابر الصباح، ارسل له الف ليرة ذهبية مع وفد رفيع، فشكرهم وأكبر موقفهم، ولكنه اعتذر عن قبول المال .

في هذه المعارك والمناوشات استخدم العراقيون) الفالة (و) المكوار (كسلاح، فيما استخدم البريطانيون البنادق والمدافع) الطوب.(

المكوار الذي دخل موسوعة الاسلحة العراقية المستخدمة ضد الانجليز هو مجرد عصا غليظة، تنتهي بكرة ثقيلة من القار .ويكون قاتلا حين يضرب به الرجال الاشداء رؤوس اعدائهم في المعارك التي تبلغ حد التلاحم والاقتتال من مسافة الصفر .

و الطوب كلمة تركية تعني المدفع، ولقد اصبح هذا الطوب معلما شهيرا، بعد وضعه أمام باب وزارة الدفاع القديمة في قلب العاصمة بغداد مقابل ساحة باب المعظم .ويحلو للعراقيين ان يسموه) طوب أبو خزامة (لوجود عروتين وحلقتين من الحديد على جانبيه مع خرم في فوهته، و)الخزامة (وهي الحلقة التي تلبسها المرأة في الريف العراقي في أنفها بعد أن تخرمه .

افتخارا بمعارك المكوار في مواجهة الطوب، اطلق ثوار العشرين اهزوجة تعاير البريطانيين وتتوعدهم، تقول هذه الاهزوجة :الطوب أحسن لو مكواري، الطوب أحسن لو مكواري؟ .!

الاهزوجة عند العراقيين تسمى هوسة، والهوسة فن شعبي لفظي وحركي، ولها نظام صارم، حيث لا تزيد أبيات الواحدة على ثلاثة وبيت الهوسة هو الرابع، ويكون على بحر مخالف للأبيات التي تقدمته، ويأتي هذا الشطر الرابع مبدوءً بعبارة" :ها خوتي ها "ويقصد بها لفت انتباه الآخرين، والذين سيردون لا محالة بعبارة) هاااا (طويلة، تحث الداعي على بدأ تهويسته، وتدل على تشوقهم لسماعه.

ويردد بعدها الجميع بيت الهوسة النهائي بنشوة وهم يتقافزون، يد ترفع البندقية، واخرى تمسك بالكوفية والعقال خشية انزلاقهما اثناء التقافز .او يد تمسك العباءة وأخرى الكوفية في حالات السلم.

لا تقال الهوسة الا متبوعة برقصة التقافز الحماسي للجميع بدءا من الاكبر سنا وقدرا ونفوذا .

والفالة من ادوات الزراعة في العراق، وتشبه الشاعوب او المذراة المستخدمة لفصل الحبوب عن القش بعد الحصاد، غير ان لها خمسة رؤوس حادة كرؤوس السهام ومتفاوتة الاطوال، لا مجرد اربع شوكات فقط متساوية الطول كما لدينا، اشتهرت مدينة واسط بالفرات الاوسط اكثر من غيرها في صناعة هذه الاداة التي يستخدمها العراقيون لصيد الاسماك، في ايام السلم، وللقتال في الايام الاخرى .

في احدى معارك ثورة العشرين، غرس عراقي غيور الفالة في صدر ضابط بريطاني، فأخلاه جنوده من ساحة المعركة، وحملوه والفالة ما زالت منصوبة في صدره، فما كان من المقاتل العراقي الا ان اعتبر الفالة امانة معلقة بذمتهم، وطالبهم بإرجاعها لأنه يحتاجها، وكل ذلك من خلال تهويسة طريفة :

رد فالتنا إحتاجيناها

مشكول الذمة على الفالة، مشكول الذمة على الفالة

ما من شك لدي بان الثوار ساعتها تقافزوا طربا، وهم يضربون الارض ويرفعون اسلحتهم ويدورون حول انفسهم ويحركون اكتافهم ورؤوسهم .

كان صدام حسين من المعجبين بالهوسات، التي يطلقها ابناء العشائر عندما يستقبلهم، لم يكن يشاركهم التقافز على الهوسات التي تمدحه غالبا .تقول احدى هذه الهوسات" :صدام اسمك هز امريكا "وتقول اخرى" صدام اسمك عز وهيبة "صدام نفسه وغداة احدى معاركه صنع هوسة شهيرة تقول" :يا محلى النصر بعون الله ."

عند هذا الحد المختصر من الشرح لثورة العشرين ولبطلها شعلان ابو الجون ولمسرحها على ارض الرميثة قرب الديوانية وللاسلحة المستخدمة فيها من طواب وفالات ومكاوير، ولمن قتل فيها وجرح من البريطانيين وما رافقها من هوسات، تصبحون قادرين على التمتع بقصيدة مظفر النواب عن هذه الثورة .

في هذه القصيدة المسجلة بصوته كما في الرابط بالتعليق الاول، يبدأ مظفر وهو شخص خجول ومتواضع بالمناسبة، يبدأ بغزل غير عفيف، غير عفيف اطلاقا، ثم يستهل وصف المعركة باستعارة كل ما في الحناء من دلالة على الفرح، ولون ولمعة ليصف الخيل، فيقول :

صدور الخيل مراية حنة

أي خيال هذا الذي يجعل صدور الخيل تنز عرقا لتصبح مرآة بلون الحناء !!!انه خيال ابو عادل مظفر النواب .

عراقي يحمل الفالة

بغداديات 24

العراق بين فراكشتاين وطشاري

انا صاحب ذاكرة ممتدة للوراء طويلا، ذاكرة انتقائية متقطعة، تُخزن من كل ذكرى مشهدا او مجرد صورة او مجرد كلمة، وتستحضرها عند الحاجة للذكرى، تستحضرها فتصير الكلمة او الصورة، مفتاحا لبئر أنشل منه الاحداث، كلما فعلت ذلك كلما تردد في رأسي صوت دلو الماء حين يهوي في البئر ويرتطم بجبهة الماء الساكن.

مهما كنت مستعجلا وعطشانا ستتوقف عند سماع هذا الصوت، ستشعر انك ايقظت آلاف الارواح النائمة، ستنتظر الى ان يسكن الصوت ثم تحرك الدلو لتغوص حافته تحت الماء .

اعرف كيف انشغل او اتشاغل فأنسى، ولكنني اجهل كيف اتذكر، واجهل كيف جعلت تلك الكلمة او الصورة مفتاحا لهذا البئر، ربما يعود الامر لقدرتي على الاختزال حين اريد، وعلى الاسهاب ايضا كما افعل الآن.

يمكنني اختزال العراق بعد العام 2003 بروايتين، ما لا يمكنني تذكره ولا اختزاله او شرحه هو الفترة من دخول العراق للكويت عام 1990 الى سقوطه عام2003 ، رغم انني عشت في بغداد السنوات الخمس الاولى من هذه المرحلة .

هذا امر يفسره لي اقتباس من الرواية الاولى وهي" فراكشتاين في بغداد " للروائي العراقي احمد السعداوي، يقول الاقتباس" :العاطفة تُغير في الذاكرة، وحين تفقد انفعالًا يرافق حدثًا معينًا فإنك تفقد جزءًا مهمًا من هذا الحدث ."

السعداوي شاعر وروائي وكاتب سيناريو، تجد هذه المهارات مجسدة بالكامل في روايته التي فازت بعدة جوائز وترجمت الى العديد من اللغات، تجد ذلك مجسدا، في شخصية ام دانيال وهي جالسة في بيتها بحي البتاوين، امام ايقونة مسيحية تناجي ابنائها الذين هربوا من الحرب والتفجيرات العمياء واصبحوا بعيدين .

شخصية ام دانيال تذكرني بمشهد حقيقي لعجوز عراقية مسلمة تشعل شمعة امام تمثال السيدة العذراء في احدى كنائس بغداد وتناشدها ب الحسين مساعدة العراقيين.

تقول المرأه العجوز" :يا مريم العذرة.. شوفينا بعينج وشوفي حالنا ...كلها تذبح بينا واحنا لا حول ولا قوه....يا مريمانة.... ابني اخذوه من حضني مثل ما اخذو منج ضناج.... انتي ام وتعرفين حركَة كَلبي يا مريمانة رديلي وليدي دخيل الله ودخيلج..

يامريمانه العراق مصلوب ! عليج البو الحسنين ادعيلنا يا مريم... وفكي ضيجة العراق وضيجة ابني....

يا مريمانة لو جانت روح ابني تخلص هالاوادم كلها ... هم اقبل، يا مريمانة لا تخلين قلب ام ينكسر مثل قلوبنه!

سكتت المرأة مطولا... ثم قرأت الفاتحة مهداة الى) محمد وال محمد , ولعيسى بن مريم ومريم بنت عمران وكل ارواح العراقيين! "

امام كل هذا الذبح، يقوم تاجر الانتيكات بتجميع بقايا بشرية من ضحايا الانفجارات ويخيطها على شكل جسد جديد، يسميه" الشسمه"، أي الذى لا اسم له، ويسميه آخرون" فرانكشتاين"، ويقوم هذا الكائن بقتل كل من ساهم

في قتل الاصحاب الاصليين لأجزاء جسده، صانعا بذلك متوالية قتل لا تنتهي .

الرواية الثانية هي لانعام كجه جي، وقد اختارت مفردة" طشاري "عنوانا لها، وتحمل المفردة معنى طلقة الصيد) الخرطوش (المليئة بحبات الخردق، وتعني ايضا التبعثر بكل اشكاله بما في ذلك التشتت البشري .

كنت سأجتهد في كتابة ملخص لهذه الرواية، لكنني لن استطيع كتابة شيء افضل مما كتبه الكاتب السوري فايز علام عنها :

"الدكتورة" وردية "طبيبة عراقية، مسقط رأسها" بغداد"، وهي مسقط قلبها أيضاً، لكن الحرب وتغيُّر ظروف البلاد تجبرها على الرحيل إلى باريس، بعد أن توزعت عائلتها في كل أقاصي الأرض" .كأن جزاراً تناول ساطوره وحكم على أشلائها أن تتفرق في كل تلك الأماكن .رمى الكبد إلى الشمال الأميركي وطوّح بالرئتين صوب الكاريبي وترك الشرايين طافية فوق مياه الخليج .أما القلب، فقد أخذ الجزار سكينه الرفيعة الحادة (...) وحزّ بها القلب رافعاً إياه، باحتراس، من متكئه بين دجلة والفرات ودحرجه تحت برج إيفل."

يضيف الكاتب علام في تلخيصه لرواية طشاري" :في باريس، تستقبلها ابنة أخيها، لتصبح العجوز الثمانينية صديقة ابنها" إسكندر"، تحكي له عن "العراق "وعن أمنيتها في أن تعود لتدفن في ترابه بعد موتها .يقوم الفتى بإنشاء مقبرة إلكترونية على" كومبيوتره "يجمع فيها شتات الأقارب المتوزعين في كل أنحاء العالم .يضع قبوراً للأحياء إلى جوار قبور الأموات، محققاً بذلك حلماً يصعب تحقيقه على أرض الواقع ."

احداث هذه الرواية تبدأ من منتصف القرن الماضي، حاملة بين اسطرها وفصولها كل ما مر بالعراق من احداث سياسة واجتماعية، وتطورات ثقافية، واقتصادية جعلته قبلة العرب، وتنتهي بكونه طاردا ودافعا لهجرة الملايين من ابنائه لا سيما الكفاءات منهم .

سيظل ما جرى في العراق منذ دخوله الكويت الى سقوطه، حبيسا في احد آبار الذاكرة، لان العاطفة تآمرت على اخفاء وتشفير كلماته المفتاحية، واما مستقبل العراق فقد تفتح بئره عين مترصدة رسمها طالب في كلية الفنون الجميلة على جدار بناية المطعم التركي في مواجهة المنطقة الخضراء، وكتب عليها اقدر اشوفك، اخافتهم العبارة فهرعوا لمسحها، واما بناية المطعم، فقد اصبحت جبل احد ذات همة ثورية انطلقت لتظل تتجدد.

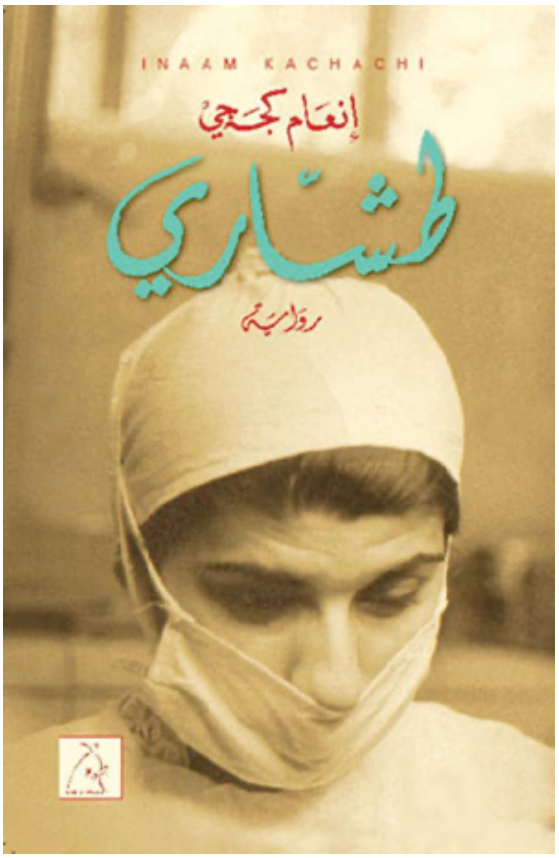

غلاف رواية طشاري

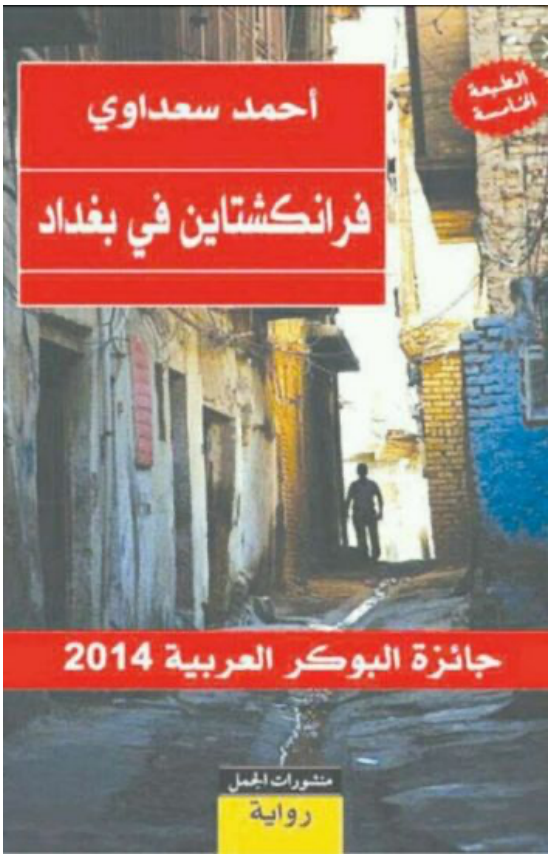

غلاف رواية فرانكشتاين في بغداد

بغداديات 25

وحش الطاوة

مؤخرا بدأت بأكل الملوخية والبامية، ولا زلت لا احبهما، ولكنني اقبلهما زهدا، كلما تقدمنا في العمر كلما ازددنا ميلا للرضى، الذي نسميه زهدا، وهو في واقع الحال ليس اكثر من قبول باكراه، لم اتوقف يوما عن اطلاق الشائعات ضد هذين النباتين، ومنها ان الملوخية عديمة الفائدة بحسب فحوصات اجرتها مختبرات يابانية، وان الملوخية تسبب تهتك الاخلاق بحسب دراسات اخرى، كل ذلك لم يجد نفعا مع عشاق هذه الاكلة، وخاصة اهل بيتي.

زرعت حماتي مرة بامية، وكنت ايامها نشيطا، اقضي ساعات العصر في رش الماء على الاشجار والنباتات المزروعة حول البيت، وكنت اتعمد عدم رش البامية بأية قطرة ماء، املا في موتها، ثبت بعد ذلك ان من حفر حفرة للبامية وقع فيها، فالبامية لعينة وماكرة وتلبي حاجتها للماء من النشع وليس الغمر، ويساعدها في ذلك الزغب الشوكي الناعم على قرونها والسيقان .

الحقيقة انني في صغري كرهت كثيرا من اصناف الخضار، لأسباب مجهولة، وكان ذلك مصدر ازعاج لأمي، اطال الله في عمرها، حيث كانت تجبر على توفير طبق اضافي لي، عزائي الآن معرفتي بان كل واحد يكره في طفولته صنفا او اكثر من الطعام.

لي صديقان الاول يكره الرز ولا يأكله اطلاقا، والثاني لا يحب السمك ولا يأكله اطلاقا، قام صديقنا الظريف الثالث بدعوتهما للغداء في منزله، وكان

يعلم قصتهما، فطبخ لهما صيادية، فاكل حتى شبع وضحك حتى انفجر، فيما هما يتضوران جوعا ويلعنانه .

كنت اكره الباذنجان جدا في طفولتي، واصبحت من عشاقه بعد سن الثلاثين، وقعت في غرامه بمدينة ميلانو الايطالية، رأيت في قائمة الطعام صورة باذنجانة خارجة للتو من الفرن، مفتوحة من الجانب ويخرج منها بعض حشوتها من اللحم المفروم والمخلوط بالبندورة المفرومة والبصل ومبروش عليها بعض الجبن طبعا، ومزينة بأوراق الريحان، طلبتها واكلتها فكانت ولا الذ، واصبح من يومها الباذنجان في صدارة قائمة مأكولاتي المفضلة .

تعود الي هذه الذكريات بعد ان قرأت نصا جميلا للكاتبة احلام بشارات عن ذكريات طفولتها مع الباذنجان :كمزارعة في الاغوار، وكعاملة تحفظ حبات الباذنجان في صناديق للتصدير، وكمتأملة لهذه النباتات وهي تنمو، وطاهية ومتذوقة لها، وككاتبة وشاعرة تسعى في مهمة شاقة هي استحضار الطعم الاول لكل شيء من الذاكرة وتحويله الى كلمات ومقاطع تشاهد وتسمع وتلمس وتشم .

بإمكان هذا النص ان يجبرنا على احترام الباذنجان حتى لو لم نعشقه :

".....كلما أمسكت بحبة باذنجان، لا أستطيع أن أمحو من أمام عيني حقولا من الأقراط البنفسجية، ولوحة واسعة معلقة على حائط قلعة ممتد بلا نهاية، من أرجل الحمام الرقطي الأرجوانية، وأرى أسرابا من النمل، وأرى أسرابا من أشجار السرو، يجللها نخب المطر، وأرى قطيعا من الأبقار بضروع مدلاة، وعجول صغيرة تحتها تمص حلماتها، وأرى أسماكا تسبح في بحيرات صافية.. صافية، وأرى دجاجا بلديا مزركشا ..... ."

معرفتي بقوائم الاكل في البيوت العراقية دون المستوى المطلوب، لقد كنت احيا حياة فلسطينية ولكن في بغداد، وكان اكلي في المطاعم اكثر منه في البيوت، ونتيجة لذلك فان الانطباع المتكون لدي عن ان طعام العراقيين يستند الى اللحوم والرز اكثر بكثير من الخضار قد يكون انطباعا خاطئا، وان صح في محيطي فانه غير صحيح في محيط الآخرين، وان كان صادقا في بغداد فقد لا يصدق في غيرها من المحافظات والمدن والارياف، ولكن لم يحصل في حياتي ان قابلت نباتيا في العراق، واستطيع تخيل الشخص العراقي التقليدي وهو يضرب كفا بكف ويصفر استغرابا، ويحوقل استنكارا، اذا ما قابل شخص لا يحب الباجة والسمك والكباب او التشريب او الدليمية او البرياني او الباقلاء بالدهن الحر، ويكتفي بأكل الخضروات والحشائش .

في سنوات الحصار تغيرت قائمة طعام العراقيين تبعا للظروف الاقتصادية، ولنوعية الطعام المتوفر في الاسواق، فاحتلت الفاصولياء البيضاء) يسمونها اليابسة (موقع الصدارة، ومعها الباذنجان) يسمونه اسود(، ولم يكن مسموحا لهذا الظرف ان يمر مرورا عابرا على السنة العراقيين، فقاموا باستحداث اسم غريب لهذا النبات الاسود المفلطح الذي احتل المقالي فوق النيران في بيوتهم، فأسموه) وحش الطاوة (أي وحش المقلاة .وظل رفيقا وفيا لهم في ايام الفقر المدقع، ولكنه لم يسلم من السنة كارهيه، فمنهم من جعله رديفا للحصار الاسود والفقر، ومنهم من فعل مثل فعلي بالملوخية ونشر اشاعة ان اكل الباذنجان يسبب الجنون .

ينتج العراق الآن الباذنجان بلونين :الاسود البنفسجي، والاخضر الفاتح، وقد ينتج قريبا الصنف الابيض، وهو ما سيترك باعة الخضار العراقيين في حيرة من امرهم، هل سيسمون هذا الزائر الجديد، اسود اخضر، اسود

ابيض؟ !اغلب الظن انهم سينادون على بضاعتهم باسم وحش الطاوة متبوعا باللون.

يميز العراقيون الباذنجان الحلو ويقولون انه انثى، ويستدلون على حباته من الشَرطَة الطويلة في قاعه، واما الباذنجان المر فيقولون انه ذكر، ويستدلون على ذلك من كون شرطته السفلية صغيرة ودائرية .

لا يستذكر الحصار في بغداد الا مصحوبا بذكر وحش الطاوة، ومن ذلك هذه المعلقة لشاعر مجهول :

اسود سواد الليل والزلف أخضر / واللمعة جلد روغان والريحة عنبر

غلطان اذا ظنيت بالشتا ننساك / رسمك ثبت بالعين والطاوة وياك

بالحمس بالتركيب بالمرق شفناك / يتمت كل الناس من بعد فرقاك

بالدهن من غطست نشفته كله / سعر الدهن يا ناس ربالي عله

يروح السمك والبيض واللحم فدوه / لعيون بينتجان بس هو يسوه

أسود بعين الناس بعيني تبني / واحد من اهل البيت حسبتك ابني

هم طرشي هم تكلاه هم شيخ محشي / مثل الذهب يا ناس بالسوق يمشي

يالتحجي على الروغان تستاهل اعدام / لو فاركته العين ما تقدر تنام

اسود سواد الليل بس قلبه ابيض / ادري الطماطة تفيد بس انت افرض

لو وجبة ما القاك صدقني أمرض / من كثر فن البيك سويت معرض

زاير بيوت الناس والبيت بيته / لو بيدي يا هالناس ما قشريته

لو تحجي يا هالناس هالمعدة قالت / جيبولي بيتنجان الفرقة طالت

قطعت ورد البيت وزرعتك انت / حيرني لغز البيك بس ما فهمته

متعجب بدنياك قطعت الورود / ما جذب كلمن قال بالجنة موجود

دار الزمان ودار بقيت انتَ / والباقي يا هالناس خلوهه سكته

كلبك صخر جلمود يالقشريته / مو جنت تبجي دموع من فارقيته

غيبتك يا هالزين جن حزن عاشور / يالكلشي بيك يفيدهم حتى القشور

لو يصعد الدولار هم هذا ازود / حسبالك بترول الذهب الاسود

شكد حاول العدوان يفرض حصاره / ما يدري وحش الطاوة سواله جاره

يالدزك الرحمن للناس رحمة / اتخايلك بالليل بالطاوة لحمة

بكد ما بليت الناس من الله يبلاك / ابتعد عني وروح ارجوك ياblack

ما أظن اني بيوم أقدر أعوفك / لو ما قتلني الجوع ما جنت اشوفك

العظم اسود صار وحتى الخلية / من سمع بيتنجان بالصيدلية

هم مغص بالامعاء وبالمعدة قرحة / وماي العمة بالعين والكلب جرحة

وكافي بعد يا لناس ما اكدر احجي / لو شفت بيتنجان هاليوم أبجي

وحش الطاوة

بغداديات 26

المبردة

اكره البرد، ليس معنى ذلك انني احب الحر، ولكنني افضل مجمل ما في الصيف على مجمل ما في الشتاء، لا استطيع الشعور بالامتنان وانا بردان، والامتنان، للأشياء الصغيرة والكبيرة، وللنعم الموجودة بصحبة الانسان منذ الولادة، وللأحداث والصدف السعيدة، شعور هام بالنسبة لي، فهو يجعلني قادر على الاستمرار، وعلى تقبل أي حدث غير سار، الشعور بالبرد، يمنعني من تلمس الامتنان او مقاربته خلال صلواتي كل صباح، وهي صلوات احرص عليها غاية الحرص حتى لو اخرتني عن الدوام .

عايشت في بغداد اجواء حارة تصحبها احيانا رياح خماسينية يسمونها)طوز(، ذرات دقيقة جدا من الغبار تتسرب الى داخل الاشياء والاماكن مهما اجتهدت في احكام اغلاقها، فكيف ستغلق فتحتي انفك، وكيف ستفعل فيما يجد الغبار غايته فيلتصق بمسامات جلدك التي تسح عرقا دون توقف.

وعايشت في البصرة اجواء حارة مصحوبة برطوبة عالية، تسير وكأنك تتمشى في غرفة ساونا، انفاسك ثقيلة، وملابسك تلتصق على جلدك الدبق، والذبابة التي طردتها للتو عن اذنك عادت وحطت على حاجبك، وبدأت بالنزول الى أرنبة انفك بكل وقاحة، وقطرات العرق تتدحرج من جبينك على جانبي منخريك وتصل شفتيك، ويداك دبقتين، غاية المنى في تلك اللحظات ان تمر عليك نسمة هواء، فتفتح ذراعيك لاحتضانها وللسماح لها بالمرور بين ثنايا جسدك، وملتقيات الاطراف، وتحت الابطين .

تكررت هذه الاجواء معي خلال زياراتي المتكررة لماليزيا، ولكن دون ذباب، درجة الحرارة هناك بحدود الثلاثين صيفا وشتاء، رغم ان الشمس تظل محجوبة بغيوم سرعان ما تمطر، امطرت مرة وانا في مسبح الفندق، تمنيت ساعتها لو ان فلسطين تصبح بلدا استوائيا، وابرقت وارعدت بشدة ذات ليلة وانا في غرفتي، فسارعت للخروج والسير تحت المطر المنهمر حبات كبيرة، كبيرة جدا، المطر لديهم مزاريب، ومطر بلادنا يشبه (التفتاف) المستخدم لري المزروعات بالتنقيط.

تمطر ساعة او ساعتين، يسيل الماء مدرارا فوق الادراج وينحدر متدافعا ومتقافزا كانه ينبع من عين ماء فوار، ويتفرق عن منتصف الشارع نحو جنباته حيث تبلعه تلك الفتحات فيمضي في طريقه، ينتهي المطر فلا تجد له أي اثر، لا برك ولا اوحال ولا قاذورات، لا تجد اثره الا في الهواء الذي اصبح عليلا وطريا، ويشجع على كل شيء.

لا مجال للمقارنة بين البنية التحتية هنا وهناك، ولا مجال للمقارنة بين مشاعر السائرين تحت المطر في كوالالمبور بقامات منتصبة لا يسترها الا شورت قصير وتيشيرت وقسمات وجه ضحوكة واذرع مفتوحة، والسائرين تحت المطر في بلادنا بوجه عبوس، وقامات منكمشة، يغطيهما كوم من الملابس والطواقي واللفحات.

ولا مجال للمقارنة بين ما لدينا من حشائش وشجيرات، وما لديهم من غابات واشجار، يتعب نظرك وهو يحاول الوصول الى منتهى الاشجار في غاباتهم الكثيفة، تركز على غصن فيتهيأ لك انه يكبر امام ناظريك، لو ركزت في مزروعاتنا للاحظت انها ايضا تنكمش في محاولة للتأقلم مع شح المياه.

يتأقلم الناس سريعا، اذا اطلت الاقامة في ماليزيا ستصبح مثلهم، إنهم لا يتعرقون، يسيرون اضعاف ما تسير، دون ان تنز منهم قطرة عرق واحدة، اذكر انني شعرت بالبرد هناك عند زيارة مرتفعات جينتنج القريبة جدا من العاصمة، هناك درجة الحرارة على مدار العام لا تزيد عن العشرين درجة مئوية، انه جو مثالي، تسير بين الغيوم، تركب التلفريك وتخترقها فتطل على مساحات شاسعة من الاشجار الباسقة، الدنيا هناك لونان فقط شجر اخضر وغيوم بيضاء، وكأن الارض هناك بقيت تماما كما تركها رب العزة في اليوم السادس قبل ان يعتلي العرش .

لا اتذكر امطار بغداد، ومهما اجتهدت قد احصل على مقطعين او ثلاث من نوبات مطر ليلي، واما موجات الحر فحدث ولا حرج، ساعات الظهيرة في صيف بغداد هي ساعات منع تجول طوعي، يقضيها الناس عادة في اخذ قيلولة طويلة، واما من لا يعرفون للنوم نهارا أي سبيل كأمثالي، فانهم سيعانون من حبس منزلي صعب، انهيت قراءة كل الكتب الموجودة لدي، المجلات والصحف العربية لا تصل لبغداد، بث التلفزيون محفوظ عن ظهر قلب، والفضائيات لم تدخل حيز الوجود العراقي بعد، وكذلك طبعا الانترنت، وكان تهريب الصحون الفضائية جريمة .

اذكر ان صديقيّ وسيم وحسام تجرءا على شراء صحن لالتقاط البث الفضائي، من سوق الحرامية، وطبعا بالتهريب، وضعاه على السطح فوق كرسي مكتب دوار، املا في الوصول الى زاوية الميل المطلوبة لالتقاط أي بث، لم نفلح بعد ساعات طويلة من اللف والتدوير والتمييل، الا في التقاط محطة تركية تبث دعايات تجارية، في اليوم التالي وفيما كان احد الشقيقين يبحث في سوق الحرامية عن احمد ابو الساتلايت، حضر رجال الامن

واكتفوا بمصادرة الصحن، وعدم فتح قضية تجسس، حمدنا الله كثيرا على ذلك .

عليك الاكتفاء بالراديو ستبدأ بإذاعة لندن، تنتقل بعدها لصوت امريكا، وتمر بإذاعة بغداد لتسمع دراما اذاعية جميلة عنوانها" المجرشة"، وستمر عصرا على اذاعة مونت كارلو، كانت هذه الاذاعة الانيقة الرشيقة وقتها مهوى افئدة ومهبط اسماع كل من يحب الاعلام والفن والجمال، تسمع نص رسائل مراسليها :حسن الكاشف من بغداد، باسم ابو سمية من فلسطين، ومحمد كريشان من تونس، وعادل مالك من لندن، وعبد الله الشهري من الرياض، والمذيع المرحوم حكمت وهبي، ستختم ساعات منع التجول بسماع صوت الثورة الفلسطينية، وحلقة من برنامج غنى الحادي بصوت يوسف حسون

حياكم الله ومرحبا حي الرجال الغانمين يا حلالي يا مالي

يللي سمعتو للندا من صوتنا الحر الامين يا حلالي يا مالي.

غنى الحادي وقال بيوت، بيوت غناها الحادي

سدّو الدرب منين افوت، افوت واقدر بعنادي

يا هلا بك يا هلا، يا هلا بك يا هلا

فوق التل تحت التل وبين الوادي والوادي

ان تسأل عنا تندل وتلقاني وتلقى ولادي

انتهت ساعات منع التجول، حان موعد اعطاء الاستراحة لأجهزة التكييف، والجلوس الى البلكونة المطلة على مسبح فندق الحمراء، والمقابلة لثلاثة جسور :الجسر المعلق المؤدي الى القصر الجمهوري، وجسر الجادرية

المؤدي الى جامعة بغداد وجزيرة الاعراس، وجسر ابو الطابقين المؤدي الى حي الدورة.

ان تسكن في خاصرة محاطة بثلاثة جسور يعني انك تعيش في شبه جزيرة، ولكن حدود برها محاط بماء النهر وليس البحر، وببساتين من النخيل بدلا من رمال الشاطئ، درجة الحرارة في هذه المنطقة المسماة بـ الجادرية اقل من بقية الاحياء بـ 5 درجات .

يمكن كتابة تاريخ بغداد من خلال جسورها التي تربط الرصافة بالكرخ، فمنذ تغنى الشاعرُ العباسيّ علي بن الجهم بعيون العابرات على جسرها الوحيد آنذاك) :عيون المها بين الرصافة والجسر ...جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري(، جرى ماء كثير في النهر، حتى انه لم يعد هو ذاته، وسار خلق كثيرون فوق الجسور التي تزايد عددها لتصير 13 جسرا، ارتفعت رايات وصدحت حناجر بشعارات، وقامت ثورات، وعلقت صور لزعماء، وجاءت الطائرات ذات حرب فقصت هذه الجسور البريئة، ووضعت الى جانب ركام الطائفية صور لسياسيين مرشحين لنيل بطولة العالم في الفساد وسوء الادارة .

لن تسير نهارات الحر البغدادي على ذات المنوال، فقد تنقطع الكهرباء، او يجبرك جدول اعمال سخيف على قضاء مشوار اسخف، تلجأ في نهايته الى مقهى او سينما حسنة التبريد، دون كبير التفات الى الفيلم الذي تعرضه، اذكر ان سينما اطلس في شارع السعدون استمرت لأكثر من ثلاثة شهور في عرض الفيلم التركي ازرق ازرق، لبطلته الحسناء هوليا افشار ، وفيه يغني البطل ابراهيم تاتليس اغنيته الشهيرة Mavi Mavi ، واغنية يلا شوفير يلّا. صديقنا معاوية اسمى السينما وقت ذاك اطلس اطلس .

اجهزة التكييف العراقية غريبة وعجيبة فهي من صنع محلي وتسمى الواحدة منها مبردة، ولهذه المبردات تقاليد وبروتوكول عمل وصيانة، عجيب غريب، كغرابة حجمها الكبير غير المتسق ابدا مع وزنها الخفيف، يصعب شرح وتوصيف المبردة ولكنني سأحاول .

مكعب عملاق من الحديد الخفيف، قاعدته وسقفه ثابتين وبينهما اعمدة معدنية ووجه ثابت مزود بفتحة يخرج منها الهواء البارد، واما وجوهه الثلاثة الاخرى فمحشوة بخيطان من نشارة الخشب، ومتحركة يسهل وضعها ونزعها لتبديل القش، او فتح مجاري الماء، قاع المبردة هو بركة يتجمع فيها الماء من خرطوم موصول بحنفية، وتضبط كميته عوامة مشدودة الى المدخل، في لحظة تشغيل الكهرباء ستقوم مضخة ماء منتصبة فوق القاع ومحاطة بمصفاة بلاستيكية لونها ازرق، برفع الماء من البركة ليجري في شبكة انابيب توزع الماء على الجدران، وتقوم فتحات دقيقة بتنقيطه على القش ليصبح مبلولا، وعند هذه المرحلة سيقوم الماتور بتدوير اسطوانة ذات شفرات تدفع الهواء الحار ليعبر من القش المبلول وينتقل عبر الفتحات المتومضعة في السقوف والجدران منذ التأسيس للبناء، وصولا اليك .

عليك ان تختار موقعا جيدا للجلوس او النوم بحيث يصل اليك الهواء البارد التي تبثه هذه المبردة عبر فتحة الجدار، ولضمان سير وتدفق وتوالي انبعاث الهواء فان عليك ان تصنع مجرى هواء عبر فتح الشباك بمقدار كاف، ها انت تنعم الآن بهواء بارد ومنعش، ولكن عليك الاحتياط للطوارئ والبقاء في حالة استعداد والتحول الى تقني ماهر في اية لحظة .

اول خطوة استعداد تتخذها هي كتابة اسمك او رقم شقتك او وضع اية علامة مميزة فوق المبردة الخاصة بك، لأنك عندما ستصعد الى السطح

لصيانتها سيختلط الامر عليك، فالسطح مليء بالمبردات المتماثلة جدا وكأنهن توائم من مكعبات الحديد، وانت لا تريد صيانة مبردة جيرانك قبل صيانة مبردتك الخاصة .

قد يتبدل الهواء البارد ويصير فجأة حار، اعلم ان في الامر انّ، اما ان يكون الماء قد انقطع، ستلجأ عندها الى تعبئة البركة ذاتيا من خلال برميل ماء تكون قد وضعته هناك على السطح احتياطا، واما ان الفتحات التي تنشر الماء على جدران المبردة قد انسدت من الكلس، ستقوم بنزع الجدران وتنظيف مجرى الماء في ضلعها الاعلى من الصدأ، وفتح تلك الثقوب التي تكلست، وستعود للاستمتاع بالهواء البارد ولكن بعد ان تأخذ دوشا وتبدل ملابسك .

قد تشتم رائحة بلاستيك مشعوط، ستعرف فورا ان تماسا كهربائيا قد حدث، وسواء نزل امان الكهرباء ام لم ينزل، ستحمل مضخة الماء الاحتياطية التي اشتريتها بداية الصيف لمثل هكذا حالة طارئة، وستحمل الدرنفيس) المفك (وتصعد الى السطح حيث شمس العراق تستقبلك بكل ترحاب، فتقوم بفك المضخة القديمة وتركيب الجديدة، بينما انت قابع بنصف جسدك داخل مكعب مجوف مزود بالماء والكهرباء والاخطار .

قد يطرق الحارس بابك ساعة الظهر، اعلم عندها ان مبردتك تكب الماء وقد اغرقت السطح، لا تبتئس كل ما عليك عمله هو تبديل العوامة البلاستيكية بأخرى نحاسية، واعادة معايرتها لتوقف تدفق المياه عند مستوى معين، إن كانت العوامة سليمة فهناك ولا بد ثقب في ارضية البركة بسبب الصدأ، لا تبتئس ايضا سيكون عليك فقط ان تمنع عنها الماء حتى تجف وتقوم بوضع مادة لاصقة تسد الثقب وتستطيع الصمود فوق الحديد وتحت الماء .

قد تصل اليك عبر فتحة التبريد قشة، اعرف عندها ان القش المحشور بين الجدران قد اصبح يتفتت بسبب الحر والجفاف، ستقوم عندها بفك الجدران الثلاثة، ونزع الاسلاك التي تحشر مخدة نشارة الخشب، وتضع مخدة جديدة، تحشرها بشبكة الاسلاك .

وطالما انك قد نزعت الجدران، فهذه فرصة لتنظيف بركة الماء من الطحالب والقش، وتفقد المصفاة البلاستيكية الزرقاء المحيطة بالمضخة، ونزع ما علق بها من قطع نشارة الخشب .

وقبل ان تعيد تركيب الجدران يجب الاطمئنان الى ان انابيب توزيع المياه ما زالت في مكانها ولم تنحرف لتصب الماء بعيدا نحو اسلاك المضخة، بقيت مهمة بسيطة وهي ان تحشر بعض الجوانب التي تتحرك مع دوران الماتور بوتد او قطعة قماش، حتى لا يزعجك صوتها عن تشغيل الماتور الذي سيجعل جسد المبردة يهتز كراقصة لا تحسن الرقص، ولا السيطرة على تضاريس جسدها .

قد تسمع اصواتا غريبة تأتيك مع الهواء البارد، إن كانت اصوات ميكانيكية فاعلم ان اجزاء الماتور بدأت تحتك بغيرها، وان موعد تزييتها قد أزف، واما اذا كانت اصوات بشرية فاعلم ان احدهم يتطاول على املاكك وربما يخطط لسرقة المضخة مثلا .او سرقة المبردة كاملة او استعارتها لساعات كما صنع احد اصدقائنا ذات عدة ليال من شهري تموز وآب .

لقد تعطلت مبردته فصعد الى السطح وابعدها عن الفتحة، وسحب مبردة مكتب المحاماة المغلق ليلا، ووضعها في فتحة شقته، ونام دون أي تأنيب ضمير، فمن وجهة نظره اذا كان الناس شركاء في الماء والكلأ والنار فان من باب اولى ان يكونوا شركاء في الهواء ايضا .

في الصباح ازال صاحبنا آثار العدوان، وذهب الى دوامه، وعاد عصرا، فكرر الامر، لأنه لم تكن هناك اية فرصة للقاء المحامي وابلاغه بالأمر، تكرر الامر يوما بعد يوم، حتى اكتشف صاحبنا ان اسلاك خط هاتف مكتب المحاماة تخترق الأجواء الاقليمية لبلكونته دون اذنه .

اشترى صاحبنا جهاز هاتف وبحث طويلا عن دبوس حتى وجده، فغرسه بشكل عرضي في السلك الواصل لمكتب المحامي ثم ربط اسلاك هاتفه بطرفي الدبوس، وافتتح مكتب اتصالات له ولأصدقائه.

كانت فواتير الماء والكهرباء واسعار المحروقات رمزية جدا وكذلك فواتير الهاتف، غير ان الحصول على خط هاتف كان من الامور المعقدة جدا لدواعي امنية .

كانت المبردة حاضرة في الاذهان دوما، حتى ان صديقنا اراد القول يوما انه عثر على سمكة في اسفل المجمدة،) والمجمدات العملاقة جزء اصيل من ادوات المطبخ العراقي (فقال انه عثر عليها في المبردة .!!

ومع ذلك ومع كل هذا الحضور فان صورة المبردة لا تكفي لاختزال ذكريات الحر في بغداد، فهناك العديد من الصور، بينها اجساد العراقيات التي تفور مع الحر وتختمر وتنضج وتصبح شبقة بشكل لا ارادي، شبقٌ لا يقوى لا شديد الحياء، ولا حسن التهذيب، ولا قسوة العادات على إخفائه .

وهناك صورة لعنقود معلق من بلح البرحي، تنضج حباته يوما بعد يوم، وهناك كأس كبير متعرق من شربت الرمان بالثلج المبروش في محل عصير الحاج مهدي زبالة، والذي رغم غرابة وقرف اسمه ظل على مدى عقود يقدم افضل خلطة لهذا النوع من الشراب، حتى ان كافة ملوك ورؤساء العراق زاروه وشربوه من عصيره .وهناك ايضا بضعة زجاجات من الجعة

موجودة في الثلاجة ولم تبرد بعد، سيكون عليك ان تنساها قليلا يا صديقي لكي تبرد) من كيفها (دون الحاح .

وهناك تلفزيون الشباب بإدارة عدي صدام حسين، وقد قرر ان يزيد جرعة فكاهة وغرابة الواقع العراقي فأخذ يصدر الينا كل يوم حلقة من شيخ يفتي بطريقة متهاونة جدا، هذا التلفزيون بدأ بإسقاط كل معايير الفن فصار يقدم الينا كل يوم مطربا جديدا سرق مصاغ والدته، وباعه في سوق الحرامية ثم ذهب الى تلفزيون الشباب فأعطاهم المال وعملوا له فيديو كليب ينوح فيه على حبيبة مفترضة، بشكل مبتذل فنيا.

ستضحك طويلا على هؤلاء المطربين الجدد، وعلى قمصانهم المشجرة بعنف، والتي يستحيل تحديد غلبة أي لون فيها على الآخر، وستضحك على سراويلهم متعددة الكسرات، والتي يثبتونها عادة فوق السرة بعشرة سنتيمترات، ستضحك على شعورهم وعلى قصة الاسد، وعلى احذيتهم اللميعة، ثم ستنسى ذلك كله وتستمع الى ياس خضر وهو يغني :

تايبين ولا نمر مرة بدربكم

وحالفين ما نرد يوم على حبكم

غلطة مرت وإنتهت

شمعة العشرة إنطفت

والذنب هو ذنبكم

تايبين وللمحبة ما يرجعنا الحنين

غلطة ودفعنا ثمنها أجمل أيام السنين

غلطة صارت يا خسارة ياخسارة

ليلكم ضيّع نهارا يا خسارة

لاتجونا بعذر كافي لانعوف ولا نسامح

عودوا لأيام التجافي ولا يكون العتب جارح

هذا حدنة وبس بعد تايبين وللأبد

غلطة مرت وإنتهت

شمعة العشرة إنطفت

والذنب هو ذنبكم

والذنب هو ذنبكم

المبردة العراقية ايام زمان

بغداديات 27

Ten Men

حين تحب مدينة تستطيع ان تجعل واقعها سحريا، وناسها اسطوريين، وان تبرر حالها مهما كان، وستجد في حواسك وذهنك خير معين ومتآمر .

ستظل مدينة) البندقية (فينيسيا الإيطالية بقنواتها وجسورها وقصورها مدينة السحر والجمال وقبلة انظار العشاق، لن يقول لك احد شيئا عن رائحة السمك او المجاري او الطحالب المتعفنة .

وستظل باريس بلد النور ووطن الجن والملائكة كما وصفها طه حسين، لن يقول لك احد ان العنصرية في بلد النور زادت عن الحد، وان الطعام الفرنسي ليس لذيذا، وان حديد برج ايفل سرق من الجزائر .

ستظل ترى المكسيك والصين والهند بعيون مخرجي الافلام الامريكية، متناسيا ان ما لدى أي دولة هذه الدول من تنوع وعمق حضاري، يعادل التنوع الموجود في قارة بكاملها .

حين تحب مدينة ستفتح مغاليق الخيال لتضفي على كل معلم وكل حدث وكل نغمة او رسمة او كلمة، هالة من السحر ورداءً من الاعجاب والاستحسان، وتفسيرا ايجابيا منحازا .

حين تسير في بغداد ستفعل كل ذلك دون تأنيب ضمير .

ستغفر للعراقيين جهلهم المدقع باللهجات العربية، واعتبارهم ان أي لهجة غير عراقية هي لهجة مصرية، سترى في ذلك تمسكا بلهجتهم، وستضيف ان العراقيين يحبون لهجتهم ولا يقلدون اللبنانيين، واذا ما استخدموا كلمة

اجنبية فانهم يحولونها الى كلمة عراقية فيقومون بتأنيثها وتذكيرها وتثنيتها وجمعها واشتقاقها.

لن تزعجك الحروف التي يضيفونها الى اللغة، مثل الكاف المقلقلة المصحوبة بإشارة الفتحة، والتي تقف في منتصف الطريق تماما بين الكاف والقاف، لن تزعجك الجيم الجديدة حين ترى تحتها 3 نقط، ستحتار حين تقرأها، وتقول لا يهم فلدى الفلسطينيين نفس الحرف (CH) ولكنهم يحاولون اهماله رغبة في التمدن، ولدى المصريين مثلا جيم مكلكلة نحتار في قراءتها ايضا.

لن تزعجك النبرة المرتفعة في اصواتهم، والخشونة في حروف كلماتهم، فهم لا يخاطبون احدا الا بادئين كلامهم بواحدة من مفردتين :عيني او آغاتي، واحيانا بالاثنتين معا، ولا يناديك الاكبر منك سنا الا قائلا :وليدي، ولا يعقبون على طلبك الا بقولهم :ادلل، ولا يطلبون منك طلبا الا قائلين : رحمة على والديك، ولا يعقبون على افعالك الا بواحدة من كلمتين :أما زين او خوش، وقد يستدركون بعدها بجملة ملاحظات تفتك بهذا الزين وتنفي ذلك الخوش، ولا يودعونك الا بعبارة :في امانِ الله .

ستعتاد وقد تستحسن قيام العراقيين بقلب بعض حروف القاف الى جيم، دون سبب وجيه، ودون قاعدة، فهم يقولون الباب الشرجي، بدلا من الشرقي، وسوق الشورجة، بدلا من السوق الشرقي، وطويريج بدلا من طويريق)تصغير طريق .(

وعليك الحذر فقد يستبدلون القاف احيانا لتصير كافا، ليصعب عليك التمييز بين حيوان يدعى كلب وجزء من الجسد كان قلبا وصار كَلبا، سيفعلون ذلك ايضا مع بعض حروف الكاف، لتصبح الكبدCH بد .

لن تستطيع مجاراتهم في التمييز بين كاف المخاطب تذكيرا وتأنيثا، فهم يقولون سألتك للمذكر وسالتج للمؤنث، احترمك للمذكر واحترمج للمؤنث .

سوف تتعايش مع اصرارهم على ان العربية هي لغة) الظاد (فحرف الضاد غير موجود على السنتهم لسبب مجهول، رغم انهم يتقنونه كتابة.

ستبدأ بترديد عبارة الاستفهام الشهيرة) شاكو ماكو ؟ (بمناسبة ودون مناسبة، وستكون جاهزا للرد إن وجهت اليك، بعبارة) كلشي ماكو(، وكأن هذا الـ ماكو) الصفر، اللاشيء (يحتاج الى توصيف او قياس .

لن يزعجك تحديهم لك بمفردة جديدة وعجيبة، كلما اجتهدت وفهمت واحدة من مفرداتهم العجيبة الكثيرة، فاذا ما اعلنت معرفتك ان كلمة جام تعني زجاج، سيتحدونك قائلين :زين تعرف شنو يعني جامخانة؟ وان استطعت تفسير شتيمة مثل دماغ سِز او ادب سِز ، سيقولون :خوش، بس تعرف شنو يعني زوج او مخبل؟

وان عرفت ان بزونة هي القطة، سيصدمونك بان شاذي يعني قرد بلهجتهم، وان خاشوكة وجطل تعني ملعقة وشوكة، وان القوري هو ابريق الشاي واما القوطية فهي العلبة .

وان استطعت ارجاع كلمة الى اصلها مثل كلاوجي) نصاب، وهي مأخوذة من كلمة Clawn بالانجليزية أي مهرج (سيفاجئونك بكلمة أخرى لا مرجع ولا اصل لها مثل لوكي وتعني انسان متملق ومصلحجي .

لن تستنكر النشاز والخلط في جعل اللام الشمسية قمرية، والقمرية شمسية، ستعرف مع المدة ان لذلك دواعي سرية يتطلبها التلحين، فكل عراقي اما شاعر او ملحن او مغني، او ضارب ايقاع .

يستطيع العراقي ان يصنع من أي مخلفات كلامية مرمية على جانب الطريق بيت دارمي او ابوذية او عتابا او زهيري او نايل او موال او هوسة، ويستطيع العراقي ان يلحن أي كلام مكتوب حتى لو كان فصل تضاريس في كتاب جغرافيا، وكلهم يستطيعون الضرب على الدنبك وهو طبل اسطواني طويل ورفيع، لا يمكن النقر عليه الا بالأصابع لصغره، ولكنه يصنع صوتا مرعبا متواليا كراجمات الصواريخ، ولا يمكن للعراقي ان يسمع قصف الدنبك وان لا يرقص ولو جالسا .

لا يتوقف العراقي عن نحت الكلمات ابدا، منذ نحتوا عبارة سرور من رأى لتصير سامراء، وهم ينحتون العبارات، لقد صنعوا من ماركة الرز الشهيرة Ten Menاسما جديدا للرز هو تمن، واسموا الشاورما كَص لأنها تقص قصا، واما خبزهم اللذيذ معيني الشكل المسمى صمون، فقد اخذ اسمه من اسم صانعه الارمني سيمون .واما المن والسلوى المذكورة في القرآن فقد جعلوها اسما لحلواهم الشهيرة منّ السما .

يميل العراقيون الى اختصار الكلام لأسباب مجهولة، فهم لا يقولون :الله يمسيك بالخير، بل يكتفون بكلمتين فقط :الله بالخير، ويقولون إشگَد؟ بدلا كم السعر مثلا، وإشلونك بدلا من كيف حالك؟ .

يقول العراقيون أن أصل إشلونك هذه يعود إلي القرن السابع عشر عندما اصاب الطاعون مدينة بغداد فكان المصاب يمر بثلاثة مراحل يتلون جسمه خلالها بالأحمر ثم الاصفر فالأزرق!!

وكان الناس يسألون عن الشخص المريض ايش لونه؟ فإذا كان احمر او اصفر يدعون له بالشفاء، وإذا كان باللون الثالث الازرق يدعون له بالرحمة .

لا يتوقف العراقيون عن تأليف حكاية لكل اسم، واذا اعجبتهم الحكاية سيتمسكون بها رغم ادراكهم لعدم صحتها العلمية، ومن ذلك قولهم ان رقص الـ هجع، جاء اختصارا لعبارة" هلمّوا لشرب الجعة "حين كانوا يتنادون لشربها في اماكن اللهو والغناء والرقص، وان مدينة طويريج لم تأخذ اسمها من تصغير كلمة طريق او طريج بلهجتهم، كما هو منطقي ومتوقع، وانما من قول مهندس هندي سألوه :ما الذي تريد شركتك تنفيذه هنا في منطقة الهندية بالفرات الاوسط؟ فاجاب TWO WAY REACH.

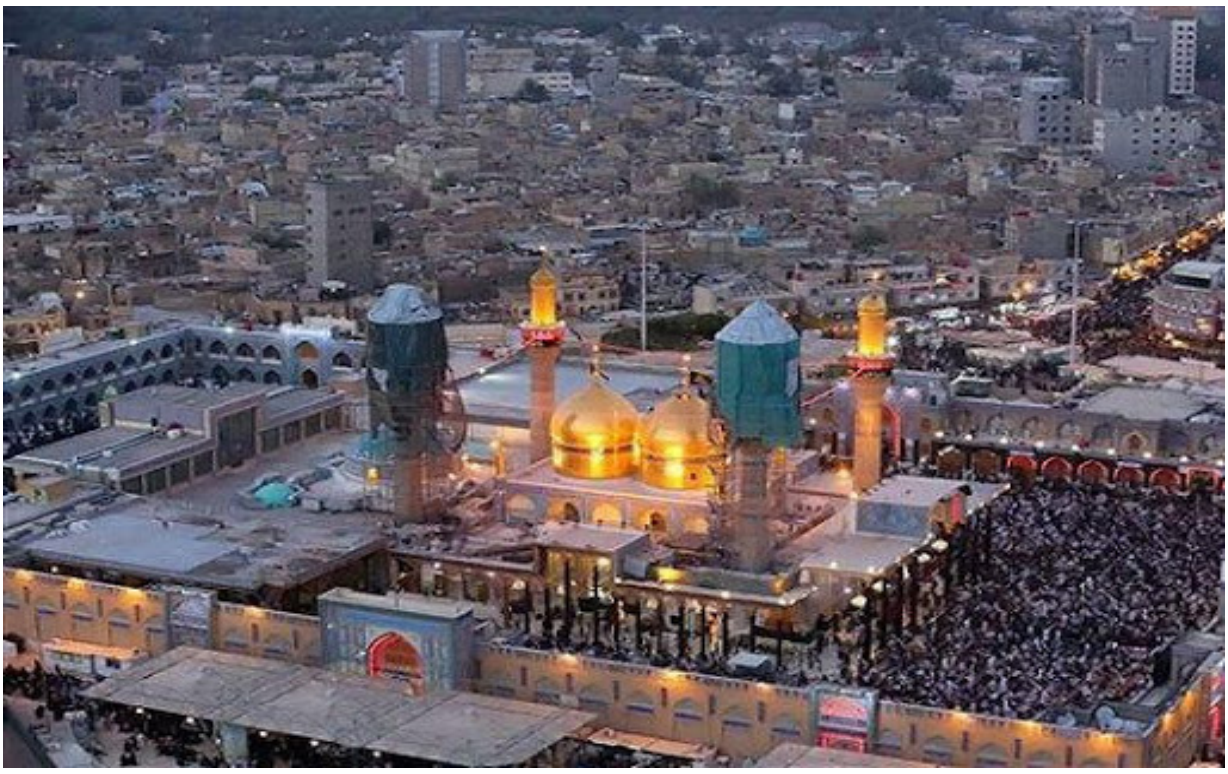

حي الكاظمية في بغداد

بغداديات 28

نوحي على العافوج يا روحي نوحي

لا يقع العراقي في الحب كغيره، انه يغرق فيه حتى شوشته، ويتقمص على الفور شخصية مجنون ليلى، فيسير هائما على وجهه، سارحا بخياله، ويتحول الى شاعر مستهام، ويبدأ على الفور بتلحين اشعاره، او رسم وجه محبوبته.

اعرف هؤلاء اعرفهم جيدا، يمضون ليلهم ونهارهم في مرسم صغير، يرسمون ويأكلون ويشربون العرق وينامون داخل المرسم الصغير، ويرفضون بيع لوحاتهم، الا عندما يعضهم الجوع، سيجلس هذا العاشق– لامحالة -في البار ليشرب خمرا ويلقي شعرا .

للعراق تاريخ حافل مع شعر واغاني الخمريات، تاريخ يبدأ بلقاء جلجامش ملك الوركاء الحزين على موت صديقه الحبيب انكيدو، مع آلهة النبيذ سيدوري، والتي تنصحه بعيش اللحظة والاستغناء عن رحلته الشاقة للبحث عن الخلود .

تاريخ طويل يتواجد الخمر في تفاصيله، حتى ان الفتح الاسلامي للعراق ايام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حفظ بقصة الفارس المقاتل ابو محجن الثقفي، والذي فر من عقوبة الحبس لإدمانه على الكحول، فشارك في القتال بشجاعة واستبسال .واوصى بعد جلده وقبيل موته منفيا:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة / تروي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنني / أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

تاريخ كحولي بامتياز ذلك الذي سطره الخلفاء العباسيون، فمن لم يكن من رواد الخمرة منهم، تساهل كثيرا مع شاربيها بل ونادمهم وقربهم اليه، حتى قال ابو نواس في حضرة الرشيد :

دَعِ المساجِدَ للـعُبَّاد تَسكُنُها / وطُفْ بِنَا حَولَ خَمَّارٍ لِيَسقِينَا

ما قَالَ رَبُّكَ وَيلٌ للذِينَ سَكِرُوا / ولكن قال وَيلٌ لِلمُصلِّينَا

سيختار العاشق العراقي البار الذي سيجلس فيه بعناية تبعا للأغاني التي يضعها صاحبه، لكل بار هوية غنائية تميزه، ومطرب واحد تتردد اغانيه على الدوام، في الغالب هو واحد من بين هؤلاء المطربين :ياس خضر ليغني" عزاز "و" تايبين "و" ليل البنفسج "و"كذاب "او سعدي الحلي ليغني "عشق اخضر "و" حبيب امك "ومجموعة من المواويل التي تبكي الصخر، وتجعله يذوب، او عبد الوهاب و ام كلثوم او نجاة الصغيرة لتغني" عيون القلب "و" القريب منك بعيد "و" أيظن؟ "!و" انا بعشق البحر "و" يا مسافر ."

العاشقون الاكثر غرقا في الحب سيختارون بارا يضع اغاني قارئ المقام الابرز يوسف عمر،" صاحي لو سكران؟ "و" فراقهم بكاني "و "يا كليبي "

يا قليبي سل وذوب سل وتفطر

وإجري الدمع ياعين من جَفني الاحمر

نوحي نوحي، نوحي على العافوج يا روحي نوحي

جم مرة اكلك جوز لا تعض خدي

خوفي الاثر ينشاف وإلا آنه ودي

نوحي نوحي نوحي على العافوج ياروحي نوحي

ريت العزيز يصير مكلد ولبسه

بين النهد والجيد سنتين أحبسه

نسبة الكحول في هذه الاغاني تتجاوز بكثير نسبته فيما يقدم من مشروبات روحية .

تقدم هذه البارات اصناف البيرة المسماة جميعا على اسماء مؤنثة كـ" فريدة " و"شهرزاد "و"كهرمانة "و لؤلؤة "و سنابل ."وتقدم ايضا وهذا الاخطر عدة انواع من العرق مثل :عرق ابو نواس بزجاجته الخضراء ذات العنق الطويل او الزحلاوي او المستكاوي او العصرية او المسيّح) بتشديد الياء .(ويبقى افضلها بحسب الخبراء عرق بعشيقة، نسبة الى تلك القرية الوادعة المسماة بعشيقة والواقعة في منطقة الموصل .

لا يتجاوز عدد سكان بعشيقة ال 70 الفا رغم انهم ينتمون ل 6 ثقافات مختلفة، يشربون كلهم ويصنعون عرق هذه البلدة المشهور بجودته، وهي جودة مستمدة من جودة مياهها وطيب رائحة ال رزنايج) نبات شبيه بالشومر واليانسون (الذي يضاف للعرق بعد تقطيره.

تستورد التمور التي يصنع منها هذا العرق من الجنوب الشيعي، لتصنعه ايادي المسيحيين والأزايدة، فيصير" حليب سباع "يُصدر فيشربه العراقيون كردا وعربا وتركمان وارمن، سنة وشيعة وصابئة وبهائيين، ومن مختلف الملل والنحل، ويبكون احبتهم شعرا مع الكأس الثالث .

وما ان يصدح احدهم بـ) أبوذية (حتى يرد عليه عاشق من طاولة اخرى ببيت يعارضه او يزاود عليه، يشتعل البار شعرا، تدور الاقداح والانتخاب،

تقترب الطاولات وتتقارب الارواح، يسري نسيم التضامن بين العشاق، ترق الاحاسيس تصبح شفافة وعطوفة .

والأبوذية عند العراقيين هي العتابا لدينا، ولكنها لا تنتهي بالف وباء، وانما بياء مشددة، يكتبها العراقيون متبوعة بحرف الهاء بدلا من الالف المقصورة، وقد جاء نحت اسمها من كلمتي) أبو (و) أذية (لأن صاحبها لا ينظمها عادة إلا إذا أصيب بحادثة مؤلمة تثير شجونه فيفصح بها عن آلامه، فيما يشاركه الآخرون اما تضامنا او شرحا لآلامهم الخاصة .ومن ذاك ما جرى بين هؤلاء :

وحق خمر الذي ينبع من شفاك

اموتن بس أرد وأحيا من شفاك

شفاي وفرحتي وعيدي من شفاك

يمن حبك دوا الكل داي بيه

*****

مثل جنح الفراشه شفاك ورقة

وربيع الشوك منك راد ورقة

كل بوسه حبيبي اعطيك ورقة

واذا حلق بحلق دفتر هديه

******

سكر كاس الخمر من ذاق نفسك

وأكو غيرك حلو، بس ماكو نفسك

اريدك يا حبيبي إتبوس نفسك

بس بداخلك تنويها اليه

******

غزل عينك رهن روحي وجرهه

وشعل نيران البقلبي وجرهه

اريد اتمسك بشفتك واجرهه

حتى انقل ذنوب البيك اليه

******

صرت قهوه لحبيبي بوسط فنجان

فن انس اللي يوصله فن جان

اذا العاقل نظرلك نظره فنجن

وانا المجنون وتقلي انظر اليه

****

مو هذه البداية وانت قبله

واليقبلك من وجنتك انت قبله

صرت صومي وصلاتي وانت قبله

وفرض سادس صرت انته عليه

******

عليك ألقيت حجة والقيامة

وياما براسك أقرأ والقيامة

تدري الحشر شنهي والقيامة

القيامة والحشر زعلك عليه

*****

وحك من سكنك بغداد والشام

بخدك لايق النكراش والشام

العشق ما يفيده البوس والشم

تفيده النومة والكعدة سويه

*****

حبيبي من الهوى نصلي ونصلاك

وواجب نعتني بشخصك ونصلاك

نص مهجتي الي ونص لاك

وثلثين العقل والباقي اليه

******

أظل لوين أسولف ضيم وأحشي

وبعدكم جنة الفردوس وحشي

أذا حمزه أنكتل بأيدين وحشي

ألف وحشي بهواكم صار اليه

******

أحبك أنت انا موش ثاني

واحبك من جديد بعمر ثاني

واذا روحي تحل بجسد ثاني

بيك انت تحل ونتعايش سويه

******

صعدنا وما وصل واحد ونالاك

وحبيبي شلون اقنعنك ونالاك

اذا مكتوب اليّ انت وانا لك

وربك ما تفرقنا المنيه

******

اكتبلي اشما ردت تكتب و ردلك

بساتين بوسط روحي ورد لك

اغيب وابتعد وازعل وارد لك

لان القلب بيدك مو بديه

السمك المسقوف في شارع ابو نواس

بغداديات 29

رمّــانك لـَــحَكَ والزيج ما ينـْزَر

لن تجد متذوقا للغناء الشرقي الا ويحب الموال، ويسكر بسماعه ويطرب له مهما طال وتكرر، وتسبب في تأخير الاغنية، يبدع المطربون العراقيون في الموال، وهو اطول لديهم مما لدى نظرائهم من المغنين العرب، ولا عجب، فحسب شهادة الفنان محمد عبد الوهاب" :معظم الأغاني العربية تدور في فلك الأغنية المصرية باستثناء الغناء العراقي "فانه يدور في فلكه الخاص المتفرد .

لن نستغرب هذا التفرد حين نعلم ان بغداد هي موطن ومنشأ الموال .وان اسمه جاء من اسم جارية هارون الرشيد) الموواليا (حين رثت وزيره جعفر البرمكي:

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس / أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضي الدرس / سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

ترددت الاشطر الاربعة على السنة الناس، وبكثرة الترديد والاضافة، تطور هذا الموال الرباعي الى خماسي حين اضيف له شطر يقول) :وغـرابُ البيـت أتـى ورفـرَف حـــواليّا(، وردد بعدهم المرددون الحزانى قائلين :يا ويليّ يا مواليّا، ومن هنا جاء الاسم :موال .

ولاثبات براعتهم بدأ الناظمون بتألف المواويل سداسية وسباعية عدد الشطرات، وتنقل الموال من بلد تبدأه بشكل مباشر الى أخريات قد يبدأنه

بالتأوه او بالأووف والآمان او الليل والعين، ولكن مقامه طاب وطال في محافظة واسط بالفرات الاوسط من العراق .

وكما تطورت بنية وتوزيعة كلمات المقام، تطورت ايضا احرف قافيته لتصير كلمات جناس، وتعددت اغراضه ولكنه ظل مجبولا بحزن تلك الجارية على الوزير جعفر .

وتطور القاء الموال من شعر يركز على جزالة المعنى والعبارة، الى إلقاء تأثيري يُعنى بفخامة التلفظ ومزاوجة الكلمات بأحاسيسها، ثم مال الى التنغيم بالصوت الجميل، وظل يتدرج الى ان صاحبته الآلات الموسيقية .

اليوم ينشد كثير من الشعراء والشواعير والشعارير قصائدهم بمصاحبة العود في مظهر متكلف لا يلقى قبولا من احد، ولكنهم يصرون عليه، عنادا ورغبة في التجديد .

لا يعرف الكثيرون الآت السنطور او الجوزة، وانواع الطبول العراقية، ولكنهم يعلمون ويميزون اثرها عند سماعها فهي تشيع في اجسادهم اما الخدر اللذيذ، او التحريك اللا ارادي الخفيف للراس او تدفعهم للصياح تكبيرا وإعظاما، او تحثهم على الرقص والتماوج مع اللحن لفا ودورانا او تمييلا وتثني .

الرقص واحد ما آيات سحر الموسيقى والغناء، سواء كان جنونيا كما في الهجع الذي يتفجر بالطبول كبيرها وصغيرها، ويصاحبه الهز العنيف للرؤوس الجميلة، وتطاير الشعور الحريرية الطويلة السوداء الفاحمة، والتماوج اللطيف للخصور المنحوتة من مرمر والارداف المكتنزة، والتقافز النشيط للسيقان رواحا ومجيئا ودورانا، او كان الرقص مجرد تثنٍ للقدود المياسة وهز مضبوط للخصر، وتمويج للرقاب المرمرية، مع ارداف

ترتعش فتضبط نقر الايقاع او تسمح للإيقاع احيانا ان يحكمها، او كان دورانا وتهويما وتحليقا في الفضاء كما يفعل الصوفيون في حلقات الذكر.

ولجعل الرقص والغناء اكثر تنوعا في الاداء وتعددا في سرعة الحركات، اضيفت للسنطور والجوزة الآت الكمان والقانون والناي واصناف مختلفة من الايقاع، فزادته سحرا .حتى امسى الموال غير مستطاب لدى كثيرين حين يقرأونه مكتوبا، ويجهلون نغمته.

ويميل المطرب العراقي المتمكن الى استعراض هذه المسيرة بشكل عملي تطبيقي في كل حفلة، فيؤدي الموال في مستهل حفلته دون موسيقى، مستعرضا قدراته الخاصة، ثم يكرره بالموسيقى مستعرضا مزيدا من القدرات، وقد ينتقل من مقام الى مقام كما يفعل يوسف عمر في بعض حفلاته .

جسمي كجفنك من هواكَ عليلُ / وقصيرُ ليلي من نواك طويل

يا قاتلي بنواظرٍ مكحولةٍ / في غِنجها ما عبَّ فيها الميل

ورد بخدِّكَ عاقني عن قطفهِ / سيفٌ بجفنكَ صارمٌ مسلولُ

وكحيلُ طرفِكَ قد نضى ليَ صارماً / ماض على العشاق وهو كليل

ليلاي أنتِ وأنت قبسُ الهوى / بك يا جميلُ وذا هواكَ جميل

ويبدع سعدي الحلي في مواويله ويبدع كذلك سعدون جابر وامل خضير وحاتم العراقي وعلي العيساوي وآخرون في هذا الفن ولكنه سيظل مرهون بناظم الغزالي رغم قصر حياته الفنية، ربما لأنه استخدم فصيح الكلام اكثر من الدارج العراقي غير المفهوم لدى كثير من العرب، ولكن هناك مواويل واغان وازنت بين الفصيح والدارج ليكون مفهوما مثل اغنية" شلونك عيني

شلونك "للمطرب الكردي العراقي صلاح عبد الغفور والذي ابدع في غنائها باللغتين.

لهذا الفنان اغنية جوبي رائعة تُرقص من لم يفكر في الرقص ابدا طيلة حياته، هي اغنية" ولج عرنة "وكلماتها موغلة جدا في العامية العراقية ولكنها تصل الارواح والقلوب، خاصة بموالها الطويل:

كون يمك، بخت عنده اللي صار يمك

عادة صارت بالشفايف ما تردد غير اسمك

يا بحر خايف عليك

ومن كثر خوفي ردت بچفوفي ألمك

كل قصص عمري أنت بيها بكل سطر يتردد إسمك

يوبا من يتردد إسمك

روحي تجفل كالغزالة الشاردة وتابعها سهمك

يا اللي هويتك وعشقت حتى التراب اللي عليه آثار قدمك

لا تقول إنساني يا اسمر، شأنسى منك؟!

هالبعد كل هالمسافة وأنت بين ضلوعي چنك

رقصة الجوبي، وتلفظ جيمها مشحطة بحرف الشين، هي دبكة عراقية اصيلة، ولكل محافظة من اقصى الشمال الى الجنوب، نسختها الخاصة من هذه الدبكة، يكثر المزمار وتزداد سرعة هز الاكتاف ويزيد الالتصاق بين الدبيكة في الشمال، ويقل في الوسط والجنوب، لصالح التباطؤ اللذيذ ولا

اقول التكاسل، لدى دبيكة الجنوب، مع ميل واضح لاستعراض طول القامة وضخامتها، وربما يزيد بعضهم خبطة قدم اضافية على عدد الخبطات المتفق عليه رغبة في التميز .

لا يقول العراقيون عن الجوبي انها دبكة او رقصة، يسمونها لعبة، لعبة الجوبي، ولا يسمون الجوابّة راقصين او دبيكة جوبي وانما لعيبة جوبي، ويتنادون عند سماع النغم :يلّا نلعب جوبي .

قالت شاعرة عراقية للشاعر عريان سيد خلف :

قلبي من صغر سنك ولع باك

وغذايَّ برشفة شفافك ولعباك

بخت عندي كشفت امرك ولعبك

وعرفت إشلون ناوي على الردية

فرد عليها الشاعر :

ترف قلبي على طاريك ولعباك

يا زين الما أنكشف ثوبك ولا عباك

طيش الناس من تلعب ولعبك

لعب مزيون خالي من الردية

هذا اللعب المزيون غير الطائش والخالي من الرداءة، هو اجمل ما يكون بمصاحبة صوت الدكتور سعد الحديثي، او رياض احمد والذي يبدع في اغنية جوبي" الدربيل "ويسبقها بموال :

ظليت أحوم على شوفك بس اروحن وأرد

أبغي وصالك وأروم من المراشف ورد

مكتوب اسمك علينا بكل فريضه وورد

من حيث باسمك تتم فروضنا والدعا

رضوان حسن الحواري بوجنتك ودعا

والورد قدم لوايح وأشتكى وإدعـــا

يقول أنت الورد جا ليش تشتم ورد

كان رياض احمد في كثير من الجلسات الفنية يؤدي مباشرة ما تجود به قريحة الشاعر عريان سيد خلف من مواويل :

واضح بعد مايحتاج تِتعذر / من نِشفَتْ الشِفـه ولونها اتغيـّر

من ثلج اللي بأيديك يصِل صِليل وداع / والحجي السِلس بلسانك اتعثرّ

من ظلمة عيونك والشمس رُمحيـنْ / جلجل ليلهن وتحزٌمَنْ بالشـَر

من رجفة جفوفك والبرد بالقيظ /.علامة قـلب صاح لصاحبه اتـنكـّر

يامثـَنـّي الخواصـِر والحمول ثـقــال / حمولَك عِفـَه وعـَلى الخصر تتبطـّر

ياحايل ثمر .. من القدم للراس / كل حايل ثمر معذور من يغتـــَرْ

ياهمزة وصل ..سبحان من ســوّاك / وخـَلـّى الظبي على النمر يتنمّــر

يلي كـِلـّك تَــرَفْ وشصار هالطغيــان؟ / !ربك فوق كل جبار يتجّبــر

يا تين العجم ..يا طعم خمرة دير / تـِسـقيـَني بكـرم وتلومني من اسكــر!!

من تِدلع غـَـنَج عندك عذر مقبول / رمـّـانك لـَـحَكَ والزيج ما ينـْزَر

قراءة هذه المواويل دون سماعها هو ضرب من التعذيب لكثيرين، خاصة من لا يعرفون اللهجة ومن لم يسمعوها مغناة في يوم من الايام، أقروا هذا الموال للشاعر عريان سيد خلف، ثم استمعوا اليه بصوت سعدون جابر محمولا على ابرع اداء لعازفي القانون والعود والايقاع:

وانا شاب ..... حيل صباي ضيعته وانا شاب (فتى)

وانا شاب ..... أقول للنايم اسم الله وانا شاب (قائم ومتيقظ)

وانا شاب ..... رحت للنار اطفيها وانا شاب (مشتعل)

صرت مثل الطبيب اللي فيه اذية

الجوبي العراقي

بغداديات 30

محمود درويش في بغداد يناجي السياب

نحن ايضا نستطيع ان نرى في الاشياء والمواقف ما هو ابعد منها، واصدق مما تبدو عليه شكلا، غير اننا لن نستطيع كما الشعراء ان نثبت ذلك بالحرف والكلمة، لنثبت صحته غير الظاهرية، ولو تمكن الناس من ذلك لصاروا جميعا شعراء مكرسين، وليس مجرد شعراء مجهولين، وحتى الشعراء المكرسون سيكونون على مستويات تتدرج بحسب مقدار انفتاح المغلق امام عيونهم، بعضهم سيرى صورة ثابتة، وبعضهم سيرى صورا متفاعلة، بعضهم سيصنع من الصور لوحة، وبعضهم سيصنع مشهدا .

سننسى قصيدة الصورة، وستربكنا قصيدة الصور، سنتذكر دوما قصيدة اللوحة، ولكننا سنظل نعيش قصيدة المشهد، فهي ستدخل كل حواسنا .

المسألة ليست نظرا بالعين، ابدا، وليست حدة إبصار، ولا طول تمعن، انها حاسة اخرى غير ما نعرف من حواس السمع والبصر واللمس والشم والتذوق .وليست كما تتوقعون الحاسة السادسة، انها مَلَكَةٌ خاصة تظهر كصفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أَعمال معيَّنة بحذق ومهارة .

اين بغداد من هذا كله، اين بغداد في هذه الحلقة الثلاثين من سلسلة بغداديات؟ إنها موجودة في صلبه فهي ام الشعراء .

"الشعر يولد في العراق، وعليك ان تكون عراقيا لتكون شاعرا "هكذا انشد محمود درويش عندما زار بغداد لأول مرة سنة1971 ، وامام حضور هائل

في مسرح الجامعة المستنصرية، تذكر شاعر فلسطين شاعر العراق بدر شاكر السياب :

أتذكّر السيّاب، يصرخ في الخليج سُدى:

عراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق..

ولا يردُّ سوى الصدى.

أتذكّر السيّاب، في هذا الفضاء السُّومريّ

تغلبت أنثى على عُقم السديم،

وأورثَتْنا السيّاب ..ان الشعر يولد في العراق،

فكن عراقياً لتصبح شاعراً يا صاحبي!

أتذكّر السيّاب ...لم يجدِ الحياة كما تخيّل

بين دجلةَ والفراتِ، فلم يفكر مثل

جلجامش بأعشاب الخلود .ولم يفكر بالقيامة

بعدها...

أتذكر السيّاب ...يأخذ عن حمورابي الشرائعَ

كي يغطّي سَوْءةً ويسير نحو ضريحه

أتذكّر السيّاب، حين أُصابُ بالحمّى وأهذى:

إخوتي كانوا يعدّون العشاء لجيش هولاكو،

ولا خَدَمٌ سواهم ...إخوتي!

أتذكر السيّاب ...لم نحلم بما لا يستحق

النَّحل من قُوت، ولم نحلم بأكثر من

يدين صغيرتين تصافحان غيابنا..

أتذكر السيّاب ...حدّادون موتَى ينهضون

من القبور ويصنعون قيودنا!

أتذكر السيّاب ...إنّ الشعر تجربة ومنفى،

توأمان ونحن لم نحلم بأكثر من حياة

كالحياة، وان نموت على طريقتنا:

عراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق

ما معنى ان يتحدث درويش في عام 1971 عن الاخوة الذين يعدون العشاء لجيش هولاكو، وعن الحدادين الموتى الذين ينهضون من القبور ليصنعوا قيودنا؟!!

من يقارن بين اشعار درويش المشتملة على عواصم ومدن العروبة تجده يتحدث عن فلسطين في هذه العواصم وليس عن العواصم بحد ذاتها، باستثناء العراق، فهو بالنسبة اليه موطن الشعر، ومصنع الشعراء.

اعجاب درويش بالسياب يتلوه اعجاب بصديقه الشاعر العراقي سعدي يوسف ويقول عنه" :إذا كان صحيحاً أنّ في داخل كلّ شاعر مجموعة شعراء ـ وأنّ النصّ هو محاورة مع نصوص أخرى، فإنّ سعدي يوسف كان أحد الشعراء الذين درّبني شعرهم على التنقيب عن الشعري في ما لا

يبدو أنه شعري، وأغراني بمقاومة الإغراء الإيقاعي الصاخب، وبالاقتصاد في البلاغة."

انحياز درويش للعراق لا يأتي من بوابة الشعر والشعراء فقط فهو ينحاز الى اساطير وتاريخ هذا البلد وناسه، ففي قصيدته ليل العراق الطويل، والمهداة الى صديقه الشاعر العراقي سعدي يوسف يصف درويش بغداد بالمدينة التي تخذل الاساطير، وتصنع التماثيل للغد، وتظل تطلب الزواج من المستحيل :

ألعراق , العراق دم لا تجففه الشمس

والشمس أرملة الرب فوق العراق . يقول

القتيل العراقي للواقفين على الجسر : عِمتم

صباحاً , فما زلت حياً . يقولون : ما زلت

ميتاً يفتش عن قبره في نواحي الهديل

ألعراق , العراق ... وليل العراق طويل

ولا يبزغ الفجر إلا لقتلى يصلون نصف صلاة

ولا يكملون السلام على أحد ... فالمغول

يجيئون من باب قصر الخليفة في كتف النهر

والنهر يجري جنوباً جنوباً , ويحمل أمواتنا

الساهرين إلى أقرباء النخيل

ألعراق , العراق مدافن مفتوحة كالمدارس

مفتوحة للجميع , من ارمني إلى التركماني
والعربي . سواسية نحن في درس علم
القيامة . لا بد من شاعر يتساءل:
بغداد : كم مرة تخذلين الأساطير ؟ كم
مرة تصنعين الثماثيل للغد ؟ كم مرة
تطلبين الزواج من المستحيل ؟
ألعراق , العراق ... هنا يقف الأنبياء هنا
عاجزين عن النطق باسم السماء . فمن
يقتل الآن من في العراق ؟ الضحايا شظايا
على الطرقات وفي الكلمات . وأسماؤهم نتف
من حروف مشوهة مثل أجسادهم . وهنا
يقف الأنبياء معاً عاجزين عن النطق باسم
السماء , وباسم القتيل
ألعراق , العراق, فمن أنت في حضرة الانتحار ؟
أنا لا أنا في العراق . ولا أنت أنت . وما
هو إلا سواه . تخلى الإله عن الحائرين
فمن نحن ؟ من نحن . لسنا سوى خبر

في القصيدة : ليل العراق طويل طويل

في عنوان وختام هذه القصيدة يستحضر درويش ما قاله المتنبي عن ليل العراق في سياق رثاء خولة الحمدانية شقيقة سيف الدولة الحمداني التي كان يحبها و لم يستطع الزواج بها :

طَوَى الجَزِيرَةَ حتى جاءَني خَبَرٌ / فَزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ

حتى إذا لم يَدَعْ لي صِدْقُهُ أَمَلاً / شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي

أرَى العرَاقَ طوِيلَ اللّيْلِ مُذ نُعِيَتْ / فكَيفَ لَيلُ فتى الفِتيانِ في حَلَبِ

وَإنْ تكنْ خُلقتْ أُنثى لقد خُلِقتْ / كَرِيمَةً غَيرَ أُنثى العَقلِ وَالحَسبِ

وَإنْ تكنْ تَغلِبُ الغَلباءُ عُنصرَهَا / فإنّ في الخَمرِ معنًى لَيسَ في العِنَبِ

فَلَيْتَ طالِعَةَ الشّمْسَينِ غَائِبَةٌ / وَلَيتَ غائِبَةَ الشّمْسَينِ لم تَغِبِ

وَلَيْتَ عَينَ التي آبَ النّهارُ بهَا / فِداء عَينِ التي زَالَتْ وَلم تَؤبِ

فَمَا تَقَلّدَ بالياقُوتِ مُشْبِهُهَا / وَلا تَقَلّدَ بالهِنْدِيّةِ القُضُبِ

وَلا ذكَرْتُ جَميلاً مِنْ صَنائِعِهَا / إلاّ بَكَيْتُ وَلا وُدٌّ بلا سَبَبِ

اذن كما يقول المتنبي لا ود بلا سبب، ومودة درويش لبغداد كانت لها اسبابها، فدرويش كما المتنبي يرى في الخمر معنى غير موجود في العنب رغم انه مصنوع منه، درويش وإن يكن قد استعار تعبير المتنبي عن ليل العراق الطويل، فانه استعاره لغرض مختلف تماما، عن رثاء حبيبة او شقيقة أمير، وليل العراق الطويل عند درويش نبوءة، فهل تنتهي بمدينة تخذل الاساطير وتبني التماثيل وتطلب الزواج من المستحيل؟ .

وكما كتب عن ليل العراق سيكتب عن شمس العراق في قصيدة فرس للغريب :

....لو كانَ جسْراً عَبَرْناهُ .لكِنَّه الدّارُ والهاوية

وللقَمَر البابِليّ على شَجَر اللَّيلِ مملكة لم تَعُدْ

لنا، مُنْذُ عادَ التَّتارُ على خَيْلنِا .والتتَّارُ الجُدُدْ

يَجُرُّونَ أسْماءَنا خَلْفَهُم في شعابِ الجِبال، ويَنْسَوْنَنا

ويَنْسَوْنَ فينا نَخيلاً ونَهْرَيْنِ :يَنْسَوْنَ فينا العِراقْ.....

....لِي قَمَرٌ الرَّصافَةِ . لي سَمَكٌ في الفُراتِ ودجْلَةْ

ولي قارِئُ في الجَنُوبِ ولي حَجَرُ الشَّمْسِ في نَيْنَوى

وَنَيْروزُ لي في ضَفائِرِ كُرْديّةٍ في شَمالِ الشَّجَنْ

ولي وَرْدَةٌ في حَدائقِ بابلَ لي شاعرٌ في بُوَيْب

ولي جُثَّتي تَحْتَ شَمْسِ العِراق

سرني جدا ان الفنانة العراقية فريدة غنت هذه القصيدة في برلين امام درويش فاعجب بها جدا وقال" :لم اكن اتخيل ان تلحن هذه القصيدة ."

سيزور درويش بغداد مرة اخرى بعد طول تردد، ليشارك من جديد في مهرجان المربد الشعري، ويلقي قصيدة من فضة الموت الذي لا موت فيه ولا درج ، ويتحدث عن" الشعار على الجدار "وسيطلق وصف" قمر بغداد الليموني "زيارة تفتح شهية الشعراء لإطلاق النار عليه .

عاتبه اصدقائه من الشعراء العراقيين، مستنكرين مشاركته في مهرجان يقيمه النظام الذي يقمعهم، فقال لهم :انا ابن الملاجئ فدعوني اتغزل بالقمر حتى لو في بغداد.

ردوا عليه :ونحن اللاجئين من العراق وظلم نظامه وقد لجأنا الى اللاجئين . وكانوا وقتها فعلا قد التجأوا الى المقاومة الفلسطينية في بيروت وعملوا في تنظيماتها ومكاتبها .

بعد ايام من وفاة درويش في آب من عام 2008 كشف صديقة الشاعر العراقي سعدي يوسف عن حيثيات احدى زيارات درويش لبغداد، وكتب ما يلي نصه :

"لستُ أعرف سبباً لـ نرفزة " كتّابٍ عراقيين معيّنين ، من وصفِ محمود درويش قمرَ بغداد بالليموني.

قمرُ بغداد ليمونيّ ، حقاً ، لكن يبدو أن العراقيين لا ينظرون إلى السماء جيداً . ألم يقُل الجواهريّ العظيم:

لم يعرفوا لونَ السماءِ لفرْطِ ما انحنت الرقابُ

ولفرْطِ ما دِيسَتْ رؤوسُهم كما دِيسَ الترابُ

ما علينا ..... أكان ذلك في أواخر الثمانينيات؟ 1989 مثلاً ؟ آنذاك كنت مقيماً ، على قلقٍ ، بباريس.

في أحد الأيام تلقّيتُ مكالمةً هاتفيةً من محمود.

قال : يجب أن أراك اليوم.

قلت : ليكُنْ!

قال محمود : عدتُ اليوم من النرويج . من قريةٍ قصيّةٍ بالنرويج . أريد رأيك في أمرٍ مُـلِحٍّ.

قلت : أمرك!

قال : يا سعدي ، اسمعْني... تلقّيتُ دعوةً لحضور المربدِ ، ولجائزةٍ تُسَلَّمُ إليّ إنْ وقّعتُ مسبقاً على قبولها . رفضتُ الأمرَينِ كليهما . ورغبةً مني في تجنُّب الأخذ والردّ ، سافرتُ إلى النرويج ، وأقمتُ في قريةٍ قصيّة . لكني في منتصف الليل تلقّيتُ مكالمةً هاتفيةً من أبو عمّار ، نصُّها : هل تريد أن تخرب بيتنا يا محمود ؟ يجب أن تذهب إلى بغداد ..... ! الآن أريد رأيك ! إنْ قلتَ لي : لاتذهبْ ، فلن أذهب!

ما كنتُ بحاجةٍ إلى أن أُنعمَ النظرَ.

قلت له : أنت في هذا الموقف ، لستَ محمود درويش . أنت عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ممثلٌ رسميٌّ لشعبك وقضيّته . أنت تضحّي من أجل قضية شعبك . ليس بمقدوري ، ولا من حقي أن أقول لك لا تذهبْ. لكني سأظل أتذكّر ، بكل اعتزاز ، أنك استشرتَني ، مبدياً استعدادك للأخذ بما أرى ."!

الحقيقة انني بحثت طويلا عن النص الذي اشتمل على تشبيه درويش لقمر بغداد بالليمون فلم اجده، لا شعرا ولا نثرا، ولكنني وجدت ان اثنين من شعراء العراق الاول هو عبد الوهاب البياتي والثاني يحيى علوان قد استعملا هذا التشبيه بعد درويش .

ووجدت دراسة علمية تفيد بان القمر فعلا ليموني، ولكن ليس في اللون وانما في الشكل، وليس كما يبدو لنا مثالي الاستدارة والتكوير، فهو مسطح من الاعلى والاسفل مع قليل من الانتفاخ .

هذه المصادفة تذكرني بقصيدة درويش اثر الفراشة، والتي كانت نظرية فيزيائية تقول ان فراشة تضرب بجناحيها في البرازيل قد تسبب اعصارا في كاليفورنيا بعد سنوات .وقمر درويش فوق الرصافة أيا كان لونه، هو ذات القمر الذي اضاء جانب الكرخ، فتركه ابن زريق وديعة لدى رب العالمين قبل ان يغادر بغداده وقمره متجها الى الاندلس طلبا لسعة الرزق :

لا تعذليه فإن العذل يولعه / قد قلتِ حقاً ولكن ليس يسمعه

يكفيه من لوعة التشتيت أن له / من النوى كل يوم ما يروعه

يأبى المطالب إلا أن تكلفه / للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه

استودع الله في بغداد لي قمراً» / بالكرخ «من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني / صفو الحياة وأني لا أودعه

وكم تَشفَّع بي ألا أفارقه / وللضرورات حال لا تُشفعِّه

مات ابن زريق وحيدا في الاندلس، بعيدا عن بغداده وقمره، فشفع له موته، ولم تشفع له الضرورات، وكذلك لم تشفع الضرورات لمحمود درويش، فظل معارضوه وخاصة من اليساريين القابعين في البلاط الدمشقي يكتبون ضده في مجلة الهدف لسان حال الجبهة الشعبية، فنشر على غلاف اليوم السابع رسالة موجهة الى جورج حبش، جاء فيها :

"كان علي ان اموت كبدر شاكر السياب في مستشفى كويتي ليغفر لي بعض اصدقائي العراقيين انني حي، ....الشاعر ليس ملاكا وليس ملكية لأحد، ..... لست مثاليا لأستعير سؤالكم :لماذا تقيمون في دمشق طالما ان نظامها يبعدنا الى اقاصي الصحراء، .....يدخل السياسي في الثقافي متى يشاء، ويدخل الثقافي في السياسي متى يشاء، ويختلطان فيصيران لا هذا ولا ذاك، ..... ذلك ان المثقف ما زال عاجزا عن تحقيق استقلاله النسبي عن مؤسسات السلطة وعن ارهاب المعارضة، .....انا لا اتهرب من اتخاذ موقف من الحرب العراقية الايرانية بقدر ما يتهرب من ذلك زملائي العراقيين وينقسمون حوله، ان هذه الحرب تدفع الشعبين الى الكارثة وان مهمة القوى الحريصة هي العمل على وقفها."....

الجواهري بين درويش والقاسم في صوفيا 1969

بغداديات31

فراگهم بچاني

لكل عراقي مقهاه المميز، ولبعضهم اثنان، فالمقهى هو البيت الثاني لأي عراقي، خاصة اذا كان متقاعدا او متعطلا عن العمل او صاحب عمل شخصي حر، او مفلس مدين لأشخاص يطالبونه بالسداد، او مبدع في فن من فنون الكتابة، الشعر، الغناء، التلحين، الرسم، النحت، وخلافه .

لدى هؤلاء مقهى للصباح وآخر للمساء، الصباحي لمطالعة جريدة الثورة او الجمهورية، رغم انهما لا تختلفان عن بعضهما، وان امكن مجلة الف باء، التي سيسرقها احدهم، او في احسن الاحوال مجلة العربي التي كانت تصدر من الكويت، وهذه طبعا ستسرق فورا .

جلسات المقهى صباحا تكون هادئة والنقاش فيها رسمي ومتحفظ يتناول السياسة والاقتصاد، ارتفاع الاسعار خصوصا، هبوط او صعود سعر الدولار، رغم ان معظم الجالسين لا يملكون الكثير من الدولارات، وتيرة الحديث نقدا جارحا، او متحفظا، او تبريرا او حتى مديح، ليست مرتبطة بالأشخاص، بل بتواجد المخبر الامني المكلف بمراقبة رواد هذا المقهى، وكتابة التقارير عنهم .

طال الزمن ام قصر سيشعر المخبر بالملل، وعندها سيميل الى احد من يراقبهم ليدعوه الى لعبة طاولة او دومينو، سيلبي المُراقَبُ الدعوة لأنه يشعر بالملل ايضا، ولأنه يريد هزيمة هذا المخبر، المهم ان تكون الساعة قد تجاوزت الثانية او الثالثة بعد الظهر، فلعب الطاولة او الدومينو قبل هذه الساعة مكروه، وكذلك لعبها في الليل مكروه فالليل مخصص لاحاديث ونقاشات من نوع آخر، ولألعاب الورق، حين تكون مسموحة .

في المقهى المسائي الهمة انشط، والتحفظ أقل، والرقابة شبه منعدمة، والقريحة حافلة بأشياء كثيرة يجب ان تقال وان تناقش، اذا حضرت الجلستين ستشعر ان جلسة مقهى الصباح لم تكن الا جلسة استطلاعية تمهد لجلسة مقهى المساء، النقاش هنا من العيار الثقيل، ينحرف الى التحليل العميق، والامثلة التاريخية، ومبادئ الثورات، واصول السياسات، قبل ان يصل الى الثقافة والفن والشعر والغناء.

على مقاعد هذه المقاهي جلس كبار الادباء والكتاب والشعراء يحملون كتابا او دفترا وقلما ودونوا ملاحظات صارت روايات تُمثَل، اواشعارا تغنى، ولربما اختلط الحابل بالنابل وقدحت شرارة ابداع احدهم عند سماعه كلمة او ملاحظته لموقف، فانشد بيتا او مقطعا فصحح آخر كلمة او اضاف بيتا او مقطع، وقام ثالث بفعل امر مشابه، سيصير لدينا لازمة تتردد ومقاطع تتوالى وتتنقح وتنتفخ، وسيكون لدينا اغنية نتوارثها، بعد أن ضاع نسبها وتوزع على الحضور جميعا .

قد لا تكون كلماتها متسقة فهي لم تأت من ذات المنبع، وقد تحمل طرافة لحظية، لا تصل الينا لأننا لم نكن من الحاضرين، وقد تكون مجرد كلمات عادية مُنَغمة، الا ان الروح التي سادتها عندما قيلت لأول مرة، وما صاحبها من جو بهيج، او مشاعر فرح او حزن، وما تخللها من الفة واتفاق وراحة بال، سيصلنا لا محالة، سيصلنا محمولا على حروفها وكلماتها وهي تتماوج جذلى بنغمات وطبقات وبحة صوت مغنيها .

اسمعت احد اصدقائي اغنية" خدري الشاي "بصوت الفنانة فريدة، والاغنية عبارة عن حوارية بين صديقتين، تنشغل المضيفة عن تقديم الشاي لصديقتها الزائرة بسبب تكدر مزاجها وهرب محبوبها عنها وذهابه الى البصرة، وتستذكر جلساتها معه لشرب الشاي فتبكي وتحرم عمل وشرب الشاي والهناء بشربه وتهدد بكسر الابريق :

خدري الشاي خدري .. دادا لمن أخدره؟ ... !روحي لمن اخدره ؟...!

شمالج يا بعد الروح؟ !شمالج يا بعد الروح؟ !دومك مكدرة

راح الي يشرب الشاي ... سكن ديرة البصرة ... نكر والله العشرة

****

شما أحلى من أصب وأنطيه ....وأقوله أشرب أتهنى..

دوخة باستكانة يمه ... أطرب على الرنه

لو عاينت الخدود ... وأطلب بوسة منه ..

يقرب ويقول تفضل وخذ عشرة

*****

ولفي راح يا ناس ... فر وشمر عني

عيني باردة عليه ....والواهس قتلني..

عقبه ما اشرب الشاي لا والله ابتهني

والزم فاسة القنجول والقوري أكسره

اعجب صديقي بالأغنية جدا ولكنه استدرك قائلا، ولكن الموضوع لا يستأهل كل هذا!!!، فكل ما في الامر كاس شاي، ضحكت كثيرا وانا احاول الموازنة بين مضمون ما تحمله كلمات الاغنية وكيف تصلنا محمولة بصوت فريدة وعلى انغام مقام وتخت موسيقي شرقي .

الحقيقة ان مضمون كلمات بعض الاغاني العراقية الشهيرة بسيط الى درجة السذاجة، والمواقف التي حصلت واسست لها لم تكن مفاصل مهمة او نادرة، ولكنها حصلت في اجواء الود على المقاهي فتأسست هناك نغماتها حاملة جوها الخاص المفعم بالسرور والانبساط .

كان الاصدقاء وكلهم من المثقفين جالسين لشرب الشاي فقال احدهم انه بدأ بزراعة نبات بزر نكوش) مردكوش (في حديقته، فذكروه بانه كبير في العمر ويحتاج فقط الى زراعة الحناء لصبغ الشيب في شعر راسه ولحيته، وسرعان ما تحول الموقف البسيط الى اغنية تراثية خالدة، يؤديها بمنتهى الاتقان قارئ المقام يوسف عمر فيسحرك بجودة الاداء وروعة الموسيقى، ثم تصفن في الكلمات فتراها بسيطة وفي الموقف فتراه ساذجا، ولكنك تظل مسحورا .

يا الزارع البزر نكوش ازرع لنا حنه

وجمالنه غربن وا ويلي للشام وما جنه

ومحملات بذهب وا ويلي فوق الذهب حنه

دك الحديد على الحديد وا ويلي وإسمع له رنه رنه

يا محبوبي جرحتني داويني

يا الزارع البزر نكوش ازرع لنا حنه

جرحك يا قلب خنجر ولا تسكينة

يا الزارع البزر نكوش ازرع لنا حنه

غناها يوسف عمر مسبوقة بموال طويل من شعر بديع منسوب لعدة شعراء من العصر العباسي :

والله ما شرقت شمس و لا غربت / إلا وذكرك مقرون بأنفاسي

ولا خلوت إلى قومٍ أحدّثهم / إلا و أنت حديثي بين جلاسي

و ما هممت لشرب الماء من ظمأ / إلا رأيت خيالا منك في كاسي

أني عشقت وما بالعشق من بأسٍ / ما مر مثل الهوى، شيء على راسي

مالي وللناس كم يَلحَونني سفها / ديني لنفسي ودين الناس للناس

ما للغداة اذا ما زرت مالكتي؟ / !كأن وجوههم تُطلى بأنفاسي

الله يعلم ما تركي زيارتكم / إلا مخافةَ أعدائي وحراسي

ولو قدرنا على الاتيان جئتُكمُ / سعيا على الوجه أو مشيا على الراسِ

وقد قرأت كتابا من صحائفكم / لا يرحمُ الله إلا راحمُ الناس

في جلسة اخرى وعلى مقهى آخر هو مقهى عزاوي، لاحظ الاصدقاء غياب عامل المقهى سلمان صاحب الوجه البشوش، وتركه للعمل بعد خلاف مع معلمه، فبدأوا في ذكر مناقبه واستذكار بشاشته، وسرعان ما تحول حديثهم الى اغنية بديعة يؤديها قارئ المقام حسين الاعظمي فترسخ بكلماتها ولحنها في الذهن الى الابد،

فراگهم بچاني / چالماطليه بالضلع

بيك اشترك دلالي / يگلون حبي زعلان

آه يا گهوتك عزاوي / بيها المدلل زعلان

سلم عليه من بعيد / و حواجبه هلال العيد

ممنون گلي شما تريد / سواها بيه سلمان

لأركض وراهم حافي / و عبيتي على چتافي

بوسه من الاسمر كافي / سواها بيه سلمان

بيك اشترك دلالي / يگلون حبي زعلان

آه يا گهوتك عزاوي / بيها المدلل زعلان

كما ترسخ مع الاغنية تلك المقدمة الموسيقية البديعة على آلتي السنطور والجوزة، وموال من اول قصيدة حوارية في الادب العربي، تلك التي كتبها وضاح اليمن قبل ان يتغزل بزوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك فيأمر بقتله :

قالت :ألا لا تلجن دارنــا / إن أبانا رجل غائر

فقلتُ :إني طالب غرة منه / وسيفي صارم باتر

قالت :فان البحر ما بيننا / قلت :اني سابح ماهر

قالت :فان القصر من دوننا / قلت :فاني فوقه ظاهر

قالت :فإن الله من فوقنــا / قلتُ :فربي راحمٌ غافر

قالت :لقد أعييتنــا حجة / فأتِ اذا ما هجع السامر

وأسقط علينا كسقوط الندى / ليلة لا ناه ولا زاجــر

المقهى للفنان العراقي المغترب فيصل لعيبي

بغداديات 32

الرصافي ينعى الفتى المثلي اليتيم

لم اكن اريد التوسع اكثر في موضوع مقاهي بغداد، لكن تعليقات الاصدقاء عن مقهى ام كلثوم تفتح الشهية للحديث عن هذا المقهى وعن غيره من المقاهي المتخصصة بكل فن ومهنة او هواية .

هذا المقهى كان مخصصا لسماع اغاني ام كلثوم فقط، غرامفون ببوق نحاسي كبير يتموضع بكل تقدير في الزاوية وفوقه رفوف الاسطوانات، التي يتعامل معها النادل بكل احترام، فيلبي طلبات الزبائن، ولكن بالدور.

هكذا كان الامر قبل ان تظهر المسجلات، ومن بعدها الانترنت، صاحب المقهى عبد المعين الموصلاوي كان مولعا بأم كلثوم، فوضع صورها على كل جدران المقهى، ولم يفكر ولو دقائق عند سماعه خبر وفاتها، لقد طار فورا الى القاهرة للمشاركة في تشييعها .وعاد سريعا فأقام بيت العزاء بالراحلة العظيمة في مقهاها لثلاثة ايام، فنانون كثر كانوا يترددون على هذا المقهى الواقع في حي الميدان .ما زال هذا المقهى قائما ولكن اسمه اصبح الآن ملتقى الاسطورة .

وغير بعيد عن الميدان كان هناك مقهى السنك، الواقع في جانب الرصافة وعلى حافة الجسر الذي يحمل ذات الاسم اليوم، لقد تخصص هذا المقهى في استضافة قراء المقام العراقي فقط، وعلى رأسهم رشيد القندرجي .

مقاعد هذا المقهى ومقاعد غالبية المقاهي التراثية لم تكن كراسي، لقد كانت ولا زالت في غالبها ارائك خشبية طويلة، مفروشة بـ دوشك من الاسفنج،

ومزودة بالمساند، ويطيب للبعض ان يجلس متكئا، او متربعا عليها، فيما هو يستمع بطرب ويستمتع بشرب الشاي .

على واحد من هذه المقاهي في شارع الرشيد جلست ذات يوم من ايام الحصار الشديد، مر موكب جنازي طويل، عدد كبير من السيارات وكل منها تحمل نعشا صغيرا ملفوفا بعلم العراق، كعادتهم كلما مرت جنازة من امامهم وقف العراقيون جميعا ووقفت معهم الى ان مرت آخر سيارة، كانت الجثامين لاطفال ماتوا بسبب الحصار واراد العراق ان يجعل من تشييعها تظاهرة اعلامية، تركت شايي وتركت المقهى وتركت الشارع، ثم تركت البلد وسافرت .

وخلافا لما هو متوقع فعدد المقاهي المتخصصة بالغناء كان كبيرا، وخلافا لما هو متوقع فالغناء لم يشمل المطربين الذكور فقط، بل امتد الى المطربات ايضا، وتجاوز الغناء والموسيقى ليشمل الرقص ايضا، فالكتب تتحدث عن مقهى سبع، والذي كان يسمح للفقراء بالجلوس مجانا، وكيف انه استقدم راقصة يهودية تدعى) رحلو (ولقبها الفني جرادة و مغنية تدعى شفيقة الحلبية عام .1908

ارخ لذلك الشاعر العراقي الساخر الملا عبود الكرخي فقال :

هذي"رحلو"رحلة الصيف وشتاء

ما اظن يوجد مثلها بالنساء

*****

ب"كهوة سبع "انظر الى الحورية

شفيقة بالأصل يمكن" حلبية"

بدأت بقية المقاهي بعد ذلك بتقليد مقهى سبع واستقدام المغنيات والراقصات من سوريا ومصر ولبنان .

وأشتهر مقهى سبع عام 1907 بحادثة قتل فتى سوري يتيم يدعى نعيم من مدينة حلب، وكان بحسب الوصف غاية في الحسن والجمال، وقد خدعه واستغل فقره ويتمه شخص يهودي يدعى سليم، احضره من الشام الى بغداد للعمل كراقص يتشبه بالنساء، وكان الشاعر ابراهيم منيب الباجه جي قد راود هذا الفتى عن نفسه ليلة بعد اخرى فأبى ورفض، فما كان من الباجه جي الا ان جاء ذات ليلة سكرانا واطلق النار على الفتى الحلبي الجميل، فمات غريبا في مستشفى الغرباء.

سجل هذه الواقعة شعرا الشاعر الكبير معروف الرصافي في قصيدة بعنوان "اليتيم المخدوع "

قضى والليلُ مُعتكرٌ بهيمُ ولا أهل لديه ولا حميم

قضى في غير موطنه قتيلًا تمجُّ دمَ الحياة به الكلوم

قضى من غير باكيةٍ وباكٍ ومن يبكي إذا قتل اليتيم؟

قضى غَضَّ الشبيبة وهو عفٌّ مُطهَّرة مآزره كريم

على حينَ الربابة في نواحٍ يساجلها به العود الرخيم

فجاء الموتُ ملتفعًا بخزْيٍ وملءُ إهابه سَفَهٌ ولومُ

فأطلق من مسدَّسه رصاصًا به في الرَّمْي تنخرق الجسوم

فخرَّ إلى الجبين به» نعيمٌ «كما انقضَّت من الشُّهْب الرجوم

فبانَ مودِّعًا بعد ارتثاثٍ حياةً لا تُناط بها الوصوم

لئن لم تبكِ من أسف عليه سفاهتنا فقد بكت الحُلوم

ولو دَرَتِ النجوم له مصابًا بكتْه على ترفعها النجوم

عسى الشهباءُ تثأره فتُبدي إلى الزوراءِ ما يبدي الخصيم

ولم يقتله» إبراهيم «فيما أرى بل إن قاتله» سَليم«

أليس» سليمٌ «الملعون أغوى» نعيمًا «فهو شيطان رجيم

وأخرجه من الشهباء غِرًّا يتيمًا ما له أبدًا زعيم

وجاء به إلى بغداد حتى تخرَّمه بها قتل أليم

سأبكيه ولم أعبأ بلاحٍ وأندبُه وإن سَخط العُمومُ

تم اطلاق سراح القاتل، وهو ما ستنكره في قصيدة شعبية الملا عبود الكرخي :

يا دكة الما تنحجي / سواها ابن الباججي

خلو عليه التوبجي / وتضحك عليه الصبيان

اللطم لنعيم وجب / والدمع ع الخد انسجب

كظه ويانه بس رجب / وصارت كتلته بشعبان

ولا شك بان استقدام فنانات عربيات قد اضر بازدهار المقاهي الاخرى النمطية التي كانت تواظب على استقبال الحكواتي) القصخون (ليقص على رواد المقهى ليلة بعد ليلة قصص الزير سالم ابو زيد الهلالي .وكذلك بالمقاهي الاخرى التي تقدم عروض خيال الظل) قرة قوز .(

في هذه المقاهي جميعا ستقام في ليالي شهر رمضان منافسات لعبة المحيبس، وسيتردد بين تسجيل النقطة والاخرى صوت مطرب الجالغي البغدادي، وسيردد من بعده الجالسون فيما يتناولون اصناف الحلويات البغدادية مثل زنود الست والزلابية والبقلاوة ومن السما وغيرها .

بالنسبة للكثير من الرجال في بغداد المقهى جزء من الحياة الاجتماعية، وواحد من ابرز وامتع المهام غير المكتوبة على جدول اعمالهم اليومي، ولذلك كان لا بد من فرز المقاهي حسب التخصص المهني والهوايات، فهناك مقهى البلابل وقد تخصص في استقبال محبي الطيور) المطيرجية(، وهناك مقاهي للكتاب والادباء والشعراء، وهناك مقاهي للتجار تتحدد في جلساتها اسعار السلع، واخرى لمقاولي البناء، وغيرها للمتقاعدين، او مشجعي هذا الفريق الرياضي او عشاق هذه الرياضة او تلك .

وكان للمكفوفين والخرس مقهى خاص بهم، يلعبون فيه وبمنتهى الصخب والتنافس لعبة الدومينو، التي لم اشاهد احدا يلعبها في المقهى الا في العراق، فلطالما كانت الكوتشينة ممنوعة هناك.

مقاهي بغداد تنقسم وتصنف تبعا لمقاييس جغرافية ومهنية، فمثلا هناك مقهى المحلة) الحي (ومقهاهى العابرين أي الغرباء المسافرين او المارين او المقيمين لفترة محدودة، ومقاهي المثقفين والادباء والسياسيين والفنانين، ومقاهي الرياضيين، واخيرا مقاهي) المسطر (والتي يتسطر على كراسيها العمال من مختلف التخصصات في انتظار من سيستأجر قوة عملهم في التحميل او البناء او الحفر او التنظيف .

امر آخر يحدث في بعض هذه المقاهي ولم اسمع به الا في روايات الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، هو مسابقات صراع الديكة التي كانت

تجريها بعض المقاهي البغدادية، وسط مراهنات مرتفعة القيمة وحماسية جدا، فيما يتجمع في مقهى آخر، المدمنون على الاشتراك في رهانات سباق الخيل، وفي مقهى يليه هناك حلبة لأجراء مصارعة الكباش، وفي مقهى آخر هناك حلبة مصارعة حقيقية ومباريات حقيقية تنظم تحت اسم فارسي هو (الروز خانة (او) الزور خانة) أي بيت القوة .

حصل في تاريخ بغداد ان تقابل على جانبي شارع الملك غازي، مقهى عنجر حيث تناول رئيس الوزراء نوري السعيد وجبة الافطار، فصار رواد المقهى من الاتجاه القومي المناهض للشيوعية، مع مقهى 14 تموز الذي تزدان جدرانه بصور ماركس ولينين ويؤيد رواده الزعيم عبد الكريم قاسم .

كثيرة هي مقاهي بغداد، كثيرة منذ القدم، فمع بدايات القرن الماضي كان عددها نحو 300 مقهى، وكانت ولا زالت متنوعة وشديدة التميز عن بعضها البعض، غير ان اغربها سيكون هو مقهى ابراهيم عرب، المتوفى عام1979 ، صاحب هذا المقهى لم يستعن لا بمطربين ولا راقصات ولا قراء مقام او حكواتية، من اجل اجتذاب الزبائن .

لقد كان شخصا اجتماعيا جدا، تلتف حوله جموع الزبائن لسماع قصصه الغريبة المدهشة، والتي يصوغها على نحو يحتشد بالمبالغات والاكاذيب البيضاء التي كان يدهش الحاضرين بها، لقد كان باختصار وحسب التعبير الدارج لدى البغداديين عن الكذب) يطير فيالة.(

وكان على الجميع تصديقه وإلا فان اولاده واشياعه سيكونون جاهزين لضرب من لا يصدق، وسيكون على المضروب ان يطلب وساطة بعض كبار رواد المقهى لطلب المصالحة.

انه لمن سوء الحظ ان تختفي هذه المقاهي، وان يزول تمايز من بقي منها، وان يصير التميز علامة تجارية محكومة بلون وشعار، انه سوء الحظ الذي يجعلك تجد كل المقاهي من رام الله الى الصين مرورا بتونس وروما متشابهة، بلون الكرسي والطاولة وملابس الندلاء واللوحات على الجدران، وبالشعار على كاسات الكرتون المقوى وغطاء البلاستيك المفتوح، انه سوء الحظ حين تتشابه المدن الى حد الملل، ويصير الطعم موحدا ومحفوظا في كيس مربوط بخيط ينتهي بشعار .

المقهى للفنانة ناديا اوسي

بغداديات 33

المومس العمياء والوزيرة العربية الاولى

اعتقد ان المرأة العراقية نالت بعضا من حقوقها قبل غيرها من النساء في بقية اقطار الوطن العربي، يمكن ملاحظة ذلك في ظهور الفنانات العراقيات، وفي احتلال النساء لمناصب حكومية، حيث كانت نزيهة الدليمي مثلا اول سيدة عربية تتولى منصبا وزاريا، ويمكن ملاحظة ذلك من مجمل المشاركات النسوية في الحقول الاكاديمية، ومن طبيعة القوانين، والنقاشات التحررية التي كانت تدور في تلك الايام.

عدد كبير من الفنانات والمطربات العراقيات اشتهرن خلال الربعين الاول والثاني من القرن الماضي، فالمطربة منيرة الهوزوز اعتزلت الغناء في خمسينيات القرن الماضي بعد نجومية كبيرة استمرت 30 سنة، وجعلت من لقبها هوزوز ماركة تجارية لكثير من المنتجات.

سمعها الشاعر الكبير معروف الرصافي تغني من علة البحشاي زايد عذابي ثم اغنية، تجفى وتصل لعداي فاغنية إن شكوت الهوى فلست منا، ثم قصيدة ابو النواس :

نَضَت عَنها القَميصَ لِصَبِّ ماءِ / فَوَرَّدَ وَجهَها فُرطُ الحَياء

وَقابَلَتِ النَسيمَ وَقَد تَعَرَّت / بِمُعتَدِلٍ أَرَقَّ مِنَ الهَواءِ

فَلَمّا أَن قَضَت وَطَراً وَهَمَّت / عَلى عَجَلٍ إِلى أَخذِ الرِداءِ

رَأَت شَخصَ الرَقيبِ عَلى التَداني / فَأَسبَلَتِ الظَلامَ عَلى الضِياءِ

فَغابَ الصُبحُ مِنها تَحتَ لَيلٍ / وَظَلَّ الماءُ يَقطِرُ فَوقَ ماءِ

فَسُبحانَ الإِلَهِ وَقَد بَراها / كَأَحسَنِ ما يَكونَ مِنَ النِساءِ

فقال الرصافي فيها:

هل سمعتم) منيرة (وقد افاضت من بديع الغناء في كل فن

خلق الله صوتها العذب كيما يعرف الناس كيف حسن التغني

وبراها ممشوقة القد كيما يعرف الناس كيف حسن التثني

ولم تكن منيرة وحيدة في مضمار الغناء والرقص فقد سبقتها وعاصرتها كثيرات من أمثال جليلة أم سامي، وبدرية أنور، وسليمة مراد، التي كانت اول من حصل على لقب باشا من النساء، وكان يسمح لها دونا عن غيرها من النساء والرجال بوضع علم العراق على سيارتها، كما يفعل الوزراء والامراء، وخزنة إبراهيم، وغيرهن مثل زكية جورج التي جاءت من حلب الى بغداد وتشتهر، وكانت اول مطربة غنت في اذاعة بغداد التي انشأت عام 1936 بعد 3 اشهر على افتتاح دار الاذاعة الفلسطينية .

خلد الشاعر كمال نصرت المطربة زكية جورج في العديد من القصائد، الا انها رفضت حبه وعادت الى مدينة حلب، فأحب من بعدها المطربة عفيفة اسكندر، ولكنها رفضته ايضا وغادرت بغداد للعمل في القاهرة،

ومن المطربات اللواتي ظهرن مبكرا واشتهرن رغم البيئة الذكورية السائدة بقسوة في تلك الايام في مجمل الاقطار العربية، المطربة صديقة الملاية صاحبة الكثير من الاغاني التراثية مثل الأفندي و صغيرون ويا صياد السمك وفراقهم بكاني وعلى جسر المسيب وغيرها، وكذلك زهور حسين

التي توفيت بعد عمر فني قصير ومن اغانيها المشهورة :غريبة من بعد عينج يايمة، ويم أعيون حراكه.

وفي موازاة الشهيرات في عالم الغناء هناك الشهيرات في عالم الادب والشعر .

اهتمام الشعراء بالمرأة لم يتوقف عند مسائل الغزل والجمال، ولم يكن وقفا على الفنانات والراقصات فقط، فالمرأة وحقوقها وخاصة المرأة العاملة كانت موضوعا لقصيدة شعبية هامة كتبها الملا عبود الكرخي عام 1924 وجاءت في 150 بيتا وروى فيها قصة فتاة تجبر على الزواج المبكر من رجل يكبرها في العمر كثيرا، وتعمل في مجرشة يظلم صاحبها العاملات لديه .

قصيدة مهمة غناها الكثير من المطربين العراقيين حتى صارت على كل لسان وتحولت بعض ابياتها الى مأثورات شعبية .

العادات والتقاليد التي تظلم المرأة وتحد من دورها وتجعلها تابعة، كانت ايضا محورا للشعر والتغني، وخلقت نوعا من النقاش، وادت الى تفهم وتضامن لأهمية تحرر المرأة، ومن ذلك القصيدة الرائعة التي كتبها بدر شاكر السياب بعنوان" المومس العمياء "عام.1945

تتحدث القصيدة عن ابنة فلاح عراقي فقير قتل على بيدر حيث قيل انه كان يسرق .فغادرت الفتاة البريئة قريتها لتهرب من العار الذي انزله بها ابوها، لكنها وقعت في عار افظع منه عندما احتل العراق جنود اجانب استباحوا جسدها فاتخذت البغاء رزقاً مدة عشرين عاماً هرمت بعدها واصابها العمى ولم يعد يرغب فيها احد .لكنها كانت تنتظر الزبائن كل مساء في غرفتها بالمبغى على ضوء مصباح زيت تدفع اجرته .وهي لا شك سخرية مرة لا

تستطيع المومس ان ترى نور مصباح الزيت في شقائها وعماها، بينما العراق يبدد ثروة زيته الذي يستغله الاجانب.

ويح العراق !أكان عدلاً فيه انكِ تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمناً لملئ يديك زيتاُ من منابعه الغزيرة؟

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين؟

*****

مات الضجيج .وانت، بعد، على انتظارك للزناة،

تتنصتين، فتسمعين

رنين اقفال الحديد يموت في سأم، صداه:

الباب اوصد

ذاك ليل مر..

فانتظري سواه

لم يكن السياب الرجل الوحيد الذي بدأ بإعلاء راية الشعر الحر، لقد صاحبته في ذلك الشاعرة نازك الملائكة، وصاحب هو الشاعرة لميعة عباس عمارة.

ولم يكن الشعر والادب والحقل التربوي هي المجالات الوحيدة لإبداع المرأة العراقية المبكر مطلع عشرينيات القرن الماضي فهناك الرسامة وداد الاورفلي والتي اقامت دارا للفنون في حي المنصور فاصبحت قبلة لكل الفنانين والفنانات، والقاضية صبحية الشيخ داود صاحبة كتاب) أول الطريق

الى النهضة النسوية الحديثة(، وهناك الصحفية مريم روفائيل يوسف رومايا أول صحفية عراقية نزلت الى الحقل الصحفي سنة 1921 وأصدرت صحيفة) فتاة العرب .(

في عام 2009 وبعد عامين على وفاتها، قررت الحكومة العراقية إقامة تمثال لنزيهة الدليمي لتكون أول شخصية نسوية يقام لها تمثال في العراق . بعد ان كانت اول سيدة عربية تحتل منصبا وزاريا هو منصب وزيرة البلديات في حكومة عبد الكريم قاسم .

نزيهة من مواليد 1921 ومتخرجة من كلية الطب، ومناضلة من مناضلات الحزب الشيوعي العراقي، وتعتبر من رائدات الحركة النسوية، والمساهمات الفاعلات في إصدار قانون الأحوال الشخصية عام 1959 والذي اعتبر القانون الأكثر تقدما في منطقة الشرق الأوسط من حيث الحقوق التي منحها للمرأة في حينه .

بعد ثورة شباط1963 ، أصدرت محكمة الثورة حكما بإعدامها، ثم خفف الحكم إلى المؤبد مع الأشغال الشاقة، ثم أعفي عنها لاحقا وسمح لها بالعودة إلى العراق.

تظل الامور مرهونة بحاضرها وخواتيمها دوما، وما رأيناه من نهضة ومن مشاركات نسوية، ومن اقرار لقوانين عادلة، تم التراجع عنه بدل ان يتطور ليواكب روح العصر واحتياجات التنمية، لقد اصبحت قضية المرأة في العالم العربي مجرد شكليات، وشعارات دون رصيد، وميدانا وورقة للمساومة، وللنفاق تارة مع المجتمع المدني والدولي وتارة مع حركات الاسلام السياسي .

لوحة للفنان محمود فهمي عبود

بغداديات 34

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

اغنية كل ما فيها لذيذ، وقصتها ألذ، فيها التين والتوت والرمان والعنب، لحنها وغناها ناظمان، الاول نعيم والثاني غزالي، واما من كتبها وكيف ومتى واين؟ فمن هنا تبدأ الحكاية، وتحديدا في عمارة) كوليج هول (في الجامعة الامريكية ببيروت عام1925 ، وهو العام الذي شهد بداية تعليم الجنسين في هذه الجامعة العريقة.

يومها استحالت حرارة ورطوبة الصيف البيروتي الى نسيم عليل، بفضل طالبة شامية دخلت الجامعة وشغلت اهلها عن علمهم بحسنها الفتان، واذا كان الحسن يوقظ ارواح البشر ، فان الفتان منه يوقظ ارواح الشعراء، وهذا باختصار ما جرى وصار.

في ذلك اليوم حلقت روح العباس بن الأحنف واستقرت في جسد طالب فلسطيني نحيل يدعى ابراهيم، واستقرت روح ديك الجن الحمصي في جسد طالب سوري حموي يدعى وجيه، واما روح شاعر الخمريات ابو نواس فقد استقرت في جسد طالب عراقي ثري يدعى حافظ، وظلت روح الشاعر صريع الغواني مسلم بن الوليد هائمة الى ان استقرت في جسد الطالب البيروتي المدعو عمر.

في درس التاريخ عند الدكتور عند الدكتور اسد رستم اصبحت ليلى تين، الحسناء الشامية سالفة الذكر، شيطانة شعر الطالب البغدادي حافظ جميل، واما الطالب النابلسي ابراهيم طوقان فقد فُتن بالطالبة الفلسطينية ماري

صفوري من كفر كنا، وهي القرية الفلسطينية المشهورة بالرمان اكثر من غيرها.

داعب الشاعر عبد الكريم الكرمي" ابو سلمى "صديقه الشاعر ابراهيم طوقان، المتيم بحب ماري فنسب اليه قصيدة مطلعها :

يا صبايا كفر كنا / آه من أعينكنّ

وذلك محاكاة لقصيدته المشهورة:

بيض الحمائم حسبهنّ / اني اردد سجعهنّ

اشتهرت القصيدة المنسوبة لطوقان كثيرا في الجامعة الامريكية، ولما سئل عنها قال :والله ما ابتدعها الا ابو سلمى، ولكن النقاد عدوها من شعره ونسبوها اليه .

بدأ الشابان التغزل كلٌ بشيطانة شعره، على مسمع ومشاركة زميليهما السوري الحموي وجيه البارودي، واللبناني البيروتي عمر فروخ، وكانوا قد انتظموا جميعا في حلقة ادبية سموها" دار الندوة."

كان التهاجي والتظارف والتساجل ديدنهم، وكان كل منهم يعيب على الاخر سلامة ذوقه ورقة احساسه، وقد يصل الامر ان يهجو احدهم شيطانة الآخر بأبيات قاسية.

يقول حافظ :كنا دون العشرين من العمر ومفتونين بالحياة الجامعية، وكنا الاربعة ننظم قصائد مشتركة حتى تجمعت على شكل ديوان سميناه) الديوان المشترك (ولكنه فقد ولم يطبع مع الاسف الشديد ..والادهى من ذلك ان قصائدنا كادت تتسبب بطردنا من الجامعة بعد شكوى تقدمت بها الانسة ليلى تين وشقيقتها اليس.

كان وجيه وحافظ يتنزهان في حديقة الجامعة فأقبلت المِس تين من بعيد، فصاح حافظ بأعلى صوته: (يا تين) , ... فالتفتت مستغربة هذا النداء المفاجئ وغير المبرر، فلاحظ قرطها وكان على شكل حبة توت فأكمل على عجل) :يا توت (... فاقتربت حتى لاحظ نهديها فهتف) :يا رمان (..... فابتسمت له وقد فهمت انه يداري على ندائه الاول ويتغزل بها غزلا مغلفا ....اسكرته ابتسامتها واذهبت ما تبقى من عقله، فناشد متضرعا) :يا عنب (.....، فرت الفتاة كغزال من امامهما وهي تداري ابتسامة النشوة والجذل، وهنا ضحك وجيه معجباً بسرعة بديهة حافظ وأجابه مباشرة) :يا دُرّ يا ماس يا ياقوت يا ذهب) ...

وعندما عرف إبراهيم طوقان بالقصة بدأت حكاية نظم القصيدة التي كرّت سبحة أبياتها فيما بعد من أفواه الشعراء الثلاثة، حتى اصبح مختلفا بين الناس على صاحبها، رغم ان اصحابها لم يختلفوا عليها ولا على غيرها.

ولعل الاصدقاء جميعا قد رفضوا ان تسجل هذه القصيدة على اسمهم اكراما لصديقهم حافظ خاصة وان غرامه بالآنسة تين، وهو الغرام الذي تجدد عندما التقاها خلال عملها كمدرسة في معهد المعلمات ببغداد، ظل عشقا من طرف واحد ولم يتكلل بزواج، بل انه اصبح جرحا غائرا عندما دعته لبيتها ورجاه زوجها ان يلقي عليهما قصيدة التين.

اذن القصيدة، والتي غناها ناظم الغزالي ثم المطرب فؤاد سالم، نسبت للشاعر العراقي حافظ جميل، واما ابراهيم طوقان فقد اكتفى بالتشارك مع زميليه في قصيدة) حدائق الشام (او) حدائق العشاق (والتي أُعتبرت معارضة لقصيدة) يا تين (واحتوت على ابيات منها، ولم يضعها في ديوانه.

اللوحة للفنان العراقي المغترب ستار كاووش

تقول قصيدة حافظ :

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

يا خيرَ ما أَجْنَتِ الأغصان والكُثُبُ

يا مُشتهى كلّ نفس مسّها السّغَب

يا برء كلّ فؤاد شفّه الوَصَبُ

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تينُ يا ليت سَرْح التينِ يجمعنا

يا توت يا ليت ظِلّ التوت مضجعنا

وأنتَ ليتك يا رمّان تُرْضِعنا

والكَرْم يا تين بنت الكَرْم تَصْرَعُنا

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تين حسبك صحن الخدّ راووقا

ولو درى التوت ما تحسو حسا الرّيقا

وهَبَّ يجرحك الرمّان تحديقا

وأهْرق الكَرْمُ يا تين الأباريقا

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تين سقيا لزاهي فرعك الخَضلِ

يا وارف الظلِّ بين الجيد و المُقَل

هفا لك التوت فاغمر فاه بالقُبَلِ

فالكرم نشوان و الرمان في شُغُل

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

حدائق الشام عين الله ترعاكِ

ولا سَرَتْ نسمة إلا بريّاكِ

ملهى العذارى وكم يَمَّمْنَ ملهاك

يَشْرَبْن بارد طَلٍّ من ثناياك

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا يوم أقْبلْنَ أمثال التماثيلِ

يرفلن في عُـقَـصٍ بيض الأكاليل

تبعت) ليلى (و)ليلى (ذات تضليل

)ليلى (فديتك ما أقساك يا ليلي

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

حلفتُ بالكَرْم يا) ليلى (وبالتوت

وما بصدرك من دُرٍّ وياقوتِ

لأجعلن عريش التين تابوتي

تين الخمائل لا تين الحوانيت

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

ناداك بالتين يا) ليلى (مناديكِ

والتين بعض جَنى الأطياب من فيك

لو كان يُجدي الفدا في عَطْف أهليكِ

لرحتُ بالروح أفديهم وأفديك

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

كتمتُ حبّكِ عن أهلي ولو عرفوا

شددت رحلي إلى) بغداد (لا أقف

هذي دموعي على الخدين تنذرف

يا منية القلب هل وصْلٌ وأنصرف ؟!

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تين يا خير أثمار البساتينِ

يا لاوياً جيده فوق الأفانينِ

طلَّ الندى لك مخضلَّ الرياحين

فافترَّ ثغرُك عن وردٍ ونسرين

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تين زِدني على الأكدار أكدارا

ولا تزدني تعلاّتٍ وأعذارا

هَبْني هزاراً وهب خدّيكَ نوارا

فهل يضيرك طيرٌ شمّ أزهارا ؟!

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

يا تين حسبك ظِلاً نشر ريحانِ

يهفو على غَضِّ أكمامٍ وأفنانِ

من كلّ حانٍ العنقود نشوان

ومشرأبّ إلى توت ورمانِ

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

****

هتفتُ بالتين فاهتزّتْ له طَرَبا

وقلت للتوت : كنْ اقراطَها الذّهبا

واحذرْ إذا انتفض الرمان وانتصبا

أن يأخذ الكَرْم من حبّاته الحَبَبا

يا تينُ يا توت يا رمّان يا عنبُ

لوحة الفنان ستار كاووش

بغداديات 35

بزر نكوش

قرر الفنان العراقي حسين نعمة اعتزال الغناء بعد سماع اغنيته الشهيرة "ماي شغل بالسوق "بصوت إلهام المدفعي وعلى نغمات الغيتار الغربي، كان حسين نعمة قد دخل عالم الفن من بوابة هذه الاغنية التي لحنها له الموسيقار محمد جواد اموري في سبعينيات القرن الماضي، واصبحت كجواز سفره، الامر الذي ينكره هذا المدفعي.

والحقيقة ان هذا المدفعي فعل ذلك مع كثير من المطربين وكثير من الاغنيات، بل ان معظم اغانيه تندرج تحت هذا الباب من السرقة، التي يُقَنعها او يحاول تجميلها بادعاء ان الكلمات والالحان تراثية، رغم ان معظمها منسوب لشعراء وملحنين معروفين ولمطربين آخرين سبقوه اليها او كانوا اصحابها الفعليين .

حين يفعل غيره من المطربين ذلك يطلبون اذنا، وينسبون الفضل لاصحابه، ولا يدعون انه من التراث طالما ان اصحابه معروفين .

يُحسب لهذا المدفعي ان خياراته في السرقة كانت مذواقة، ويؤخذ عليه الى جانب جريمة السرقة المجزرة التي كان ينفذها في الكلمات والالحان .

بنظرة بسيطة على اغاني المدفعي التي نسبها لنفسه ونشرها على حسابه في اليوتيوب، نجد التالي :

- اغنية "اسكني يا جراح" قصيدة لشاعر تونس ابي القاسم الشابي، غنتها التونسية امينة فاخت، وغناها قبلها اليمني ابو بكر سالم عام . 1961 وغناها كذلك الفنان السوداني حمد الريح .

- اغنية "فوق النا خل فوق" غناها كثيرون مثل ناظم الغزالي وصباح فخري وغيرهم، وهي من الحان عثمان الموصلي قبل اكثر من 100 عام .

- اغنية "مالي شغل بالسوق" غناها حسين نعمة في سبعينيات القرن الماضي، وهي من الحان محمد جواد اموري.

- اغنية "جلجل علي الرمان" تعود الى عشرينيات القرن الماضي، وغناها قبله يوسف عمر، بشكل لا يدانى ولا يقارب .

- اغنية" محمد بوية محمد "اغنية تراثية قديمة بكلماتها ولحنها، غناها اولا حضيري ابو عزيز المتوفى سنة 1972 ، وغناها ايضا كثيرون جدا كان افضلهم سعدي البياتي .

- اغنية "دشداشة" تراث قديم، غناها يوسف عمر وغناها ايضا ناظم الغزالي .

- اغنية "بغداد مدي بساطك" قصيدة نزار قباني، وقد لحنها قبله الموسيقار سالم حسين الامير، وغناها قبله المطرب احمد الراوي .

- اغنية "وين رايح وين" هذه الاغنية من كلمات جبوري النجار، والحان صالح الكويتي، وغنتها زكية جورج المتوفاة سنة 1966، وفرقة الانشاد العراقية .

- اغنية "عليك اسأل" وهذه من كلمات كريم خليل، والحان ذياب خليل وغناها الاستاذ الدكتور فاضل عواد، صاحب اغنية" لا خبر، لا جفية، لا حامض حلو، لا شربت ."

- اغنية" سايب يا قلبي سايب "غناها ناظم الغزالي وغناها علي العيساوي، وكذلك سعدون جابر وطالب القرة غولي ويوسف عمر. وابدعوا فيها جميعا .

- اغنية "بابوري رايح رايح" هذه الاغنية للمطرب السوري المعروف موفق بهجت .

- اغنية" بزر نقوش "كتب كلماتها مجموعة من الاصدقاء اثناء جلسة سمر في بيت احدهم على شاطئ دجلة وغناها سعد الاعظمي ويوسف عمر وحسين الاعظمي، وقد ابدعوا فيها جميعا .

- اغنية "اشقر بشامة" وهذه ايضا للاستاذ الدكتور فاضل عواد، وقد أُخذت قصة الاغنية منه، ووضع كلمات جديدة لها الشاعر الغنائي حسن الخُزاعي، واضاف الملحن ياسين الراوي مقدمة موسيقية للأغنية، أما اللحن الأصلي القديم فقد وضعه الملا عثمان الموصلي.

- اغنية "قولي يا حلو" وهذه غناها تاريخيا ناظم الغزالي مسبوقة بموال" اقول وقد ناحت بقربي حمامة ."

- اغنية "يا عذولي لا تلمني" لحن هذه الاغنية الملا عثمان الموصلي، وكانت في الاصل" لغة العُربِ اذكرينا "وقد اللحن كثيرون في العراق وسوريا وتركيا، وكتبوا كلمات له، سجل هذه

الاغنية اولا الفنان طه غريب، في احدى حفلات بيت المقام العراقي عام 1987.

- اغنية "ابو نونة" اغنية بصراوية سمعها الملحن ذياب خليل وسجلها فيما بعد للفرقة القومية للفنون عام 1976 ، وغناها من بعده قاسم اسماعيل وفرقة الخشابة وكثيرون، أسواهم على الاطلاق كان الهام المدفعي .

- اغنية "دزاني وافهم مرامي" هذه كلمات تراثية لحنها الملا عثمان الموصلي قبل نحو قرن من الزمان، وغناها يوسف عمر وفلفل جرجي، وآخرون في العراق وسوريا ولبنان، كما سجلتها فرقة الجالغي البغدادي .

- اغنية "ولك عرنة" وهي كلمات تصاحب اغاني دبكات الجوبي، اداها على احسن ما يكون الاداء صلاح عبد الغفور، وسعدي الحديثي وعادل عكلة .

بعد هذا الجرد لا يبقى في قائمة الاعمال الغنائية لالهام المدفعي سوى اغنية واحدة هي" مارينا "وقد غناها بالاسبانية ولا نعلم ان كانت له فعلا ام انها من التراث الاسباني ايضا .

الغريب انك عندما تبحث عن أي واحدة من هذه الاغاني عبر محركات البحث فان النتائج الاولى بل للاسف الصفحات الاولى من النتائج ستعطيك اياها بصوت المدفعي، انها خوارزميات متواطئة تتفق مع آليات تسويق خسيسة وجبانة .

ولكي تكتمل فصول التردي سيتنطح صحفي ليكتب اصدر الفنان البوما جديدا، واطلق اغنية جديدة، واحتفل بمرور نصف قرن من الابداع

الموسيقي، سيطفو الفنان الى السطح ومعه الصحفي الالمعي، الذي سيصبح خبيرا ثقافيا وربما ناقدا.

لوحة الجالغي البغدادي للفنان العراقي الراحل فائق حسن

بغداديات 36

في الكاولية يقولون :ابق حيث الغناء، فالأشرار لا يغنون

كان في القدس ايامها (العام 33 للميلاد) اربعة حدادين فقط لا غير، وكانوا جميعا من قبائل الغجر التي ارسلها ملك الهند الى ملك فارس لمؤانسته وإطرابه، فقام الاخير بعد ان استمتع بهم لعام كامل بطردهم من مملكته، فاتجهوا الى كل مكان وحملوا كل اسم ودين ولغة صادفوها. (هكذا تبيع الملوك رعاياها، وهكذا يمتهنها الملوك الآخرون).

رفض ثلاثة حدادين طلب جنود الرومان صنع 4 مسامير عندما علموا انها ستستخدم لصلب السيد المسيح، فخدع الجنود الفتى غاسبار ابن الحداد الرابع فصنع لهم ثلاثة مسامير وامتنع عن عمل الرابع عندما علم انها ستستخدم لصلب المسيح، فهو ايضا مثل بقية الحدادين يعتبر ان ما جاء به المسيح من تعاليم اخوة ومساواة تؤهله لأن يكون غجريا من بينهم، (كان الناس اخوة، وظلوا كذلك الى أن فرقهم الزواج، تزوج الاوائل من شقيقاتهم، فلم يعدن شقيقاتهم، بل زوجاتهم، وصار الشقيق يقول عن شقيقه زوج فلانة، فلم يعد هو اخوه ولم تعد هي اخته). (تقول الحكمة الغجرية :البشر لا يشبهون الأشجار).

صلب المسيح او من شبه لهم انه المسيح، بثلاثة مسامير فقط، واحد لكل يد، وواحد لكلتا القدمين بعد ان وضعتا فوق بعض. (يُرسم المسيح مصلوبا بأربعة مسامير واحيانا بثلاثة، لا لشيء الا لكي تتوالد الروايات).

هام غاسبار على وجهه حاملا وزر جهله، وباحثا عن الغجر في كل ارض الله ليقول لهم: "لا تصنعوا المسامير الا لتثبيت صواري السفن، وعمل هياكل البيوت، لا تصنعوها لصلب البشر". (ومن يومها اتخذ القتل الف وجه ووجه غير الصلب بالمسامير).

عرف الغجر ملكا اهداهم ونسيهم، وملكا شردهم، وملكا ارادهم شركاء في جريمته، فقرروا ان رأس الحكمة، ان لا يكون لهم مملكة ولا ملك، وظلوا على الدوام يرفضون ان يكون لهم بلد او حكم ذاتي. (افضل ما يعمله المرء هو ان لا يرى الذئب، وان لا يدع الذئب يراه).

وهكذا عاش الغجر وكلهم استعداد لتقبل النبذ، فارتدوا ازياء فضفاضة ومزركشة تميزهم، وضربوا الخيام على اطراف المدن، تاركين لمن شاء ان يأتيهم، وتركوا عرباتهم على اهبة الاستعداد للرحيل مع الريح فوق طرقات الرب وفي ملكوته الواسع، وظلت اجسادهم خفيفة بأرواحها. (الميث اثقل من الحي لأن لا روح فيه، فالأجساد تخف بالأرواح)

عرف الغجر ان لا ملك لهم، فصاروا ابناءً مخلصين للريح متنقلين على نسماتها وعلى نغمات موسيقاهم، يحملون خيامهم على ظهر خيلهم ويمضون، دون حنين لوطن، فالوطن بالنسبة اليهم موسيقى وطرب ورقص، هي اركان ثلاثة يحملونها في قلوبهم وجوارحهم وينشرونها حيثما حلوا في اراضي الاخرين. (اللي ما إلو كبير بيشتري كبير، واللي ما عنده دين يعتنقه بيصنع دين). (تقول الحكمة الغجرية: هناك حقائق مزورة وتخيلات حقيقية).

هكذا يفرق الملوك الجماعة الى جماعات، وهكذا تحافظ على نفسها الجماعة التي صارت جماعات تحمل اسماء واديان وتتكلم لغات مختلفة، ظل النوّر والزط كما يسمون في بلادنا والجيتان كما في فرنسا، والكالو كما في اسبانيا، والفلاكس كما في البرازيل، والكاولية كما في العراق، ظلوا متشابهين في الشكل والسلوك والملبس والعادات والحرف وظلوا كذلك اوفياء لأركان دينهم، فعزفوا وغنوا ورقصوا، وابتدعوا الفلامنكو في اسبانيا و ابدعوا رقص الهجع في العراق، ظلوا احرارا ومسالمين بأرواح خفيفة ومرحة، فزارهم كل طالب حرية وعاشق لها. (يسعى الناس للحرية، ولكنهم يكرهون غيرهم من الاحرار، ولذلك تعرض الغجر للقتل زيادة على النفي والنبذ والتمييز). (تقول الحكمة الغجرية: الدمعة في العين جرح في القلب).

حياة الغجر الخالية من التعقيد، والشعور بالذنب حيالهم كانت وراء العديد من الافلام والمسرحيات التي جسدت حياتهم بإنسانية كفيلم الغجري للممثل الفرنسي الآن ديلون والمسرحية العراقية اطراف المدينة، وكان الغجر عنوانا وموضوعا للعديد من اللوحات والروايات والدواوين الشعرية. (يعتقد الغجر أن الخالق وضعهم في تنور، مثلما توضع أرغفة الخبز، ثم انشغل في أعمال أخرى، ولما فطن وجد لونهم الأسود مختلفاً عن سواهم الذين لا لون لهم" البيض "فجعلهم أبناءه المفضلين).

أحبت غجرية فتى جميلاً، لكن من غير جنسها، فجفاها، فبكت واستعطفت، ولم تجد خلاصاً إلا بعقد اتفاق مع الشيطان، وهو صنع آلة من اجساد أعضاء أسرتها، وبهذه الآلة يمكنها تنفيذ ما تريد، وبعد كثير من المعاناة وافقت، فجعل أباها صندوقاً خشبياً يردد الصوت وأمها قوس عزف، وأخواتها الأربعة أوتاراً، فكانت آلة الكمان، وعلمها العزف عليها، فجعلت النافر منها يعشقها، ومنذ ذلك الوقت تعلم الغجر الفنون كلها.

ولعل من ابرز الشعراء الذين امتدحوا حياة الغجر الشاعر الاردني مصطفى وهبي التل المعروف بعرار وخاصة بعدما اغرم بسلمى الراقصة الغجرية ممشوقة القد والقوام حتى قال:

ليت الوقوف بوادي السير إجباري وليت جارك يا وادي الشتا جاري

ولا ابالي إذا لاحت مضاربهم مقالة السوء في تأويل مشواري

بين الخرابيش لا عبد ولا امة ولا ارقاء في ازياء احرارِ

الكل زط مساواة محققة تنفي الفوارق بين الجار والجار .

(كان الفنان الاردني المرحوم عبده موسى واحدا من شيوخ الغجر، وتولى ابنه فتحي من بعده زعامة هذه الأقلية)

وكان على الغجرية ان لا تتزوج الا غجريا، غجريا واحدا يلقي اليها بالمنديل المزركش الملفوف دوما حول رقبته، فلا تأخذ المنديل فقط، وانما رقبة الشاب ايضا ليأكل من خبز عليه قطرات من دم ابهامها، (تقول الحكمة الغجرية :لا تختر إمرأة على ضوء القمر).

يصبح الغجري في عصمة زوجته، فيحرس خيمتها، ويعزف لها موسيقى تبقي روحها حية. (الموسيقى هي روح الغجر، ويا لها من روح!).

ولأن الفن لا يكفي كان على الغجري ان يربي سلالات الحمير وكلاب الصيد، وان يصنع من الحديد خناجر وسكاكين، وحفارات للكوسا، ومناخل وغرابيل واقفاص وفخاخ للطيور وطبولا وحصائر، وان يركب اسنان الذهب، وان يقرأ الطالع من الكف، وان يسرق ولكنه لن يسرق من هم افقر منه، ولن يسرق اكثر مما يحتاج. تقول الحكمة الغجرية (حيث يكسب الاغنياء المال بشرف، ولا يستطيع ذلك الفقراء، سيكون على الغجري الفقير ان يسرق).

لم يذهب الغجري لأي حرب، حتى لو وعدوه بجنسية حرم منها سنين طوال. (تقول الحكمة الغجرية :كونك رأس فأر افضل من كونك ذنب سيد).

في العراق كما في غيرها من الاقطار العربية والاجنبية عاش الغجر حياة مسالمة ولم يتدخلوا في السياسية، ولم يقتحموا المدينة، كانت الناس تفد الى مضاربهم المسماة كاوليات، فيسهرون ويطربون ويرقصون، كانوا يصدرون اغاني والحان لا تنسب اليهم، ولم يكونوا يسألون، لم تكن الكاوليات على اطراف المدن دورا للدعارة كما يعتقد البعض، بل ان ما كان يدور فيها يقل كثيرا عما يدور في بعض الاوساط الفنية اليوم، او في النوادي الليلية الفخمة المقامة في ارقى احياء العواصم وبتراخيص رسمية. (ككل المهن اصبحت الدعارة اشد تعقيدا ولم يستطع الغجر فهم آليات السوق).

لن تجد عراقيا- مهما كانت قوميته او ديانته او طائفته -لا يستطيب ولا يطرب للهجع، تماما كما ان كل اسباني وكل ذواق للفن يحب رقصة الفلامنكو الاسبانية التي لا يبرع فيها الا الغجر، حتى ان راقصة الفلامنكو الغجرية اصبحت الشعار الرسمي لسجائر الجيتان الفرنسة، ولن تجد مغنيا عراقيا الا وقد غنى الهجع وممن برعت فيه رقصا الفنانة ملايين، ولمعت على التلفزيون والمسرح العراقي من فنانات الغجر كل حمدية صالح، وفرقة بنات الريف، وسورية حسين وصبيحة ذياب وغزلان وساجدة عبيد وهند طالب وصبيحة ذياب. (يقول المثل الغجري: ابق حيث الغناء، فالأشرار لا يغنون).

لم يستطع العراق النامي بسرعة ان يدمج الاجيال الجديدة من مواطنيه الغجر، وتأخر في منحهم الجنسية، ولكنه تقبلهم كما تقبل بقية طوائفه وقومياته، واما العراق الجديد فلم يستطع مجرد القبول بوجودهم المسالم فأعملت الميليشيات المتدينة سيف القتل والتشريد في اوصالهم، قتل المتدينون المتشددون الغجريات أملا في نيل الحوريات، فانخفض عددهم من 200 الف الى 50 الفا فقط. (تاريخ الغجر مليء بالقتل والتشريد والابادة أشهرها" محرقة الغجر "التي قام بها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية).

للغجر علم هو سماء زرقاء في الاعلى وارض خضراء في الاسفل بينهما دولاب يرمز للترحال .

للغجر في اعناقنا نحن البشر اكثر من دين وحق ويجب تعويضهم عن الاضطهاد في روسيا والحرق في المانيا النازية والقوانين العنصرية في البرتغال والنبذ في كافة بلدان اوروبا و القتل والتشريد على يد الزير سالم وإشانة السمعة والحرمان من حقوق المواطنة والمساواة في الوطن العربي بل ويجب الاعتراف بفضلهم الفني في الموسيقى والغناء والرقص ودعمهم للحفاظ على لغتهم الام وتراثهم وعاداتهم ومعتقداتهم) .حددت الأمم المتحدة

عام 1992 اليوم العالمي للغجر في الـ 8 من أبريل من كل عام) .(تقول الحكمة الغجرية :دموع اليتيم هي درر الله).

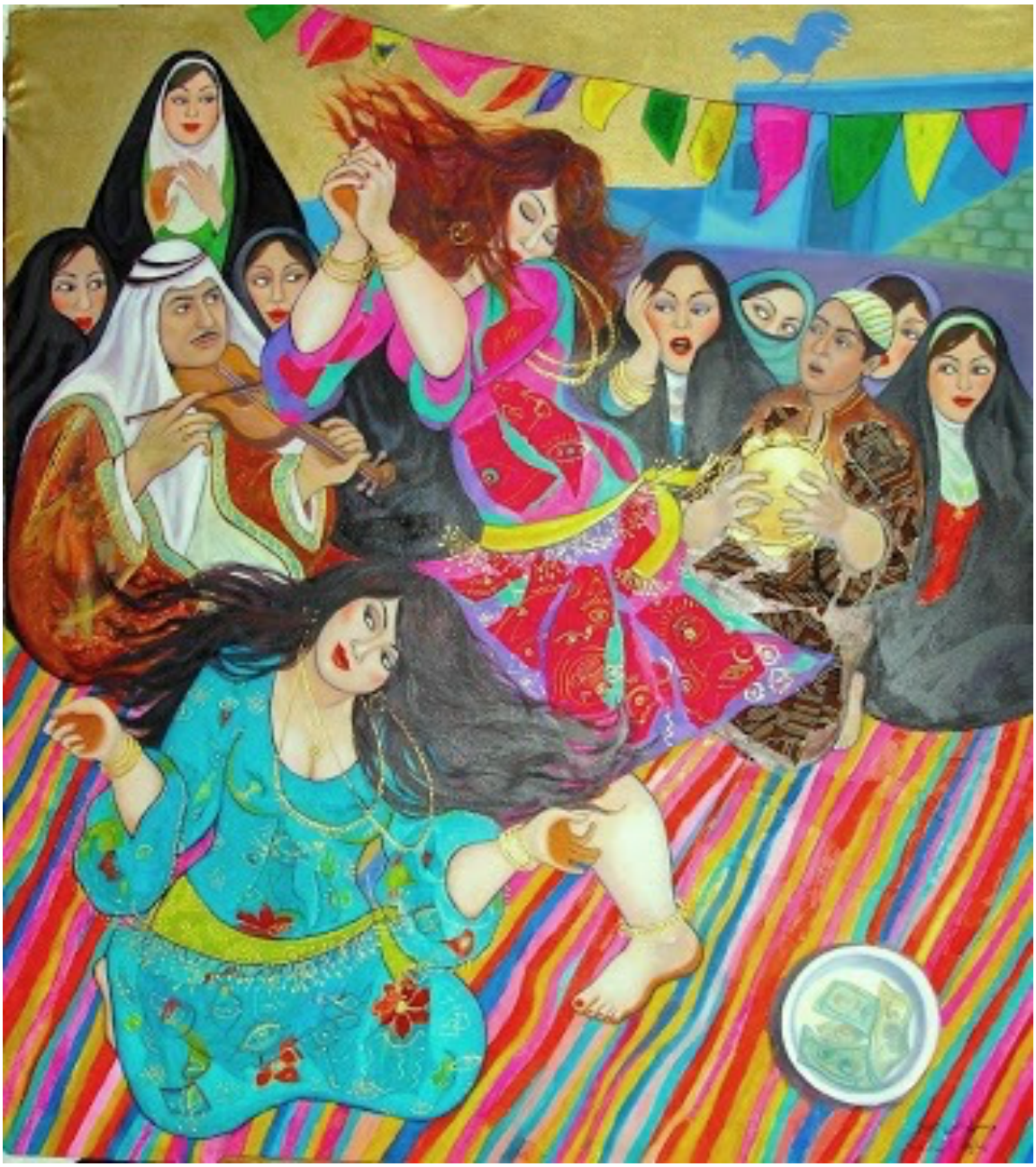

لوحة وسماء الآغا

بغداديات 37

الأيزيدي الطيب

وظل سيدنا نوح ينوح على ذنوب امته، زرع اشجارا وانتظرها مئة عام لتنمو ثم صنع منها سفينته، وانتظر حتى فار التنور فحمل من كل زوجين اثنين، وضع الحيوانات المتوحشة في الطابق السفلي والبشر في الطابق الاوسط، والطيور على السطح، صمدت السفينة في وجه اعتى الامواج، فصانعها نجار ماهر، وقد صنعها بعيني ربه الكريم، طافت السفينة بركابها حول البيت الحرام اربعين يوما، ثم سارت 150 يوما ولكنها وقبل ان تستقر على الجودي اصطدمت برأس جبل يعلو الارض بمقدار 1400 متر ، فقال سيدنا نوح" :هذا سِنُ جبلٍ جارَ علينا ."

اقلعت السماء وبلعت الارض ماءها، وصار اسم الجبل الذي جارَ سِنُه على سفينة نوح، جبل سنجار، ومنه اخذت القرية الوادعة في شمال غرب العراق بمحاذاة الحسكة السورية اسمها، واليها انتسب من عاش فيها من كرد وتركمان وعرب :أزايده ومسيحيين سريان ومسلمين سنة وشيعة .كانوا جميعا ورثة حضارات فارسية ويونانية ورومانية واسلامية .

هل كان جبل الجودي الذي استقرت عليه السفينة بعد الطوفان هو ذاته سنجار، ام انه جبل ابعد يقع في تركيا اليوم؟ ايهما أهم السؤال عن الجبال ام عن مصير من تربت في سفوحها من الاجيال؟.!

قبل الميلاد بـ 3 الآف عام بدأ الايزيديون بنحت ديانتهم الخاصة، وتدرجوا من عبادة الطبيعة الى الوحدانية، فعرفوا عن يقين ان لا صلة بين الخالق والمخلوق، وآمنوا بأزلية وتناسخ الارواح، وصاموا اربعين يوما كل عام،

وقالوا " :إله واحد أحد، لا تجري ماهيته في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال، جل عن الأمثال والاشكال، صفاته قديمة كذاته، ليس كمثله شيء ."

واله الازايدة موجود في كل شيء، وانسانهم العاقل مسؤول عن افعاله، فهم وخلافا لما يشاع لا يؤمنون بالشياطين والوسوسة، ولكنهم يقدرون الملائكة ومنهم رئيس الملائكة عزازيل) الملك طاووس (الذي كلفه الله بمحاولة اقناع وإخراج آدم من الجنة لكي يتكاثر البشر، وتزدان الأرض وتعمر .

يعتقد الازايدة أن" طاووس ملَكَ "هو الذي رفض السجود لآدم عليه السلام، ولمّا سأله الله :لماذا لم تك من الساجدين؟ قال" :عندما خلقتنا أمرتنا يا ربنا أن لا نسجد إلا لك، وأنا لم ولن أسجد لغير وجهك الكريم يا رب ."فأعلن الله لباقي الملائكة، أن طلب السجود لآدم كان اختبارًا، وأن طاووس ملك هو الوحيد الذي اجتازه بنجاح، ومن ثم كافئه الله بجعله أقرب المخلوقات إليه وأناط له حكم الكون .

ولأن الشيطان هو من رفض السجود لآدم عليه السلام في الديانات الإبراهيمية، تسببت عبادة وتقديس طاووس ملَكَ عند الازايدة، في اتهامهم بعبادة الشيطان، الأمر المنافي للحقيقة، حيث لا يؤمن الازايدة في وجود الشياطين أصلًا.

ويُحرم الازايدة الزنا والكفر والإشراك بالله وشهادة الزور وأكل الخنزير وشرب الخمر والكذب والغش والرياء والنميمة، والزواج من زوجة الأخ المتوفى .ويختنون مواليدهم ويدفنون موتاهم في قبور لا ترتفع كثيرا عن سطح الارض، ويعطلون اعمالهم يوم الاربعاء لأنه اليوم الذي يعتقدون ان الله خلق فيه الكون.

ومهما يكن من امر الديانة الايزيدية فهي مجرد ديانة اخرى غير تبشيرية وليس لها كتاب سماوي، ولا يتزوج الايزيدي ولا الايزيدية من خارج ديانته، وهي واحدة من ديانات اخرى يدين بها العراقيون :الاسلام والمسيحية واليهودية والبهائية والمندائية فضلا عن الالحاد .

ومهما يكن من امر الأيزيدية فما هي الا ديانة واحدة من بين 10 الآف ديانة رئيسية يعتنقها البشر، وبينها 150 ديانة يزيد عدد المؤمنين بكل منها عن المليون .

قتل الدواعش الآف من ابناء هذه القرية وسبوا فتياتها، في عام2014 ، ووزعوهن كغنائم حرب على شيوخ التنظيم، وهذه واحدة من مجازر وحملات تطهير كثيرة تعرض لها الايزيديون ومنها مجزرة الانفال والتي نفذت على شكل حملات تدمير وابادة استمرت 3 سنوات.

نعرف ديانة الايزيديين ولكننا لن نستطيع ابدا معرفة ديانة داعش .

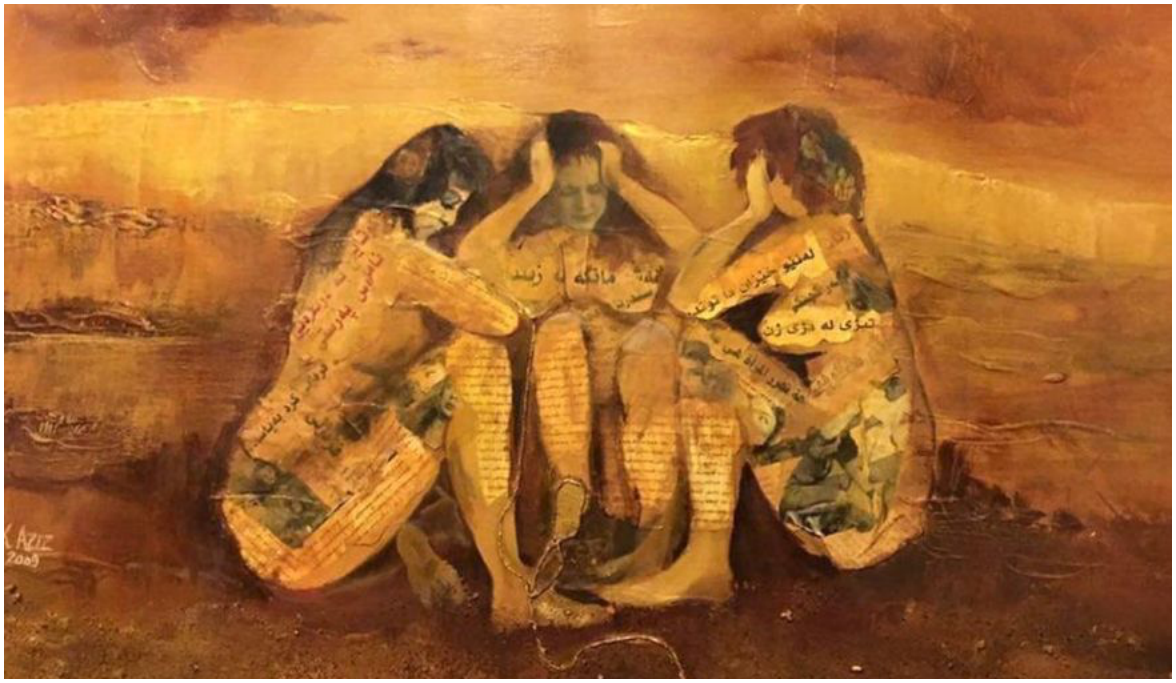

لوحة النساء للشاعرة والفنانة الكردية العراقية المغتربة روناك عزيز

لوحة جبل سنجار 2014 للفنان العراقي نصير الكعبي

بغداديات 38

حمار الزهاوي

كان يجلس يوميا الى مقهاه المفضل في باب كلواذا) الباب الشرقي (احد ابواب بغداد، وكان ظريفا يتجمع حوله رواد المقهى، فيسمعون شعره، وعرفوه كريما يتبرع بدفع ثمن الشاي عن اصحابه، ومن يستحسنون شعره ويعجبون بأفكاره ويضحكون على نوادره، فهو سريع البديهة ومحب للنكتة وصانع لها .

)لا يجمع الناس على شيء بمقدار اجماعهم على حب النكتة(

ظل يجلس على ذات الكرسي في ذات المقهى الى ان دعاه رئيس الوزراء نوري السعيد لاجتماع في مقهى امين بشارع الرشيد، لبى الدعوة واعجبه المقهى، واعجبه ان يشير اليه العموم على انه الشخص الذي التقى برئيس الوزراء .

)يرغب الناس بالتميز واثارة اعجاب الآخرين، تتعدد طرقهم وقد ينكرون ذلك، ولكنهم يرغبون به (

ومن يومها صار الشاعر جميل الزهاوي يأخذ من زوجته زكية مصباح مصروفه اليومي من القطع المعدنية الصغيرة الموضوعة في كيس من القماش، ويركب حماره صباح كل يوم ليربطه بباب مقهى امين، ويترجل متأبطا كتابا فيقرأ ويتثاءب وينام، الى ان يأتي اصدقائه، فيشع فلسفة وعلما ومرحا وسخرية، واما اذا حضر الشاعر معروف الرصافي، فان مساجلة وحربا ادبية ستقع لا محالة، ستبدأ باردة تتحول الى عاصفة فخصومة قد تطول فصلح قد يسهم فيه الملك فيصل شخصيا .

يقال ان ملكا حيّا شاعرا قائلا :واو،) قاصدا بذلك قوله سبحانه وتعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون (ففهم الشاعر مُراد الملك ورد التحية قائلا :إن،)قاصدا بذلك قوله سبحانه وتعالى :إن الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها(، ومن يومها دأب الملوك على ابداء المودة الحذرة للشعراء .

تجاهل الزهاوي كل المعاتبات التي ارسلها صاحب مقهاه القديم، ورفض كل العروض التي قدمها له حتى يعاود الجلوس عنده، ظل مواظبا على ربط حماره بباب مقهى امين والجلوس هناك، وحتى عندما اختاروه لترؤس لجنة استقبال الشاعر البنغالي طاغور والحاصل على نوبل للآداب، إصطحبه في زيارة للمقهى .

)لكل فيلسوف حمار يركبه، وآخرون لم يفكروا ان يصيروا مثله فلاسفة(

على احد كراسي هذا المقهى كتب طاغور قصيدة تقول ترجمتها الى العربية :

"مضى الليل، دخان مصباحك سوَّد زاويتك الضّيقة، أطفئ نور مصباحك، لقد انبثق الفجر في الشّرق ... ليبصر كلّ واحد منّا في ضوئه الآخرين، وكلّ من يسيرون على نفس هذا الدّرب نحو المكان المقدّس ."

وعلى ذات المقعد في ذات المقهى جلس بعد سنين الشاعر بدر شاكر السياب فرأى صبيا يساعد مومسا عمياء على قطع الشارع، لشراء زيت تضيء به مصباح غرفتها، فكتب عنها قصيدة مُرّة يقول في احد مقاطعها :

ويح العراق !أكان عدلاً فيه انكِ تدفعين

سهاد مقلتك الضريرة

ثمناً لملىء يديك زيتا من منابعه الغزيرة؟

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين؟

وفي هذا المقهى ايضا استقبل الزهاوي السيدة ام كلثوم عام 1932 عندما زارت بغداد واحيت العديد من الحفلات، القى في مستهل احدى الحفلات قصيدة عصماء ثم دعا ام كلثوم لتشدو فتسحر الملائكة مشيرا بيده الى صفوف السيدات، والشياطين ايضا مشيرا بيده الى مقصورة زملائه الشعراء .

صار اسم المقهى حتى في حياته، مقهى الزهاوي، وظل كذلك الى يومنا هذا، هناك جلس الشاعر الجواهري شابا ابن 27 عاما، فقال له الزهاوي وكان يومها ابن 70 عاما: تراهنني، فرد الجواهري الشاب: على ماذا نتراهن يا استاذ؟ رد الزهاوي :نقطع انفاسنا ونرى من يصمد اكثر، استجاب الجواهري احتراما للأستاذ، بدأ التحدي وخسر الجواهري، وانتهت المعركة التي اراد منها الزهاوي– على ما يبدو -كسر هيبة الشاب الشاعر ومنعه من ترديد الشعر امامه .

(انتظرني حتى اموت، فيأتي دورك، او فلتمت قبلي)

فعل ذلك مع الرصافي الذي قرأ قصيدة عصماء، اعجبت الجالسين، فثارت حفيظة الزهاوي، فما كان منه الا ان قاطع التصفيق مستدعيا وبصوت عالٍ ولدا كان يتجول في المقهى ويبيع المكسرات، حضر الولد وقال أؤمرني عمي؟ فقال له الزهاوي :عندك قميص شبابي على حجمي؟ !!!استغرق الجميع في الضحك، وطوى الرصافي ورقة قصيدته وخرج من المقهى غاضبا .

(الغضب جنون مؤقت واستسلام دائم)

دعاهما الملك فيصل لعشاء صلح، فصار الزهاوي يغرف الرز حتى انهار الديك الرومي أمامه فقال منشداً :عرف الفضل أهله فتقدما.....، وأسرع الرصافي لتكملة البيت فقال :كثر النبش تحته فتهدما!..

(لا تجد العقول راحتها واستقرارها الا في التحدي)

كان فارق العمر (دزينة من السنوات) لصالح الزهاوي يجبر الرصافي على تمرير كثير من سخرية الزهاوي به، ومن ذلك ما قاله حين سألوه عن رأيه بأمير الشعراء احمد شوقي؟ فرد عليهم بسخرية: شنو هذا شوقي !!والله تلميذي الرصافي يقول شعرا افضل منه .

(تقول الحكمة الصينية :السخرية برق النميمة)

خلال حفل اقيم بمناسبة عودة الزهاوي من مصر، انشد الرصافي مرحبا ومتناسيا الضغائن:

أرى بغداد من بعد أغبار / زهت بقدوم شاعرها الزهاوي

زهت بكبيرها أدبًا وعلمًا / زهت بطبيب علتها المداوي

وما الآداب في بغداد لولا / يراع جميلها إلا دعاوي

إذا ما قال في بغداد شعرًا / رواه له بأقصى الأرض راوي

كان الزهاوي معتدا بنفسه كثيرا، ويرى نفسه فيلسوفا وعالما في الفلك والجاذبية وشاعرا، اتقن الى جانب العربية الكردية والتركية الفارسية وترجم منها رباعيات، وكان الزهاوي كما الرصافي متحررا ومناديا بتحرير المرأة ونزع الحجاب، ففي دفاعه عن المرأة كان الزهاوي يدعوها الى التمرد:

مزّقي يا ابنة العراقِ الحجابا / أسفِري فالحياةُ تبغي انقلابا.

واما الرصافي فقد دعا الرجال الى الانقلاب على التقاليد القديمة :

تركوا النساء بحالة يرثى لها / وقضوا عليها بالحجاب تعصبا

قل للألى ضربوا الحجاب على النسا / أفتعلمون بما جرى تحت العَبا

شرف المليحة أن تكون أديبة / وحجابها في الناس أن تتهذبا

جهر الزهاوي بمعتقداته حتى عدوه ملحدا، فدخل الى المقهى يوما رجل غاضب يصيح بالزهاوي ويقول له :يا كافر، انت تعتبر ان اصل الانسان قرد، يعني انا والدي قرد؟ !!!فما كان من الزهاوي الا ان كشف عن رأسه فبان شعره العبثي وابرز اسنانه المهترأة وقال :حاشا لله يا ابني، انا ما كنت اقصد ابوك انت، انا كنت اقصد ابوي انا .

كان الزهاوي يقول:

ما على كفري عند خصومي سند / أنا ما بحت لهم بالذي أعتقد

خلافا للرصافي الذي ظل يفضل العثمانيين على الانكليز ويرفض الملكية، كان الزهاوي قريبا من السلطة وكان يرى ان لدى الانكليز حكمة وعلما واساليب ادارة يحتاجها العراق .وكان قد سبق للزهاوي أن هاجم السلطان العثماني عبد الحميد بقصيدة أدخلته السجن، يقول في مطلعها:

تأنّ في الظلم تخفيفا وتهوينا / فالظلم يقتلنا، والعدل يحيينا

يا مالكا أمر هذي الناس في يده / عامل برفق رعاياك المساكينا

لهوتَ عنّا بما أوتيت من دعةٍ / فابيضّ وجهك، واسودّت لياليا

لم يدم سجنه طويلاً .إذ أطلق سراحه وأعيد إلى بغداد، بعد شروط ووساطات عديدة، إلا أن الزهاوي قال في السلطان عبدالحميد بعد فترة من خروجه من السجن:

فأيديك إن طالت، فلا تغتر بها / فإنّ يد الأيام منهنَّ أطولُ

واما الرصافي فقد قال عن الملك فيصل انه يعد ايام الشهر ليقبض الراتب، فعاتبه الملك قائلا :أنا الذي أعد أياماً وأقبض راتباً ؟ !!فأجابه :أسأل الله أن لا تكون كذلك وجلس على الكرسي دون استئذان، فقال الملك :لماذا كل هذا العداء يا معروف؟ فأجابه :يا صاحب الجلالة لا يوجد شخص واحد في الدنيا يقول أن لي مطمعاً في مقامكم لأجل أن يكون لي عداء معكم، ثم قام من مجلس الملك دون استئذان .

نُفي الرصافي إلى خارج العراق، بسبب هجومه على الإنجليز والحكومة القائمة، وعاد بعد سنوات إلى بغداد بفضل عفو ملكي، وفي حفل الترحيب به، انشد الزهاوي، من دون ان يفوت فرصة للنيل من غريمه:

لقد عاد معروف أخي بعد غيبة / فأهلاً برب الفضل والأدب الوفر

كلانا يريد الحق فيما يقوله / وإني وإياه إلى غاية نجري

فخذ بيدي اللهم في كل دعوة / وهذا أخي معروف اشدد به أزري

كتمها الرصافي في نفسه، ولكن الزهاوي لم يكتِف بذلك فأضاف في مناسبة أخرى قصيدة قال فيها:

وللشعر في بغداد روح جديدة / وللشعر أعباء أقوم بها وحدي

ولا بد أن البيت الأخير قد اثار غضب كثيرين وليس الرصافي فقط، وهو ما فتح باب مساجلات ادبية برع فيها الشاعران وانصار كل منهما، حتى ان كل واحد منهما انشأ مجلة لمهاجمة الآخر .

تزامل الشاعران كنائبين عن العراق في مجلس المبعوثان بالاستانة، كان الرصافي ذا نظرة محافظة، واما الزهاوي فقد مال للتحديث والعصرنة .

طرح الرصافي على المجلس منهاج الدراسة لكلية البحرية، فلاحظ الزهاوي أن المنهج يشمل دروساً لصحيح البخاري، فاعترض قائلا :هناك خطأ في التصور، الأسطول يسير بالبخار، لا بالبخاري.

كان الاثنان من أصول كردية ونشآ في العهد العثماني، وكانا محبين للعلم ولتحرير المرأة، ولكن طالعهما السياسي لم يكن واحدا كأصلهما، وتطلعاتهما ونظرتهما المنسجمة والمتماثلة الى الدين.

سألوه مرة :من هو أنت يا زهاوي؟ فأجاب" أنا سمّيت في صباي بالمجنون، لأنهم لم يألفوا حركاتي وطباعي، وفي شبابي سمّيت بالطائش لنزعتي إلى الطرب والفن، وفي رجولتي سمّيت بالجريء لمقاومتي الظلم والاستبداد والتخلّف، وفي شيخوختي يسمّوني بالزنديق لمجاهرتي بالآراء والأفكار الفلسفية .وأنا لو لم أكن شاعراً أو فيلسوفا، لاخترت أن أكون محامياً."

توفي الزهاوي عام 1936 عن 73 عاما، ووقف معروف الرصافي على قبره يرثيه وهو يبكي:

أيها الفيلسوف قد عشت مضنى/ مثل ميت وصرت بالموت حيا

أنت فرد في الفضل حياً وميتاً/ حزت في الحالتين ذكراً عليا

سوف أبكي عليك شجوا وإن/ كنت أبكيك في الحياة شجياً

ومات الرصافي بعدها بـ 9 سنوات، فقيرا يعتاش على راتب تقاعدي مقداره 12دينارا، تذهب 3 منها سدادا لسلفة، غير ان التمثال الذي اقيم له في بغداد، يعرضه في احسن حال ومرتديا بدلة انيقة، فيما لا يشاهد في العراق أي تمثال للزهاوي .

بعد وفاة الرصافي بـ 57 عاما طبعت مكتبة المانية مخطوطه الكبير والذي لم يكتمل والمعنون" الشخصية المحمدية "او" حل اللغز المقدس"، في هذا الكتاب يذهب الرصافي الى ابعد مما ذهب اليه الزهاوي في نقد الدين، حتى انه ينكر النبوة، ويتعامل مع النبي محمد) صلعم (على انه شخصية فائقة العبقرية والذكاء، آراء صادمة من اديب تربى في بيت متدين، ودرس على يد شيوخ ارادوه ان يكون معروف الرصافي كخليفة للشيخ الزاهد المتصوف معروف الكرخي .

وُلد معروف الكرخي لأبوين نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم، وهو صبى . وكان المؤدب يقول له قل" :ثالث ثلاثة"، فيقول معروف" :بل هو الواحد الصمد"!، فضربه على ذلك ضرباً مفرطاً، فهرب .فكان أبواه يقولان" :ليته يرجع ألينا، على أي دين كان، فنوافقه إليه ."!رجع أليهما، فدق الباب، قالوا" :من"، قال" :معروف"!، فقالا" :على أى دين؟"، قال" :دين الإسلام"؛ فأسلم أبواه.

وكان قاعداً على دجلة ببغداد إذ مر به أحداث في زورق، يضربون الملاهي ويشربون؛ فقال له أصحابه :ما ترى هؤلاء يعصون !أدع الله عليهم"!، فرفع يديه إلى السماء قال" :إلهي وسيدي!، كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة "!فقال له أصحابه :إنما قلنا لك :ادع عليهم"!، فقال" :إذا فرحهم في الآخرة يكون قد تاب عليهم في الدنيا، ولم يضركم شيء ."

لوحة الفنانة العراقية المغتربة نادية اوسي

بغداديات 39

الاغنية بـ 3 دنانير

يؤنبني ضميري عندما استمع لأغنية جميلة ولا اعرف من لحنها وكتب كلماتها، ويزداد هذا التأنيب حدة اذا كانت الكلمات جميلة ومعبرة.

حصل معي هذا في عدة مناسبات، فمرة وانا اعيد الاستماع لرائعة احمد قعبور" يا نبض الضفة لا تهدأ "احترت هل هي لمحمود درويش ام سميح القاسم ام لتوفيق زياد، ام احمد دحبور وبعد البحث تبين انها لم تكن لأي منهم .لقد كانت لشاعر لبناني لم اسمع به سابقا هو حسن ضاهر .

ربما يكون المطرب العراقي ناظم الغزالي اول مطرب عراقي يتجاوز حدود العراق والخليج، وينال اعجاب جيلي الشباب والكهول في مختلف ارجاء الوطن العربي، لم يكن اللحن العراقي عائقا امام من سبقوه من المغنين، ولم تكن قدراته على عظمتها اكبر من قدراتهم، كل ما في الامر انه عثر على نجار يدعى عبد الجبار حسين، وعلى ناظم آخر هو ناظم نعيم .

كان عبد الجبار يدفع عربته ذات الثلاثة دواليب ويطوف حارات الكاظمية بحثا عمن يستأجر مهارته في اصلاح الخزائن والابواب والمقاعد، صار اسمه جبوري النجار .

لم يكن يفضل استخدام المسامير لتثبيت قطع الخشب، فالحديد ليس من جنس الخشب، وكان نتوءات الخشب تخشاه وتبتعد عنه، وركام الاثاث كان يخرج من بين يديه متينا وجميلا، وكذلك كان يفعل بالكلمات، كانت تخرج من بين شفتيه جاهزة للتلحين والغناء .

لن تستطيع تذكر ناظم الغزالي دون المرور بهذه الاغاني التي كتبها جميعا عبد الجبار حسين الذي صار جبوري النجار :

ما أريده ما أريده لـ غلوبي / وعيونه سود سود محبوبي

غلوبي جاني منين جددلي حبي / ومن سحر سوده العين دخلك ياربي

حسدوني كل الناس شلهم عليه / أضحك كذب والنار تلتهب بيه

*****

له خال على صفحات خد / كنقطة عنبر في صحن مرمر

وألحاظ كأسياف تنادي / على عاصي الهوى الله اكبر

دقت شذر يا ناس والشامة عنبر / والوجه مبعث نور والصدر مرمر

قده يابي ومياس ويا الهوا يميل / والوجه بدر التم لو كلكل الليل

خايف عليها وتلفان بيها / شامه ودقة بالِحنك مين يشتريها

وانا اشتري بالروح شامة اللي بخدك / وأرضى عبد مملوك خليني عندك

*****

ميحانه ميحانه / غابت الشمس وللحين ما جانه

حيك ..حيك بابه حيك .. الف رحمه على بيك

هذوله المرمروني / وعلى جسر المسيب سيبوني

عافت عيوني النوم / بعدك حبيبي العين ذبلانه

بلوح القدر مكتوب / بهجرك حبيبي الروح ضمآنه

ضليت انا سهران / وارعى نجومي ليش ماجانه

واتسامر ويا الليل / واجمع همومي وروحي تلفانه

******

يام العيون السود ما أجوزن أنا / خدك القيمر أنا أتريق منه

لابسه الفستان وقالت لي أنا / حلوه مشيتها بتأني ورهدنه

لو تحب خادم خادمها أنا / ولعوف الدوله وأعوف السلطنه

واقفه بالباب تصرخ يا لطيف / لانيي مجنونه ولا عقلي خفيف

من ورا التنور تناوشني الرغيف / يا رغيف الحلوه يكفيني سنه

لون خمري لا سمار ولا بياض / مثل بدر تام واشرف ع الرياض

باللمى تحيي وتقتل باللحاظ / بغنج تحكي وترد بعنونه

****

طالعه من بيت أبوها رايحه لبيت الجيران

فات ما سلم علي يمكن الحلو زعلان

قلت لها يا حلوة ارويني عطشان مي اسقيني

قالت لي روح يا مسكيني مينا ما تروي العطشان

قلت لها يا حلوة ارويني على طولك فرجيني

قالت لي روح يا مسكيني يا طولي زرعة ريحان

قلت لها يا حلوة ارويني على عيونك فرجيني
قالت لي روح يا مسكيني عيوني عيون الغزلان
*****
وله ايضا كلمات اغاني ناظم الاقل شهرة مثل :
ريحة الورد ولون العنبر / بخدودك يا حبيبي الاسمر
******
تصبح على خير تضوي إيامك / في أمان الله تهنى بأحلامك
قلبي يدعي لك حبيبي تصحى ومن تنام / أسعد الإيام وأهنى وأجمل الأحلام

ذابلة وسكره جفونك / والكرى كحل عيونك
هذي ترنيمة خيالي / هديتها بأسمك ياغالي
******
شرد اقدملك هـــدية بعــيد ميلادك ياحبي
اطلب شــما ردت مني مهجتي وعيــني وقلبي
قول واتمـــنى علىّ شرد اقــدملك هدية
قـــــول واتمنى عليّ
*****
سبع ليـــالي وليلتين وليلة محلا الليـــالي
افراح عـــدنه للحلو نغنيله احلـــى الاغاني
*****

احبك واحـب كلمن يحــبك

واحـــــــــب الورد جوري

عبنـــــه بلون خدك .. احبك

ثلاثة دنانير عراقية فقط لا غير، كانت اجرة جبوري النجار على كتابة كل اغنية من هذه الاغاني، ثلاثة دنانير لم تكن كافية لكي يركن عربة النجارة جانبا، او يستبدلها بدكان نجارة صغير.

كان جالسا على المقهى يلعب الدومينو، عندما ترجلت الفنانة زهور حسين من سيارة فاخرة تبحث عنه فناداها :عيني زهور شكو؟، قالت له :اريد تكتب لي اغنية جميلة، طلب عشرة دنانير، وعندما وافقت كتب لها اغنية:

خاله شكو شنهو الخبر احكيلي / فدوه رحتلك ليش ما قلتيلي.

خاله تقوليلي شصار / والله و شعلتيني بنار

خاله عليك الله سمعتي خبر / محبوب قلبي عيني يمكن نفر

قلبك عليه يا حبيبه انكسر

ما يهمني خله يروح ... ترتاح منه الروح

يوم المبارك عيني و انسى العشق / لا تشوفك عيوني ولا احترق.

نتصافح احنا وبالرضا نفترق

و ماكو عتاب ولوم. خاله شكو / بس السلام يدوم. فدوه شكو

واما المطربة وحيدة خليل فقد غنت من كلماته ومن الحان عباس جميل اغنية :

ماني صحت يمه أحا جا وين أهلنا

جا وين، جا وين أهلنا

ولف الجهل بالدار وأبعد ظعنا

حملتوا يا أهلي بليل والولف غافي

اسهر وخلي ينام نوم العوافي

يا الواشي عاد ارتاح واضحك بالفراق

حسبالك اترجاك ولحبك اشتاق

توفي جبوري عام 1979 عن عمر 62 عاما، والآن لا يذكره كثيرون، ولا يعرف كثيرون انه كان واحدا من اثنين وقفا خلف شهرة ناظم الغزالي، اما الثاني فهو الملحن ناظم نعيم وقد توفي بسبب الكورونا في دار للمسنين بمدينة ديترويت الأمريكية، في شهر نيسان من عام الكورونا، عن عمر 95 عاما، قضى اواخرها وهو يحن لأيام الشهرة والطرب الاصيل مع الفنان القدير ناظم الغزالي.

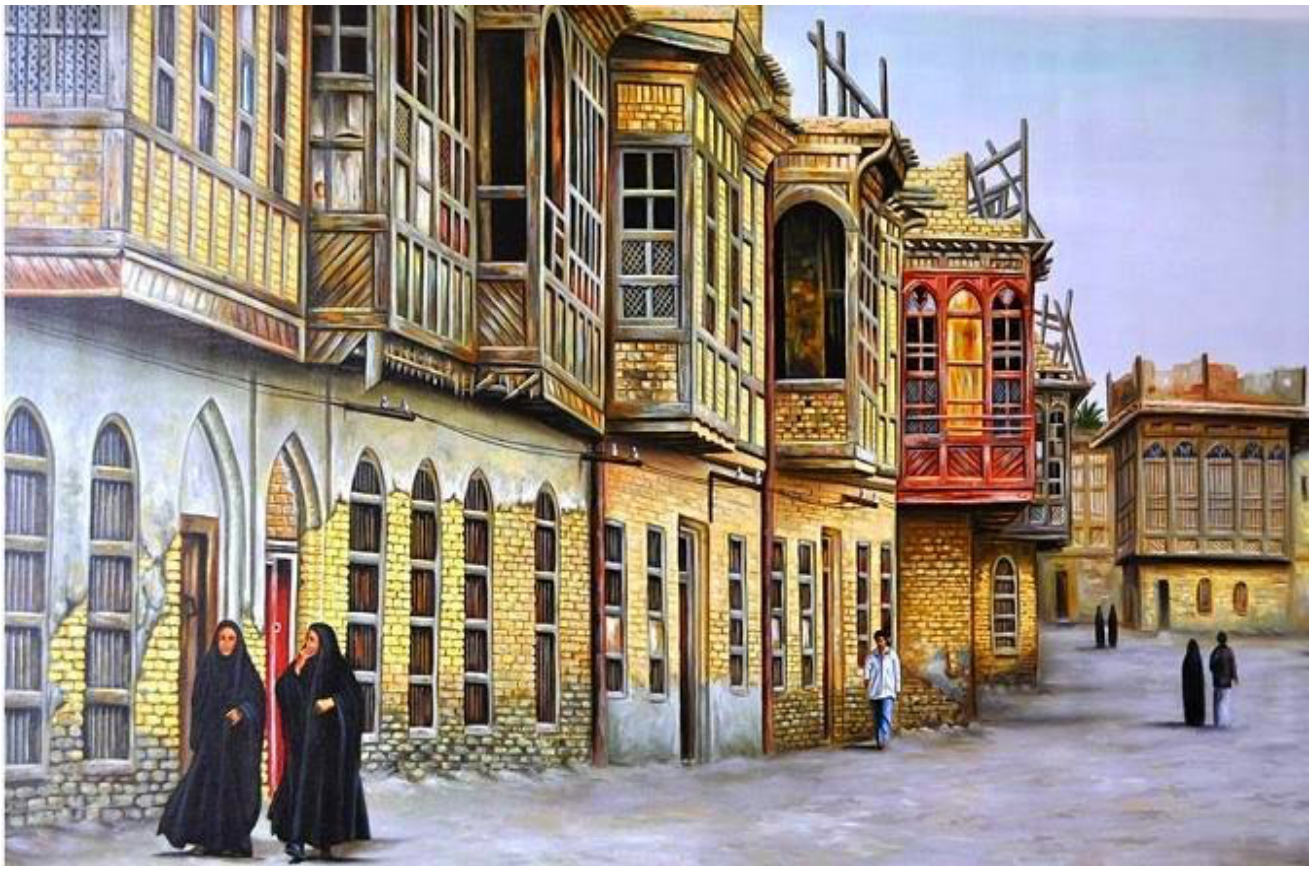

الشناشيل

بغداديات 40

مثل صندوق العرس ينباع خردة عشق من تمضي السنين!

كلنا يعرف الحزن شخصيا، وبعضنا لازمه، كل الناس، كل الشعوب تعرف الحزن، وجربته مرة او مرات، ولكن العراقي خير من يحترف الحزن، واقدر من يستطيع التعبير عنه شعرا وموسيقى وغناء .

يقول مظفر النواب في احدى قصائده:

مو حزن لكن حزين

مثل ما تنقطع جوّا المطر شدّة ياسمين

مو حزن لكن حزين

مثل صندوق العرس ينباع خردة عشق من تمضي السنين!

لم يفشل الفنان سعدون جابر في اداء اية اغنية سوى هذه، ربما لأنه تواطأ مع الملحن في محاولة تناسي ما في هذه الكلمات من حزن، فلم يستطع اللحن ومن بعده الاداء الانصهار مع الكلمات، لتظل القصيدة سيدة نفسها دون تلحين .

مظفر الحزين لا يستطيع الابتعاد عن الحزن حتى في امنياته على ابواب السنة الجديدة:

يا إلهي ان لي أمنية ثالثة

ان يرجع اللحن عراقياً وان كان حزين

ولقد شط المذاق

لم يعد يذكرني منذ اختلفنا أحد في الحفل

غير الإحتراق

كان حفلاً أممياً إنما قد دعي النفط

ولم يدع العراق

يصف النواب الشعر بانه فرح الحياة وحزن الآخرين، ويضيف :جيد اننا نجد وقتا مستقطعا للضحك، في احوالنا هناك الكثير مما يستدعي البكاء، ولكن حزن العراق جريء وغير مستسلم، كحزن الحسين، انا علماني وبعيد عن الطائفية، وارى في الحسين وجيفارا مثلا عليا .

سعدون جابر الحاصل على الماجستير والدكتوراه من لندن والقاهرة في موضوع الاغنية العراقية، يسمي الحزن ذاته شجن، ويرجعه الى ما هو ابعد من لطميات الحزن على مقتل الامام الحسين:

يفيض النيل في موعده فيفرح المزارعون، ويغني عبد الوهاب" محلاها عيشة الفلاح "واما دجلة والفرات فيفيضان في غير اوانهما فيبكي فلاحو العراق، ويغني مطربهم حضيري ابو عزيز:

تتعب، وتعبك موش إلك عمي يا فلاح

بعدهم لا تظن اهجع وارتاح

وللغير الثمر واتعب يا فلاح

كل ذاك التعب يا وسفتي راح

سعدون جابر ومنذ سنوات ضيع وطنه واصبح حاله كحال طيوره المهاجرة التي تبحث عن اعشاشها، آخر ما غناه كان قصيدة صبر ايوب للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد مستندا الى موروث شعبي عراقي عن مخرزٍ نُسي تحت الحمولة على ظهر جمل:

قالوا وظلَّ ..ولم تشعر به الإبلُ / يمشي، وحاديهِ يحدو ..وهو يحتملُ..

ومخرزُ الموتِ في جنبيه ينشتلُ / حتى أناخ ببابِ الدار إذ وصلوا

وعندما أبصروا فيضَ الدما جَفلوا / صبرَ العراق صبورٌ أنت يا جملُ!

صبرَ العراق وفي جَنبيهِ مِخرزهُ / يغوصُ حتى شغاف القلب ينسملُ

سألوا الشاعر كريم العراقي :لماذا أغانيكم حزينة؟ فأجاب بقصيدة مطلعها:

يقولون :أغانيكم حزينة / !هو إحنا ياعمي إيش بإيدينا؟

من آدم ولليوم واحنا / دم تمطر الدنيا علينا

كل يوم فايض بينا طوفان / كل يوم غرقانة السفينة

وفوق الخناجر نمشي حُفّاي / ونغنّي عزة نفس بينا!

من شدة حزن العراقيين يغني مظفر ويشيع كل ميت قبل ان يموت :

هذا النعش لهواي لا تشيعونه / وهوايّ اله محبين هسّا يجونه

إتعمن والعباس بسكن يا العيون / تبكن وهم هنا لو راحوا شلون

هاك ابره هاك الخيط خويه ارد اكلفك / اممزق الدلال كله على عرفـــــــــك

بس بعد يا الدلال بطل ونينك / كلها اصبحت عدوان منهو اليعينك !!

شو خالة ملتمات كلكن على هوايّ / جبته برشيح العين ومراجف جلاي

واما وحيدة خليل فتغني لابنها في المهد :

دللول يالولد يا ابني دللول / يمه عدوك عليل وساكن الجول

يمه، انا من اقول يمه/ يموت قلبي والله يمه

يمه يحقلي لاصير دلي / ترى اطلق الدنيا وولي

يمه على ظليمتي من دون حلي

يمه هب الهوى واصطكت الباب / ترى حسبالي يا يمه خشت احباب

يمه اثاري الهوى والباب كذاب

خويا ماريد من قدرك غموس / والله ولا اريد من جيبك فلوس

يابني يالولد يابني يا يمه / يمه ترى ابني واريد رباي منه

يمه جبتيني للضيم يا حبيّبه يا يمه

يمه اتيت لطرف منازلهم / ترى جيت اسأل غراب البين عنهم

يمه اهل الحموله اش ضل منهم

يمه تمنيت طارشهم يجيني / خويا وتسايله وتنام عيني

يمه تسايله ويبطل ونيني

لفترات مستقطعة ابتسم العراق وفرح، ولكن ما دون ذلك ظل يحزن طوفانا وفقرا ومرضا، او حربا مع ذاته او جيرانه او مع العالم اجمع، ثورة وانقلابا وديكتاتورية ثم طائفية، ظل يبكي ويبكي، وينشر الحزن الشفاف وبعض الامل .

سألوا عراقيا في انتفاضة ساحة التحرير العام الماضي عن العراق فشبهه بسيدنا يوسف عليه السلام :

ليوسف قميص تلطخ بالدم بسبب كيد اخوته، واخر تمزق بسبب كيد زليخة، وثالث ابصرت عين يعقوب من رائحته، واروحنا النازفة تشبه القميص الأول.. وقلوبنا ممزقه تشبه القميص الثاني.. اما وصالنا مع من نحب فلا زال ينتظر رائحة القميص الثالث .

اللوحة للفنان العراقي فاضل عباس

بغداديات 41

قندون ما ذايق شَكَر

مات موسى الكاظم، مسموما في عصر الرشيد، فهاجر اولاده ومن لاذ بهم من بغداد الى الهند البعيد وأصبحوا حكاماً ونوابا لولايتي كشمير والبنجاب، وحازوا من يومها لقب النواب.

قاوموا المستعمر البريطاني فقرر نفيهم، وبين شتى البلدان خيرهم، فاختاروا البحث عن امجاد عفى عليها الزمان في بغداد، اليها نقلوا المقتنيات من ثروات وتحف ومجوهرات، وفيها تناسلوا جيلا بعد جيل فأطل على الدنيا الطفل مظفر عبد المجيد النواب .

كانت ولادته عسيرة، رمته القابلة الالمانية بعيدا على الفراش ظنا انه ميت، رأى شعاع شمس يتسرب من شقوق الباب فصرخ ورنا نحوه، ومن يومها الى يومنا وهو يصرخ ويرنو للشمس .

كان ذاك عام اربعة وثلاثين من القرن العشرين، عامُ توحِد الشيوعيين في لجنة لمكافحة المستعمرين والمستثمرين، لجنة اصبحت فيما بعد الحزب الشيوعي للعراقيين، واليه انتسب الفتى مظفر بعد حين.

في منزل ارستقراطي، ولكن بحي شعبي مطل على النهر ، عاش وحيدا بين 30غرفة، وسط عائلة لها تاريخ مع النفي منذ ايام العباسيين، في جو موسيقي نما، وعلى وقع مراثي كربلائية ترعرعت روحه، فاصبح حزنه لا متناهيا.

استدعاه معلمه حامد التكريتي في الصف الثاني الابتدائي بمدرسة الفيصلية الابتدائية للبنين في الكرخ من بغداد للوقوف امام الصف، كان خجولا وانطوائيا، قال له :يا مظفر النواب اكمل هذا الشطر وسادعك تذهب للبيت مبكرا

قضينا ليلة في حفل عرس.....

دارى التلميذ خجله واجاب بسرعة لكي يتخلص من المأزق:

كأنا جالسون في قرص شمس

ذهل المعلم واستدعى المدير وبقية المدرسين، واحتفلوا بهذا النابغة الصغير واهدوه كتبا، في الطريق الى البيت كان يقول لنفسه :الشعر سهل.

حاكى قصائد ابي تمام وارسلها لمدرسيه فلم يصدقوه، كان شعره موزونا دون ادنى معرفة باوزان الشعر وبالعروض لا ايامها ولا حتى في هذه الايام، كان مظفر النواب يسقط مغشيا عليه ومصابا بالرعاش كما المصروع لشدة وطول ما يقرأ.

أفلس الاب بعد ثراء، واصبح الفتى شاعرا ينحاز للفقراء، وذات انقلاب عسكري للقوميين فقد وظيفة التدريس واصبح مطاردا للبوليس، الى موسكو دون جواز قرر السفر وفي الاحواز ادركه الخطر.

في معتقله سمع سجينا يقرأ اشعاره، لم يصبه الزهو، لكن حقيقة الحرية تعرت امامه، ومع رفاق الدرب في سجن الحلة حفر النفق، ومن هناك الى دمشق انطلق، ولسان حاله:

كنهر يهرب من وسخ البالوعات حزينا

احمل من وسخ الدنيا

ان النهر يظل لمجراه امينا

كان يرى ان الفصحى منحوتة بالصخر مما يجعل التعامل معها صعبا، واما العامية فهي طين يسهل تشكيله، وحضارة العراق طينية، ولكنه اجاد بالفصحى كما اجاد بالعامية، وله في كليتهما ابداعات لا تضاهى، غير ان عاميته وخاصة حين يغنيها بنفسه تسيطر على سامعها حتى ليكاد يحفظها ولو لم يعرف معانيها.

يستطيع العراقيون صناعة القصيدة الجميلة من اي مخلفات كلامية ملقاة على قارعة الطريق، ويستطيعون تلحين اي نص حتى لو كان كتاب جغرافيا، ولكن بستان ادبهم العامي اصبح غابة ساحرة بعد النواب .ترك البستان وركض في الغابة باحثا عن القمر بين الغيمات:

"آنه يعجبني أدوّر عالكَمر بالغيم ..ما أحب الكَمر كلّش كَمر"

كانت عاميته اقوى من فصحاه، كيف لا وقد انسابت بكل محبة واتساق كما الطين والماء، واستقرت مختمرة لتشكل الاهوار، كيف لا، وقد اصطلت بجوع الفقراء وتعب الفلاحين وتنهدات العشاق واشواق المنفيين وعذابات المناضلين في السجون، كانت حزينة ولكن لا تخلو نهاياتها من امل مفرح:

"ايام المزبن كضن ، تكضن يأيام اللف"

سيذكره البعض كأفضل من يصنع مجدافين ولا يملك قارب، او كإسفنجة تمتص البارات ولا تسكر، او كبدوي يمعن في الهجرات ولا يتزود بقطرة ماء، او كإناء تحت شجيرات برية تفيح بدفء مراهقة بدوية، يكتظ حليب اللوز بنهديها، او كخط كوفي يتم صلاة الفجر، او كعلي يتوضأ بالسيف، سيذكره البعض كلاعن كبير لأنصاف اللوطيين ولأولاد القحبة وسوق

التجار، ولأصحاب الشحن السلبية والاحزاب فارغة البطارية، ومن قتلته الردة لأنه حمل في الداخل ضده.

انا سأذكره فيمن حنى الدهر ظهرها فزاد عزمها وزارت في السجن وليدها لتنهاه عن البراءة من الحزب، وفي الاخت التي انكسر خاطرها لان اخيها اعطى البراءة، سأذكره في كل خصلة شعر تشكل مع الشمس والهواء هلهولة بحر، وفي كل سالف يتموج كنايل هوى جبوري، وفي كل ساق كالجمار محجلة بالشذر، وكل صدر خيل يلمع كمرآة من الحناء، في كل دربونة مشمش، وكل شفة تنقط عشقا على خد من الجوري، وكل حسن يصلح شتلا من الريحان يزرع في الجنة، وفي كل قندون ما ذايق شَگَر.

لوحة الفنان نازدار علي خضر

بغداديات 42

مسدس صدام بيد مظفر النواب

رغم رحيل مظفر النواب عن العراق وكون شعره ممنوعا وراسه مطلوبا للنظام البعثي، ظل شعره وخاصة العامي حاضرا على السنة المغنين امثال فؤاد سالم وياس خضر ورياض احمد وغيرهم وكذلك ظلت طبعة ديوانه الاول" الريل وحمد "الاكثر طلبا حتى غلبت كتابات علي الوردي.

كان على مقاعد الدرجة الثالثة في القطار" الريل "المتجه الى البصرة مقابل فتاة ريفية سالت دموعها بغزارة حين مرت بمضارب حبيبها حمد وقريتها ام شامات وظل بعدها لعامين ينام واضعاً القلم والورقة تحت الوسادة ناهضاً ليلاً لتدوين بعض المقاطع في الظلمة" .شيئ ما في داخلي كان يوقظني من نومي ، شيئ يريد مني ان انحته من الحلم والوجدان، شيء ما يريد ان يولد ويظهر للعالم الخارجي.

يروي د .حسين سرمك حسن انه كان في جبهة الفاو التي ابتلعت 55 الف شهيد وكان احد نواب الضباط شابا عاشقا يحتفظ بأوراق متفرقة تشكل في مجموعها صفحات هذا الديوان، كان ترتيب الصفحات مغلوطا ..ولوحات " ضياء العزاوي " غير ذات صلة بالسياق الإخراجي ..رتبت الديوان بطريقة معقولة وكبسته الى غلاف سميك تحسبا من الامن السياسي وسلمته للنائب ضابط العاشق للنواب وشعره، لكن هذا المحب الوله، وبحكم قانون المصادفة المهيب الأخرق، استشهد وأخليت جثته إلى وحدة الميدان الطبية التي كنت أعمل فيها، كطبيب .لم يكن ممكنا التعرف إلى وجه الشهيد، فقد كان مهشما تماما ، عرفته فقط من خلال ديوان " للريل وحمد " بغلافه

الكرتوني البدائي الذي كبسته ونظمته بيدي ، وكان يضعه في عبّه تحت بدلة القتال قبل أن يُستشهد وهو يحتضن ديوان مظفر النواب، في الرحيل الأبدي..

صدام حسين ايضا كان من المعجبين بهذا الديوان، يقول الشاعر يوسف الصائغ في حديث مع صحيفة الخليج الاماراتية، ان صدام حسين، ولم يكن يومها رئيسا ولا كان اسمه معروفا للعامة، رغم شدة نفوذه وسطوته، كان معجبا بأشعار النواب، وخاصة قصائد هذا الديوان ومنها قصيدة) عشائر سعود .(

وسعود هذا، كان مواطنا عراقيا من الجنوب حيث عمل مظفر مدرسا، سعود لم يكن يملك سوى قوة ساعديه، ولا يعتاش الا من عمله في الزراعة، احتج ذات اسى وغضب على تزوير الحكومة لانتخابات الجمعيات الفلاحية فكان القتل بانتظاره، مات سعود، ولكن مظفر أحياه الى الابد، وخلده برائعة ما زالت تداعب مشاعر العراقيين جيلا بعد جيل.

ويضيف الصائغ :هذا الاعجاب كان سببا في الافراج عن مظفر من المعتقل وحصوله على مسدس صدام الشخصي كهدية، وعلى جواز سفر فيما بعد، وهو الجواز الذي استخدمه للخروج من العراق والدخول في حالة النفي القسري.

طبعا لا صدام وجلاوزته ولا مظفر وأشياعه كانوا سيفتخرون بواقعة الاعجاب هذه، فقد تم اهدار دم مظفر النواب بعد ذلك، وكان مقدرا لهذه القصة ان تُغيب، فالقصص لا تحب تواجد بطلين على طرفي نقيض في بلد واحد وزمان واحد.

مظفر روى في سياق مقابلة تلفزيونية اجريت معه بعد سقوط العراق قصة هذا اللقاء وقال انه تم اواسط العام1969 ، واستمر قرابة الساعتين، تم خلالها استدعاء مظفر من السجن لمقابلة نائب الرئيس البكر المدعو صدام حسين، والذي تحدث باحترام ولباقة عن جهود حزبه البعثي لكسب ثقة بقية التنظيمات السياسية وخاصة الشيوعيين، لتجاوز اخطاء السابقين وتجنب حمامات الدم.

صدام :نريد بناء ثقة متبادلة مع كل الاحزاب، حتى نتمكن من تأميم النفط ومنع استيلاء الشركات الاوروبية على الكبريت.

مظفر :ما عندكم ثقة بالأحزاب وهي ما عندها ثقة بيكم.

صدام :انت تثق بينا؟

مظفر :تريد ترجعني للسجن رجعني .

صدام :استغفر الله، الناس يحبوك، ونريدك تشغل المكان المناسب .

مظفر :انا مكاني بين الناس في الرسم والشعر وما احب اكون باي منصب.

صدام :انت تتخيل اننا نساومك، إحنا نعرف انك لا تقبل المساومة، انت معجب بالكفاح المسلح.

مظفر :انا موش معجب بالكفاح المسلح انا مضطر اضطرار .

صدام :انت راسك مطلوب للامبريالية .

مظفر :مو راسي راس الشعب العراقي .

صدام :انا اريد شي يظل بيني وبينك تذكرني بيه وقت الخطورة، هاك هذا مسدس رشاش 16 طلقة مع ذخيرة لتدافع عن نفسك من الناس الذين يريدون النيل منك .

مظفر :انت تقلي كفاح مسلح يعني عندي مسدسي الخاص، وما احتاجه هدية .

صدام بغضب :ما تطلع من عندي الا لما توخذ هديتي .

وافق مظفر على قبول الهدية، لأنه شعر من طبيعة الاسئلة ان هناك عميلا للسلطة في مرتبة متقدمة داخل الحزب الشيوعي، واراد تنبيه رفاقه لذلك،

نادى صدام الحاجب وامره باخذ مظفر الى البيت بسيارته الخاصة.

رفض مظفر قائلا :اذا رحت من هنا الى البيت وبسيارتك يعني انتو شريتوني !!!

فضحك صدام وامر بإعادته الى السجن ثم الافراج عنه بالطرق العادية، واعادة جواز سفره اليه.

طاف مظفر العالم منفيا، لا يصحبه الا الحنين لعراقه الخاص، طاف وطاف ثم عاد ولكن بعد سقوط بغداد، عاد لعراق غريب الحاضر، مجهول المستقبل، عراق يكاد يكون ليس له وليس لغيره، تراه ما زال يقول :حتى ثيابي كانت علي غربة .....كما صرح ذات ليلة من ليل البنسفج، تراه ما زال يبحث عن طعم تلك الليلة ولا يجد.

تشارك مظفر مع الدكتور الفنان سعد الحديثي، في غناء قصيدة) عشائر سعود (بانسجام تام، في هذه القصيدة يختلط الشجن بالكلمة بالثورة، يصبح الدم سرجا لصهيل خيل تقدح حوافرها شررا نحو عنان السماء، فتحرق زهور الارض وتحيلها سوادا، في هذه القصيدة، عيون الخيل كما عيون الرجال تقدح بارودا، ولأجل سعود؛ لا تراجع، فالموت ولا المذلة، ولو اصبحت الدماء نهرا، فان الثوار سيعبرونه نحو مصيرهم.

في هذه القصيدة يبعث مظفر بسعود الى الحياة من جديد، ويرسله بكل هيبة الى الدولة على متن الف قارب (مشحوف)، كل واحد منها يشبه عينا مكحلة.... مسيرة الالف قارب تسير بكل هيبة الى الدولة ويحفها الآف الرجال على ضفتي النهر بعيون مشتعلة.

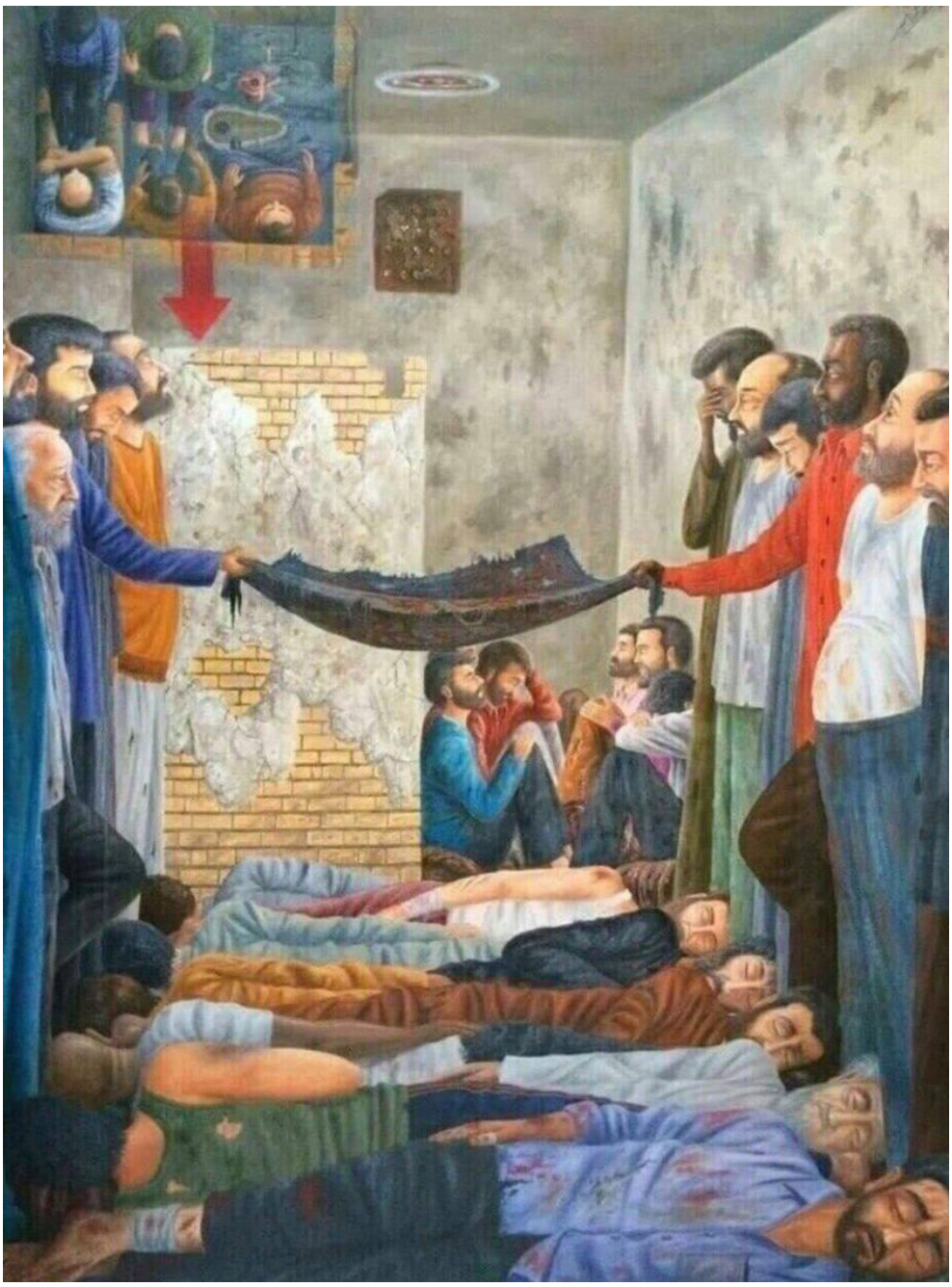

لوحة لمعتقل مجهول تتحدث عن النوم بالتناوب في الزنازين

بغداديات 43

عريان يكتب لأهله على ورقات دفتر البافره

ادهشني كثيرا وقوف مظفر النواب على المسرح وغناؤه المشترك بمنتهى الانسجام والتناغم مع الدكتور سعد الحديثي، وقلت في نفسي :لا يكون هذا الانسجام الا بين صديقين عاشا طويلا، وكنت اظنهما من جيلين متباعدين، ولم اعرف انهما كانا رفيقي نضال وزميلي سجن، لاحقا استمعت الى الشاعر المرحوم عريان سيد خلف يقول التالي:

"كنا مجموعة من الرفاق الشيوعيين في السجن، وسمعنا خبرا مفرحا مفاده ان ايران القت القبض على مظفر النواب وسلمته للعراق، مصدر فرحنا كان ان مظفر بلا ادنى شك سيسجن معنا، وعندها سأشاهده واستمع لأشعاره وقد اسأله ان يستمع لبعض محاولاتي، جاء مظفر، وبعد طول تردد قرأت عليه بعضها، فقال لي :ليش ما تشوفلك شغلة ثانية غير الشعر . !اصابني الاكتئاب لأيام، وبعد اسابيع طلب مني الرفاق اعداد قصيدة لإلقائها في احدى الاحتفالات بالسجن، بدأت الالقاء وعيني لا تريان الا مظفر ورفيقه سعد، بعد مطلع القصيدة هتف مظفر بفرح : انت الآن شاعر ، انت الآن شاعر ، أكمل .ولكنني لم استطع ان اكمل لشدة فرحتي .بعدها حفر مظفر نفقا تحت ارض السجن وهرب."

ظل عريان وفيا للنواب واهداه قصيدة جميلة يقول فيها :

اعز من روحي اعزك / وانت اعز مني

يا حسبة عمر خاويتها من اصباي بطلت صفنتي وما بطلت مني

اجس كلبي الفضي متعوب حد الويل / وادعي للصبر عن لا يفشلني

جسيت الليالي بمرود الحلوات / وليالي العمر بالشيب جسني

اضحك للبكا حد شرهة المنكود / وابجي ابكل مزنتي ابطور المغني

لا زحت الحيا ولا ضيعت معروف / ولا خنت الوفا وربعي اجفلوا مني

اكابر ع الشدايد حد مصب العين / واسكت لو دثو من الناس لاسني

واسامح ما ابحر وين حد الغيض / وازلف لو حوافي الزعل وازني

وينشدني صديقي الما نشد عني / كَبل طبعك الونة وصاير تغني

كبل عينك محطة وخاطرك مكسور / وهسة على الثجالى اتفوت متحني

واجاوبه ابكل برود / وضحكتي بسني

استراحت مستحاتي وعاكستني / الريح لاني من الهموم ولا الهم مني

اني ابن العاصيات ابن الليالي السود / ما ريد الكماري ولا هنّ يردني

رضعتني امي بدمعها من عرفت الصوت / وغطتني ابحزنه من مشت عني

خذت روحي اعلى ضيم وما شكيت الحال / ويمنوني اشتبي وما كلت متمني

علمت البعض نكل الجدم عالكاع / واول ما مشى بالزلك ذبني

واكول اتغيرت والناس ما هي الناس / رضاعة قواطي وخيبت ظني

عريان سيد خلف، رحل عن دنيانا نهاية عام .2018 وكان لمولده واسمه حكاية حيث مات شقيقه الاول بعمر 6 شهور، ومات الثاني بعمر عام

ونصف، ولما جاء هو، خافت أمه على حياته، بل يئست من بقائه على قيد الحياة، فقامت بلفّه بمجرد قطعة قماش وتركته عريانا بلا ملابس.

كبر ووصل إلى تمام عامه الأول، ولم يكن له اسم، وبقي عريانا طيلة هذه المدة، فآثر أبواه تسميته بـ"عريان "لهذا السبب .وكان ما كان من عمر شاعر، تنقل مع زوجته في 28 منزلا خلال عام واحد، بسبب الملاحقات الامنية، وظلت كلماته تتردد على ألسنة أهل العراق، رغم ان اشعاره محظورة وتسبب الاعتقال لمن يتداولها.

78 عاما من عمر الشاعر لا تكفي لإصلاح ما افسده الدهر، اشعار السيد ترسم عالما من الحواس الحميدة والقلوب الرحيمة والمعاني الجميلة، ولكن السجن يجبره على كتابة قصائده على ورقات دفتر البافرة، وان يكتب آخر ابياتها على ارضية الزنزانة :

"هلي...

كتبتلكم مكاتيبي على ورقات دفتر البافره

وضمّيتهن لمن يصحّ الطارش اللي يوصلهن..

وما صحّ الطارش

ومن المامش

قضن وحدة ورا الاخرى

دخان ترس صدري"

وعندما أنهى كل ورق البفرة كتب على أرض الزنزانة:

"هلي وآخر مكاتيبي ...كتبتها الكم على القاع

ابنكم باعته الدنيه..

ولا باع"

يقال ان بيت الشعر ظل على ارضية السجن لسنين طوال بتواطؤ من السجانين.

يتميز شعره الثوري بالقدرة على التأثير في الجمهور وشحن مشاعره، وبحسن استخدام للمفردة والمشاعر الشعبية، دون استخدام للمصطلحات السياسية والثورية والشيوعية، ودون تركيز على التاريخ، ولذلك ظلت الصور العميقة التي ترسمها قصائده راسخة ومستقرة في وجدان العراقيين .

كما تميز شعره العاطفي بحسن استخدام وتطويع المفردات الريفية، وما يصاحبها من احاسيس، دون أي لجوء لاستيراد الكلمات المنمقة او الاحاسيس المفتعلة .حتى صار مدرسة راسخة في الشعر الشعبي، ومصدرا مهما للأغاني .

اشعار هذا الرجل تحولت الى مقولات تراثية يستعين ها العراقيون في دارجتهم للتعبير عن شأنهم اليومي الحياتي .استمعوا لمساجلاته مع رياض احمد ولتسجيلات قصائده صياد الهموم، وحل حلال الخل، وتنيتك عود، وواضح، وعاذرك، وغيرها وغيرها من القصائد البديعة .

عريان سيد خلف ترك تراثا سيخلده الى الابد .سنظل عاجزين عن تفسير قدرة العراق على انجاب الشعراء، وعاجزين اكثر امام ايجاد تفسير لقدرة العامية العراقية على اجتراح ونحت المعنى وجعله رقراقا ينساب عبر الحناجر ويدخل الآذان بسهولة ليستقر في الفؤاد.

منذ استمعت الى اول حوارية بين الشاعر الراحل مع الفنان رياض احمد، وانا منشد غاية الانشداد لأشعاره ودائم البحث في سيرته وتسجيلاته وفهم مفرداته .لم يكن العثور عليه صعبا فأشعاره حاضرة على السنة ابرز مطربي عصره امثال فؤاد سالم وقحطان العطار وسعدون جابر ورياض أحمد وأمل خضير وعبد فلك وغيرهم.

هذه القصيدة رائعة جدا لا تملك الا ان تحبها حين تسمعها بإلقائه :

كاسرت عمري علة عمرك كطعت ليش.....

وحركتك چويه مني وچويه منك

وانتشيت استاهلك شهكت عوافي

وخيبت ظني وصدك وياي ظنك

ما گلت عنك عرگ جفك بجفي

ولا كلت جاسك زعل واشتعل دمي بنار دمك

أصعب وتستسهل تشاغل خيالي

وياخذك غيك خرز خلال تتطشر والمك

ومدري ليش اتمايزك وردة گرنفل

اتيه روحي بريحتك واحتار من يا صفحة أشمك

من جمعني وياك ....من شدني وية طولك

طعمك بية وصرت حلوك ومرك

لنهة ما بالغبشة غبشة بغير عينك

خاف اترز بيك حد كطع النفس

وازهگ واظرك

خاف تطشر ولك وشلون المك

گالوا يحبك ...گلت من شاف گلبه

وجبست دمعي وسكن نبض الگلب عل لا يذمك

ترس جفي سوالفك وحدة على وحدة

وعرك جيدك زمزمي وخجلان تتعذر وأگلك لا يهمك

من تجسني شفايفك

تاخذني غيبة

ومن ترشني بمزنتك ولهان افز

لن روحي يمك اختلي بحسنك

وافز قلبي واطلعك

تلعب بعمري وأخاف لغيري يندلك واظمك

شجان ظرك تختصر بعدك علية

وكلي شكران وحمد للمختصر حسنك بخصرك

تشرب معافه حناني ولهفتي وتسكر بدمي

وتنتشي بغي الشذى وتتعزز عزاز من اجرك

ومن گبل كل شوك عمري من الطوارف... ....

حسبت مثل الوداد الراح ودك

من گبل احس الورع كحّل جفوني

وجنت أظن وكت التهد بيه روحي أهدك

لني كل ما فززن صبري الليالي

وفات وكتي أتوسلك هدوه وكت خليني عندك

وعاذرك لو هدل عودك

من كدر يحمل حسن مثلك وگدك

عاذرك تغتاظ بس من غير إشارة

وشارتك هل بينت ودخيل جدك

عاذرك عل لا يهم قلبك بهمي

وتنترس عينك دمع وتسيل كحلتهه على خدك

لتسيل كحلتهة على خدك

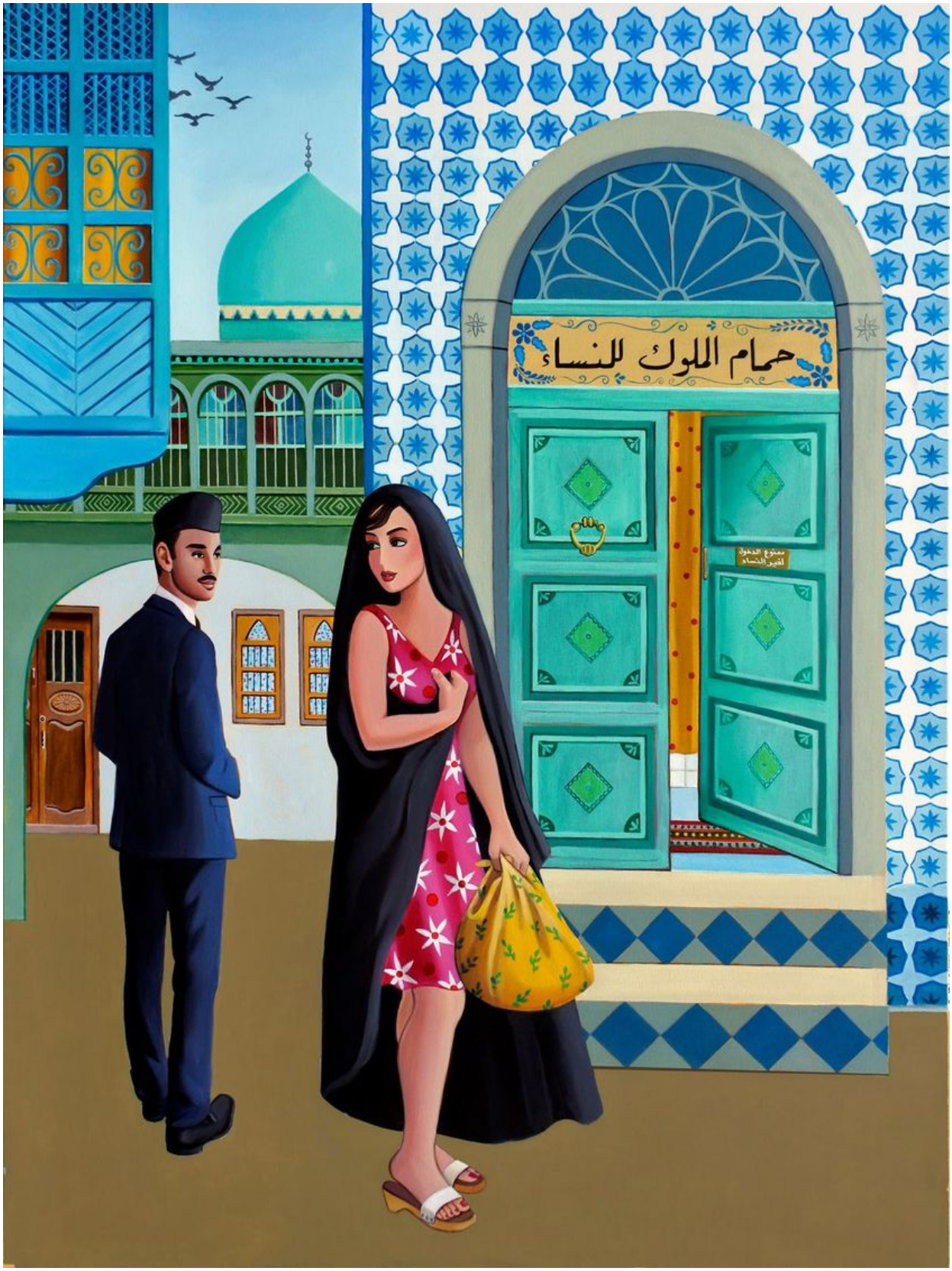

لوحة حمام النساء للفنانة ناديا اوسي

بغداديات 44

ياريحة مسج ياهيل عذبني ونين الليل

اطلق البدو في العراق والاردن لقب" ابو حنيك "على السير جون باغوت كلوب، وهو مهندس وعسكري وكاتب بريطاني تولى مهام عسكرية واستخبارية كبيرة في العراق والاردن ايام الاحتلال البريطاني، قال عراقيون ان سبب التسمية يعود لتطاول وجهه، وقال اردنيون ان السبب هو اصابة فكه برصاصة طائشة في تدريبات خلال قيامه بتأسيس وقيادة الجيش العربي الاردني، وقالت المراجع التاريخية ان فكه اصيب بشظية في الجبهة الفرنسية خلال مشاركته في الحرب العالمية الاولى ضد المانيا .

مهما يكن من امر الاصابة والتسمية فقد طرد الرجل الذي كاد ان يصير ثاني لورنس للعرب، وتم تعريب الجيش، واهملته الحكومة البريطانية فانصرف الى كتابة المقالات والف 20 كتابا في الشؤون الاسلامية والعربية، ومثلما بقيت كتبه وذكراه، بقيت الذكريات المرة التي كابدها المعتقلون السياسيون في سجنين بناهما السير غلوب في الاردن والعراق : سجن الجفر في جنوب الاردن، وسجن نقرة السلمان في جنوب العراق.

ضم المعتقلان خيرة المناضلين الشيوعيين، وتحولا بمرور الوقت وتوالي توارد المعتقلين السياسيين والمثقفين الى مدارس حزبية نضالية .ولم يكن الهروب من السجنين ممكنا لان نجاح المعتقل في الهروب من عذاب السجن وتوحش السجانين سيقوده الى الموت عطشا والضياع الى ما لا نهاية في تلك الصحراء الخالية تماما الا من الضباع والذئاب .

فكر الشاعر العراقي مظفر النواب في حفر نفق اسفل السجن خلال اعتقاله في ايران، وقبل ان يشرع بذلك سلمته الحكومة الايرانية لنظيرتها العراقية، بعد 3 سنوات كان مظفر في سجن الحلة محكوما بالسجن 20 عاما، استخدم مع رفاقه المعالق وما تيسر من ادوات حادة بسيطة، وحفروا نفقا مكنهم من الهرب.

بين مخطط الهرب من السجن الايراني والتنفيذ الفعلي للهرب من سجن الحلة عايش النواب في سجن نقرة السلمان عدة محاولات لهرب زملائه، بينها محاولة الملازم صلاح الدين احمد عام. 1964

كان صلاح محكوما بالإعدام، زارته والدته، وطلبت منه ان يفعل أي شيء لكي لا تراه معلقا في حبل المشنقة، قرر الهرب وشكل الحزب خلية للعمل على تهريبه.

تم توفير كمية من الخبز والتمر والماء وملابس خفيفة وحذاء رياضي وبوصلة وسكين، ومع خروج المساجين للتزود بالماء من البئر وضعوا صلاح في داخل البئر وتركوه هناك، ثارت الآم كليته فلم يستطع الهرب، عاد الى السجن في اليوم التالي مع المعتقلين الذين خرجوا لجلب الماء، فتزود بالدواء والنصائح الطبية، وكرر الهرب بعد اسبوع وبنجاح هذه المرة.

ظل المعتقلون يمارسون اذكى اساليب خداع وتضليل السجانين في عملية العد اليومي للتغطية على فرار رفيقهم، وبعد خمسة ايام من ترقبهم لأخباره السارة، عثر الرعاة على جثته، فبلغوا الشرطة التي اعادتها للسجن طالبة من رفاقه التعرف اليه .

كانت جثته مشوهة وقد نهشتها الحيوانات المفترسة، والطيور الجارحة، كانت يده تقبض على حفنة رمل من شدة الالم في كليتيه .عندما شاع الخبر صاح مظفر النواب من داخل الزنازين :

المنايا اللي ما تزورك زورها / خطوة التسلم ذبايح سورها

طافح على الريح عينه يدورها / أملح من ترابها وناعورها

صقر والبيداء تعز صقورها / وبأثر جدمه تلوذ طيورها

حسافة الدنيا ما حفظت صقرها / وسلمته بليلة عمى ناطورها

في تلك الفترة كانت الكويت قد سلمت العراق الشاعر ناظم السماوي، لكونه مطلوبا للسلطات بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي، اخفى الشاعر خبر اعتقاله عن والده، وطلب من اقاربه ان يبلغوا والده انه يعمل بين مدينتي النجف والحلة، وظل الامر كذلك عدة شهور، الى ان صدر حكم يقضي بسجنه 45 عاما، يقول السماوي :كان لوالدي مقهى في الكويت، وارسل لي يومها رسالة مع احد الاقارب على شكل ابوذية تقول:

كالوا بالنجف ناظم وحلة

واتمنى افك قيده واحله

اصب الجاي للوادم واحله

وانه جايي المرار اشلون بيه

يضيف السماوي رددت له الجواب على الفور اقول فيه:

صب الجاي يبو ناطم وحله

وبصبري افك قيدي واحله

انا مو بالنجف صدك وحله

انا بربع الخراب وهاي هيه

عايش السماوي كثير من المثقفين والشعراء والادباء خلال فتره سجنه التي استمرت 8 اعوام، ومنهم مظفر النواب وزهير الدجيلي والفريد سمعان وسعدي يوسف وسعدي الحديثي وغيرهم .

اعجب بفتاة كانت تزور شقيقها السجين، كان عمره وقتها 20 عاما فقط، وكانت حبه الاول، ظلا يتبادلان نظرات الاعجاب والابتسام، وصارت في كل زيارة ترتدي فستانا أحمر للتدليل على ايمانها بالشيوعية التي يعتنقها.

بعد عدة زيارات تحايل الى ان اقترب منها وسألها ان كانت توافق على الزواج به، فوافقت ووعدت بانتظاره الى يتحرر من المعتقل.

عاشت في خياله، وصار يرى فيها الفرات والهور وقصب ميسان، و صار يتخيل ان نخل السماوة يتباهى بمرورها من تحته، وان الارض من تحت اقدامها تصير دروبا خضراء للعشق ، وكان كلامها كمطر الصيف، لكنها وبعد شهور توقفت عن الزيارة، وعلم من شقيقها انها تزوجت، فكتب خيبة امله في قصيدة" يا حريمة ."

وحريمة هنا لا تعني التعبير الدارج لدينا للتعبير عن المرأة) حرمة (وانما تعبير كله اسف ومظلومية وشكوى من الحرام وما يرافقه من ظلم وحسافة .

كان اول ما فعله بعد تحرره هو تسليم القصيدة للملحن محمد جواد اموري، ظلت القصيدة عند الملحن عاما ونصف، ولم يلحنها الا بعد دخوله في مرحلة الحزن الشديد بسبب وفاة زوجته، واتفق الملحن والشاعر يومها على

ان يغنيها المطرب حسين نعمة والذي كان يمر بأزمة عاطفية بسبب طلاقه، جاء الشعر واللحن والغناء مطعما بأحزان ثلاثة عشاق :

يا حريمه أنباكت الجلمات..من فوكَ الشفايف

أسنينك العشرين ما مرها العشكَ والعشكَ خايف

لا ولك.. لالا على بختك ماني سالوفه صرت بين الطوايف

يازلف يتغاوى ويه الليل باطراف الكَصيبه

هاك روحي الما غفت والطيف ما مره حبيبه

هاك جرحي الما تعطب وانت عطابه ولهيبه

ظل يكتب لها اشعارا وكأن عمره قد توقف عند العشرين، كتب لها نخل السماوة التي غناها حسين نعمة :

نخل السماوة يكول طرتني سمرة / سعف وكرب ظليت مابية تمرة

وشجابة للغراف طير المجرة / سابيهة كلها الناس حيرني بامره

مثل ام ولد غركان وابرة الشرايع / كلمن وليفة وياه بس ولفي ضايع

بت باقي بالدلال جاهل يعت بيه / يبجي من اصيح عليه يكطعه من اخليه

وكتب لها ايضا مجموعة قصائد غناها ياس خضر :لا تسافر ، والدنيا ما تسوى زعل، ودوريتك :

دوريتك بين نجمات الثريا وما لكَيتك

يا وسافة تبيعني برخص الامس يلـ مادريتك

روحي وحشه وطيفك الغايب عبرها

وليلي جلمة عشكَـ عذبها صبرها

ولك لو تسوى العتب جا عاتبيتك

وكتب لها ايضا مجموعة قصائد غناها فؤاد سالم :مو بايدينه نودع عيون الحبايب، وصوت الغريب واغنية حجيك مطر صيف :

ردتك تمر ضيف وتسكت اليحجون

حجيك مطر صيف ما بلل اليمشون

ما تنسى ولفك كنت اعتقد ياهواي ماتنسى ولفك

ضيعت عرفك يا الواعدت شو بساع ضيعت عرفك

ويه النحبهم ويه النودهم قسمه ونصيب الشوك ويه النودهم

وكتب لها ايضا مجموعة قصائد غناها سعدي الحلي :مسافات السفر، وودعت السماوة بليل واغنية عشق اخضر :

اريدك بالحلم خطار مر بيه عشك اخضر

واتيهن نجمه بـ سنينك ادور طيفك الـما مر

خذانه الواهس من بعيد نزف شموعنه بشوكك

مشينه وايد تشبج ايد ننـــــاغي الروح بطيوفك

العمر من غير حب شيفيد لمني بعصرة جفوفك

ياريحة مسج ياهيل

عذبني ونيــن الليل

شكلك وانته نسمة صيف شكـــــــلك يا الذهب شعرك

لاجن مـــــــا تحب يا حيف تصد وتعذب بهـــــجرك

وادلل بالصبر سنتين خلص صبري الحمل صبرك

يكــحله بجفن كل سمرة

ترا الدنيا بطرك عشرة

اجيتك من بعد غربه اجيت بليلة كمريه

هذاك اني نبع صافي يا خايب دغش ما بيه

اجيتك والعتب بالعين عتب عاشق بحنيه

واكلك هجرك شسوى

لون ادري فلا اهوى

لون ادري فلا اهوى

وغنى له سامي كمال قصيدة حيرتني وقصيدة صارت سوالف :

غيرک فلا حبيت ولا بعد اوالف ... يا ولفى بس وياک تحله السوالف

حبيتک وما اجوز اى وحگ دجله ... شما تبتعد وتروح بطيوفى تحله

قصة الحب وياک صارت طويله ... ياهو البعد عيناک انه اشتكيله

وغنى له كثيرون بينهم سعدون جابر اغنية تلولحي :

تلولحي بروحي كصيبة تلولحي

تمرجحي بكلبي قصيدة تمرجحي

احنه خلانه وكتنا تراب بحلوق الرحي

شما يطول الجرح بينا يطيب بس ما ينمحي

همت من غير راحة بال .. بس طرواك تبرالي

على جروحي الجروح تنوح .. حالي شد عزم حالي

واهيمن ناحر ويه الريح .. يا ريح الجفة شعالي

زل وابعد يا كلبي بعيد ذب الحبل ع الغارب

تحن تبغي الورد وانت السكم بـ ودادهم شارب

والوبن من ونين الروح .. وبجف الدمع ذايب

واظنك والظنون جنون .. حتى الظن طلع خايب

بعد ثلاثين عاما على خروجه من السجن كان مارا فوق جسر الاحرار فالتقاها صدفة، عرفها وعرفته، بكى وبكت، تأمل وجهها وقال لها على الفور :

تقاسيم اللي بوجهك والتقاطيع

صدگ ما أجامل حلوة كلش

وخمسين اللي بعمرك چنه عشرين

وشكلك ذاك شكلك لون مشمش

واذا خدك الأيسر فرط رمان

تره خدك الأيمن طعم كشمش

قبل اشهر ظهر الشاعر ناظم السماوي على شاشة احدى الفضائيات، فاستذكر رفاقه في سجن نقرة السلمان وتمنى السلامة وطول العمر لصديقه الشاعر مظفر النواب الذي يعاني وضعا صحيا صعبا هذه الايام، وترحم على صديقهما المشترك عريان سيد خلف وقال يرثيه :

التابوت كلشي يشيل

مثل ساعي البريد يجيب و يودي

بس الزين من ينشال بالتابوت

مثل سعف النخل صيف وشتا يسدي

ومثل الهور طبعه ويّا القصب معروف

ومثل غبشة شمس وتعاشر البردي

وعزيز الناس ما يرخص بوقت الموت

الفرق معروف بين البرحي والزهدي

الذهب الابريز يغلى من تضمه القاع

خبيرة القاع تعرف طبعه ما يصدي

لوحة شرفة على نهر العشار للفنان والباحث العراقي علي آل تاجر

بغداديات 45

معين بسيسو من غزة الى الديوانية

الشاعر معين بسيسو، ابن النار، الذي تجرّع مع حب غزة مرارة الرحيل عنها، وربط على راسه عصبة حمراء تحمل اسماء محطات ومواعيد الرحيل، تحول كل اصبع من اصابعه الى ناي حين عاد اليها.

في محطة رحيله العراقية، اهدى نسخة من ديوانه الاول" المعركة"، ونسخة من رواية الأم لمكسيم جوركي، لتلميذ عراقي يطحن سعف النخل الأخضر ويعجنه ويصنع منه أقراصا يجففها تحت الشمس ويأكلها، ولكن التلميذ مات قبل ان يكمل قراءة الرواية ...وضع سعفة من النخل وسط الكتاب ومات...

كان معين موعودا بجولات اخرى من الموت، والتظاهر والاعتقال قبل ان يجلس في العام 1978 لكتابة ذكرياته" دفاتر فلسطينية "ومن بينها دفتر كامل عن تفاصيل السنة التي قضاها مدرسا للغة الانكليزية في المدرسة الثانوية المختلطة في قرية الشامية بمحافظة الديوانية العراقية، في مقدمة هذه الدفاتر يوجه معين بسيسو الشكر للحزب الشيوعي العراقي، ويقول في دفتره انه لا يوجد حزب شيوعي ارتبط بالشعر كما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي .

****

لقد تصدى الحزب الشيوعي العراقي– حزب يوسف سلمان -رغم كل اعبائه في مرحلة 1959 للمؤامرة التي كانت تستهدف تصفيتنا الجسدية في زنازين

السجن الحربي، بعد ان غسلت ايديها تماما من اسمائنا– اجهزة الاعلام المصرية – اذاعة صوت العرب – احمد سعيد .

لقد قام هذا الحزب العزيز بنشر اسمائنا، والجرائم التي سبقت ورافقت عملية اختطافنا، وجعل من قضية الحزب الشيوعي في قطاع غزة وقضية الجبهة الوطنية قضية من قضاياه، والآن تقوم– طريق الشعب -بنشر حلقات هذه الدفاتر على صفحاتها .

سافرت الى بغداد وكان في جيبي عقد مدرس، اول ليلة سهرت فيها في بغداد مع ناظم حكمت، وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة نبيذ وتفاحا وديوان شعر ناظم حكمت، وفي الصباح سافر معي ناظم حكمت الى الديوانية ومنها الى قرية الشامية، ولقد ظل يسافر معي .

اكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون، كانت المشكلة اين اقيم، وناظر المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي .

تطوع احد المدرسين العراقيين واستضافني تلك الليلة، وحمل البواب حقيبتي الوحيدة .دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه، وبعد العشاء قادني الى البيت الذي قبلني كضيف فيه .

حينما فتحت الحقيبة وجدت ان شيئا ما قد حدث ونظرت الى المدرسين الثلاثة فكانوا يبتسمون .لقد تم تفتيش الحقيبة، عباس العادلي يتقدم مني فاتحا ذراعيه وهو يلوح بديوان المعركة : اهلا بك في العراق .

كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة هو اوراق اعتمادي كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين، لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلما ارتبط الحزب الشيوعي العراقي، لقد كان الحزب رئة من الشعر .

في مدرسة الشامية كنت ادرس اللغة الانكليزية .يطحنون سعف النخيل ويعجنونه ويصنعون منه اقراصا يجففونها تحت الشمس ويأكلونها، هؤلاء كانوا تلاميذي .

لبعضهم كنت اعطي دروسا مجانية خاصة، وحينما ارسل احد الاقطاعيين "الشيخ رابح عطية "احد رجاله ليضربني، كان ابا لتلميذ كنت اعلمه بالمجان، سقطت الهراوة من يد الاب، كان عامل مضخة للمياه، وكان اول من قدمت للحزب الشيوعي العراقي .في ذلك الوقت من بداية عام 1953 كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد، من اجل وطن حر وشعب سعيد .

واتصل بي الحزب بعد ثلاثة اشهر من وجودي في الشامية، ولقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب .

كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات، كانت مدرسة مختلطة، وفي قرية في العراق عام 1953 ، كنت ادرس اللغة الانجليزية، وعباس العادلي يدرس الرياضيات، وكاظم الشمرتي يدرس اللغة العربية، ومدرس رابع نسيت اسمه كان يدرس الجغرافيا والتاريخ.

وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب، وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الآن في العراق.

حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق، كان من بين اليهود المطرودين شيوعية يهودية عراقية،

رفضت ركوب الطائرة فضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ :هذا وطني .

ومثلما الطائر تمتلئ حوصلته بالقمح، يمتلئ صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب .

مرة قرأنا قصيدة الجواهري في مديح ولي العهد، وكانت صدمة كبيرة لنا نحن الذين قرأنا الجواهري، فقررنا في خلية الشامية وبالإجماع :حرق محمد مهدي الجواهري .

كومنا دواوينه واشعلنا فيها النار، وفي التقرير الشهري للحزب كان اول ما كتبته هو قرار اشعال النيران في قصائد الجواهري، وجاء رد الحزب في صورة منشور كان عنوانه" محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الاكبر " هكذا علمني الحزب كيف استخدم النيران وبشكل آخر .

في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولى مالية البيت لشهر، في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت اعود ومعي سبعة او عشرة طلاب، وهكذا افلسنا في منتصف الشهر، لم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقالا ولا بائع طيور .

وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض، وفجأة التمعت عينا عباس العادلي، كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت، وبدأنا العمل فورا كاننا كنا نفكر في موضوع واحد، كل منا انقض على حمامة ولقد فوجئ الحمام، فلقد كان طول الوقت يمشي بيننا، منذ ذلك الوقت عشنا على اكل الحمام، وربما كنا اول من اكل الحمام في قرية الشامية .بعد ذلك اصبحت عملية صيد الحمام صعبة جدا فلم يعد يهبط من اعشاشه على سطح بيتنا وينزل الى صحن الدار .

كان علينا ان نستخدم السلم لاصطياده في اعشاشه، ووضعنا السم فوق الجدار وكان مخلعا، صعد عليه عباس العادلي بعد حوار طويل، مد عباس يده الى عش الحمامة ولكنها زاغت من يده وطارت وهي تخبط وجهه بجناحيها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط .وفي الصباح رآه الطلاب وهو يعرج ورأوا الكمامات على وجهه، ولم يعرفوا ان مدرس الرياضيات سقط من علو 3 امتار وهو يصطاد حمامة .

بدأت منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية .كل شهر كانت تأتي البوسطة وكنت قد اقمت سقفا سريا ثانيا تحت سقف حجرتي لأخفي المطبوعات، ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهور، ولكننا كنا بالنسبة لأهل القرية اربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمون الدروس المجانية للطلاب ويسهرون يصححون الدفاتر .

"فريد ناجي – "حتى النار لا يمكن ان تمحو اسمه من يدي – كان اعز طلابي وكان مصابا برومانتيزم في القلب .استعار مني رواية" الام لجوركي، ومات ولم يتم قراءة الرواية .وضع سعفة نخل في منتصف رواية الام وبعدها توقف قلبه عن الخفقان، حملناه فوق سيارة وذهبنا لدفنه في مقبرة النجف، لقد رأيتهم وهم يغسلونه، ولكنهم لم يستطيعوا ان يغسلوا اسم جوركي من فوق جلده .اردت ان ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا ربما خافوا ان يقوم كتاب بعمل انقلاب تحت التراب .

الخلية الاولى اعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت اهم الاحداث في المدرسة .

بدأ حبر المناشير يفوح في شوارع الشامية وبدأت الرقابة البوليسية تشتد، كان هلي ان افعل شيئا ما كي افلت من المصيدة، وجاء مندوب من الحزب وطلب مني السفر معه فورا الى بغداد، سافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد.

في بغداد كان قرار الحزب ان اغادر العراق، لقد انتهت السنة الدراسية ووزارة المعارف لن تجدد عقدي، ثم علي ان احمل معي رسالة الى الخارج، وكانت رسالة الحزب حقيبة من الخشب امتلأ بطنها بمطبوعات الحزب .

ولا ازال اذكر انني اصررت على حمل الحقيبة الخشبية :

- اذا قبضوا علي فلا يهم، اما انت فهم يحتاجون لك كثيرا.

وسلمني الرفيق الحقيبة ومضيت بها الى فندق الرشيد .

كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة، وكانت من اجمل الهدايا التي حملتها في حياتي، وانا مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من غزة كان يعمل في العراق اسمه كمال الطويل، حينما وصلت الى مطار القاهرة عرفت انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى الحقيبة الخشبية ولقد اخبرته بمحتوياتها حتى يتخذ قراره، ولم يتردد، ضم حقيبة الخشب الى حقائبه وانطلق بها خارج المطار، ولقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق) خ . ش (الذي طلبت منه تقديم الحقيبة اليه، وهكذا نمت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى قطاع غزة.

حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية، كنت احس بعجلات القطار وهي تكتب فوق القضبان منشورا جديدا للأرض.

****

لم تكن عجلات القطار هي التي تكتب المنشور الجديد للارض، لقد كانت اشعار ومواقف معين بسيسو هي من تكتب تاريخ الارض، فخلال الغارات الاسرائيلية التي سبقت مشروع توطين لاجئي غزة في سيناء، وخلال المظاهرات والصدامات مع الجنود المصريين رفضا لهذا المشروع، انطلق الشاعر معين بسيسو ورفاقه وطلَّابه في مظاهرة اولى وقاموا بتجريد جنود المباحث من بنادقهم.

في اليوم التالي، كان مع طلَّابه، لكن ليس في الصف وانما في سجن غزّة المركزيّ .بعدها تحولت نشرة" الشرارة "الى منشور ضد التوطين، وكذلك الحصص الدراسية.

وفي التظاهرة الثانية، حُمِلَ بسيسو على الأكتاف .وارتفع الهتاف" :لا توطين ولا إسكان، يا عملاء الامريكان"، تقدَّمت التظاهرة، اولها في شارع عمر المختار، وآخرها في حيِّ الشجاعيّة.

وفجأة انطلق الرصاص من خلف شاحنة عسكرية .. فسقط حسني بلال، عامل النسيج في المجدل واللاجئ إلى غزة .هشَّمت الرصاصات رأسه وصدره وفخذيه .احترقت الشاحنة العسكريَّة وهرب رجال الشرطة، واندفع الرفيق يوسف اديب طه لرفع العلم الفلسطيني فوق مقر الحاكم العسكري فأصابته رصاصة قاتلة ....ارتفعت الأصابع وفوقها دم العامل المجدلاوي

الغزي .في هذه اللحظات هب معين بقميص ممزق وصدر مشرع للرصاص وهو يهتف:

الدم : دم دم ... سال الدم ... الدم :دم دم , عاش الدم

يا فم حسني بلال ... الدم سال وقال

الموت للرجعية ... الموت للاحتلال

بعد أيام وقف معين بسيسو فوق حائط ليعلن باسم اللجنة الوطنيَّة العليا، سقوط مشروع توطين اللاجئين.

الحكومة المصريّة لم تكن لتسمح بمرور هذه التظاهرات دون عقاب، ففي منتصف ليل 9 آذار1955 ، بدأت حملات الاعتقال، وجلس مكبلا في إحدى العربات العسكريّة محمد يوسف النجار، وفي ثانية فتحي البلعاوي، وكان بسيسو في الثالثة .مضت بهم العربات إلى سجن مصر العموميّ.

نعم لنْ نموتَ، ولكننا سنقتلعُ الموتَ من أرضنا

هناكَ ...هناكَ ...بعيداً بعيدْ ...سيحملني يا رفاقي ...الجنودْ...

سيُلقون بي في الظلامِ الرهيب سيُلقون بي في جحيمِ القيودْ

نعم لنْ نموتَ، ولكننا ....سنقتلع الموت من أرضنا

هذه القصيدة كتبها بسيسو يومها في العربة العسكرية وتحولت بعد ذلك الى نشيد في كافة الزنازين.

في فصول اخرى من كتابه" دفاتر فلسطينيَّة "يروي ابن حيِّ الشجاعيّة، مذكّراته عن أحداث هذه الهبة ويوميّاته في السجون المصريَّة، حيث قضى ستة اعوام على فترتين.

كانت ماكينة الحلاقة تحرث رؤوس المعتقلين، وكانت الكرابيج المصنوعة من اسلاك الهاتف المجدولة بعناية تحرث ظهورهم، وكنت اتخيلها لا تحرث الا ارض الوطن ولا ترسم الا خارطته على ظهورنا.

أنا لا أخاف من السّلاسل فاربطوني بالسلاسل

من عاش في أرض الزلازل لا يخاف من الزلازل

لمن المشانق تنصبون لمن تشدوّن المفاصل

لن تطفئوا مهما نفختم في الدّجى هذي المشاعل

الشعب أوقدها وسار بها قوافل في قوافل

لم يكن مسموحًا للفلسطيني غير تدخين أصابعه، رائحة البول تملأ الزنزانة، تريد أن تفعل شيئاً، فتبدأ باكتشاف جدران الزنزانة وبابها الحديدي .هذه هي جزيرة الفلسطيني :أربع شجرات من الطوب الأصفر المدهونة بالشيد الأبيض، والسماء هي باب الحديد.

تمَّ تقديم عرض يقضي بالإفراج عنهم، ولكن دون التفكير بالعودة لغزّة، رفضوا ذلك تمامًا، وأعلنوا إضرابًا عن الطعام استمرَّ الى ان تم الاتفاق على الإفراج عنهم على دفعات، وإعادتهم جميعًا إلى قطاع غزة.

ولم يَطل الأمر كثيرًا حتى عاد بسيسو إلى السجن الحربيّ برفقة زوجته صهباء البربري، وكانت أول فلسطينيَّة تدخل السجن الحربيّ، قضت فيه

أربعة أشهر في زنزانةٍ انفراديَّة، ثم رُحلت إلى سجن النساء في القناطر الخيريّة.

وضعوا كلَّ معتقل في زنزانة انفراديَّة، وحده وجَردل بول فقط .في اليوم الثلاثين، سُمح لهم بحمل جرادل البول خارجًا لإفراغها وغسلها .يومها، أمسكوا بالهواء، ورأوا الشمس.

عند طلوع الفجر .....ساقاومْ...

ما زالَ في الجدارِ صفحةٌ بيضاءْ

ولم تذبْ أصابعُ الكفينِ بعدُ...

هناكَ من يدَقْ

برقيةٌ عبر الجدارْ

قدْ أصبحتْ أسلاكُنا عروقُنا

عروقُ هذه الجدرانْ...

دماؤنا تصبُّ كلُّها،

تصبُّ في عروقِ هذه الجدرانْ...

برقيةٌ عبرَ الجدارْ

قد أغلقوا زنزانةً جديدهْ

قد قتلوا سجينْ...

قد فَتَحوا زنزانةً جديدهْ

قد أحضروا سجينْ...

من السجن الحربيّ تم ترحيله إلى سجن الواحات .حيث يصارع المعتقل من أجل حبّة أسبرين، وحيث معظم المعتقلين مصابون بالدوسنتاريا وسوء التغذية، لم يكن مسموح لهم ارتداء الأحذية، كانوا يلفّون أقدامهم العارية بالخِرق أو بقصاصات الجرائد للسير فوق الرمال المشتعلة.

"نحن هنا للموت، ويجب ألّا نموت "هذا ما قاله المؤلف والمترجم المصري المعتقل فخري لبيب، لمعين بسيسو عند دخوله سجن الواحات .وكان على معين ورفاقه أن يفعلوا شيئًا، لكي يلفتوا انتباه الذين يمشون بأحذيتهم فوق الكرة الأرضية، فاعلنوا مع رفاقهم المعتقلين من الشيوعيين المصريين الإضراب المفتوح عن الطعام .في اليوم السادس عشر انتهى الإضراب بانتصار زهرة عبّاد الشمس على الكرباج.

في ليالي السجن المعتمة، حيث لا قلم ولا ورقة كان معين بسيسو يكتب بأصبعه في الهواء وحين يجد قلما كان ينقل ما كتب في الهواء على ورق السجائر .ذات يوم، زاره صلاح خلف) أبو إياد(، وهرَّب معه رسالة سياسية وقصيدتين مكتوبتين على ورق السجائر .كان ينام وهو يحلم بسكّة الحديد في غزّة.

أنا في المنفى أُغنِّي للقطار

وأُغنّي للمحطة

أيّ هزَّة

حينما تُومضُ في عينيَّ غزَّة

حينما تلمعُ أصواتُ الرِّفاق

حينما تنمو كغاب من بروق ورياح

حكاية معين حكاية كثيرين في فلسطين ومصر والعراق وغيرها، حكايا مرة تحتاج الى من يكتبها، على امل ان لا تتكرر .

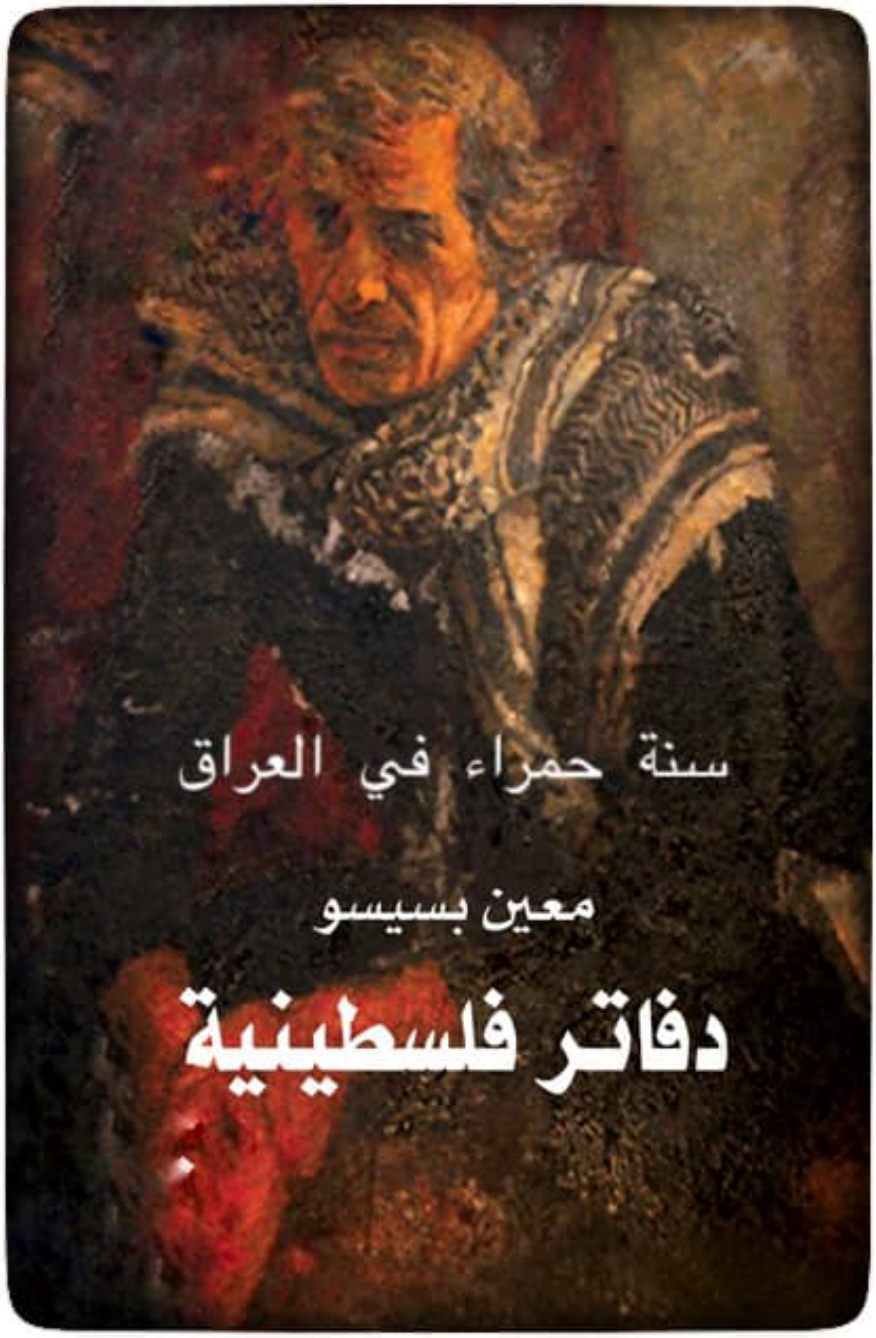

لشاعر الفلسطيني معين بسيسو

بغداديات 46

عودة اللقالق

في ارشيفي ذكرى بعيدة تعود لأواسط الثمانينيات من القرن الماضي حين زرت اربيل عاصمة اقليم كردستان وشاهدت ذلك العش الكبير جدا على قمة مأذنة المسجد القريب من قلعتها الشهيرة.

كان العش لطائر لقلق عملاق، بات واحدا من ساكني المدينة الوادعة المنقسمة بين آمال متعددة بعضها اسلامي وبعضها شيوعي في انتظار مستقبل لا يستطيع ابنائها التكهن به.

كان عش الطائر يكبر عاما بعد عام ومعه تكبر القصص التي يطيب للناس اضفاء طابع الغرابة والطرافة عليها، حتى لتعتقد ان لقلق اربيل اقدم من قلعتها ومسجدها، ولم يكن يزعج اهل اربيل اي شيء اكثر من سؤالك :متى جاء هذا اللقلق الى هنا؟ فهم يريدون منك ان تعتقد انه موجود هنا منذ الازل.

يسيطر اللقلق على الزائر، فحيثما تجول في ساحة المدينة او دار على بسطاتها التي تبيع قطعا صوفية ومنحوتات خشبية وصور لأطفال بديعي الجمال بزيهم الكردي المزركش، يشعر ان الطائر يراقبه من عليائه بسرور، واذا ما اعتلى الزائر الطريق الدائري الصاعد الى القلعة البائسة جدا في حينه، تجده سينظر الى اعلى في اكثر من اتجاه ليتحقق ان اللقلق ما زال يشاهده.

واذا ما جلس الزائر الى مطعم ليأكل الكباب ويشرب لبن اربيل فانه ودون ادنى شك سيختار مقعدا يستطيع من خلاله مواجهة هذا الطائر الضخم.

يهاجر هذا اللقلق بداية الشتاء فينتظره الاكراد طالبانيين وبرزانيين وبينَ بين، بشغف لان موعد عودته هو الفلك الذي تسبح فيه احتفالات النيروز ، ورغم ان موعد الاحتفالات مرقوم ومعروف الا ان المزاج الشعبي يميل لربطه بعودة اللقلق الى عشه الذي يكبر عاما بعد عاما ويتموضع باستقرار عجيب فوق مأذنة المسجد.

يقول بعضهم انها هجرة عادية للبحث عن الدفء، ويقول بعضهم انه يذهب الى الاماكن المقدسة للحج، لا يأتي الحج احيانا في الشتاء، ولا يتوافق التقويم الهجري للحج والميلادي للنيروز لتصدق المقولة، ولكن طائرنا يحوز رتبة الحاج لقلق على السنة العامة.

هجرت اللقالق مدينة اربيل بعد اندلاع الحرب بين جماعتي الزعيمين الكرديين مسعود بارزاني وجلال طالباني عام1994 ، واصابة لقلقها الشهير برصاصة غادرة اخترقت عشه، واسقطته مضرجا بدمائه على ارضية المسجد الذي حمل اسمه، اسلم الروح وهو يراقب الهواء يعبث بريشاته المتهادية نحوه بتماوج حزين، اسلم الروح وهو يعاتب المتقاتلين بأبيات شعر سطرها الشاعر الاربيلي نزار فتاح عندما اختصر مأساة لقلق أربيل بأبيات شعرية حفرت على جدارية معلقة بالجامع، تقول:

زمان كنت أعيش مع آلام جراحاتكم، وأذرف الدمع لتاريخكم المصبوغ بالدم، كنت أحمل إليكم كل سنة بشرى نوروزكم، العشق منعني أن أفارقكم، ولكنني قتلت بأيديكم.....

يقول الكاتب الاربيلي شيرزاد شيخاني ان هذه القصيدة تذكره بـ» قصيدة اللقالق «الشهيرة للشاعر الداغستاني الأكبر رسول حمزاتوف، الذي ألفها

باللغة الروسية، عندما زار» ساحة السلام التذكارية «لضحايا القنبلة النووية بمدينة هيروشيما وتمثال الفتاة ساداكو ساساكي.

كانت ساداكو بنت عامين فقط عندما نجت من القنبلة، ولكن الاشعاع الذي اصابها اودى بحياتها وهي بنت اثني عشر ربيعا ونصف، وفيما هي في المستشفى كانت تطوي الاوراق على هيئة طير مؤملة ان تكمل الالف، حتى تتحقق امنيتها كما تقول الاسطورة اليابانية.

طوت المسكينة 644 طائرا فحسب قبل وفاتها، ثم أكمل أصدقائها طي الطيور المتبقية ودفنوها جميعها معها، وتحولت هي الى تمثال يحمل طائرا ورقيا، قال فيه الشاعر الداغستاني :يبدو لي أحيانا أن جنودنا الذين لم يعودوا من ميادين الوغى لم يخلدوا إلى أسرة المجد بل تحولوا إلى لقالق ورقية.

ذهب دم لقلق أربيل المهدور ظلما وعدوانا، ومنذ ذلك اليوم لم يعد أي لقلق يعشش فوق مآذن الجوامع بأربيل .يقال ان محافظ اربيل وافق بعد ضغوط على فكرة اقامة نصب تذكاري لهذا اللقلق، ويقال ايضا ان لقالق جديدة متناثرة بدأت تفد الى ارض العراق.

عودة اللقالق للمدينة مؤشر على الامان، فاللقالق لا تبني اعشاشها الا فوق المآذن والكنائس، فالأصل ان جوار هذين المكانين سيكون آمنا وروحانيا، وهذا ما استلهمه الفنان العراقي المغترب محمود فهمي عبود في لوحته عودة اللقالق، لقد تفاءل كثيرا حتى سمح لطائر اللقلق ان يقترب اكثر فيبني عشه الكبير فوق منزل، وسمح لفتاة بغداد ان تنام على سطح منزلها دون غطاء وبمنتهى الاطمئنان.

لوحة عودة اللقالق للفنان العراقي المغترب محمود فهمي

بغداديات 47

فهمني إنت من يا ملة؟!!

يطلق العراقيون لقب لُوكي) تنطق كافه بإيقاع يتوسط بين الكاف العادية والقاف، فتصير كأنها كاف مقلقلة(، يطلقونه على كل متملق ومنافق ومتلون ومصلحجي .

لن تجد جذرا او اصلا لهذه الكلمة لا في العربية ولا في اللغات التي دخلت الى العامية العراقية كالفارسية والتركية والهندية والانجليزية والروسية . وهو ما يفتح الباب امام الاجتهاد والتخيل وما قد يصاحبهما من تاليف وتفصيل على مقاسات شتى وتحوير وتضليل وتجنيد في شتى الاتجاهات.

قد يصح الاعتقاد ان لوكي آتية من اللكلكة، اي كثرة الكلام والقيل والقال، وهي فعل مقصود للشر، او مهارة سيئة تفضي بصاحبها الى امتلاك وجهين على الاقل، على عكس اللجلجة وهي التعثر في الكلام والانحباس المتقطع للسان، ارتباكا وتردد او حيرة وخجل .ويقال عن كثرة الكلام في اللغة الدارجة :لك لك، وعن الكلام الفارغ كَلا كَلا.

وقد يصح الاعتقاد ان لوكي، والكلكلة، والكلا كلا، واللوك لوك، جميعها مستمدة من ذلك الطائر الغيور جنسيا والذي يضحي بافراخه اذا نقص طعامه، والمسمى لقلق، يدعم هذا الاعتقاد امتلاك اللقلق لرقبة طويلة نسبية تدور بسهولة ومنقار طويل جدا وحاد ينفتح وينغلق بسرعة كبيرة، ويصدر اصواتا مزعجة سريعة التكرار شديدة الرتابة، ولا تشبه شيئا سوى اصطكاك او طرطقة عظمين ببعضهما البعض .

يقال عن المتملق والمنافق هزاز ذنب، والذنب للحيوان والطائر، واللقلق يهز ذنبه ايضا كلما غرس منقاره في الماء لاستخراج سمكة او في باطن شجرة او بين صخرتين لاستخراج دودة يقتات بها.

ولآن العراقيين مغرمون وماهرون في نحت الكلام فقد اصبح الاسم المتعارف عليه بينهم للمنافق هو لقلق .وفي اللغة الفصيحة رجل ملقلق يعني رجل حاد لا يقر في مكان ولا في تحالف.

في بغداد يروى إن طائر لقلق اختار برج كنيسة ليبني عشه، مما سبب إزعاجاً مستمراً لشماس الكنيسة فأشتكى أمره للقس، لأنه كلما قرع ناقوس الكنيسة تساقط عليه القش وفضلات اللقلق المتيبس، فأوصاه القس بأن يأخذ طبقاً ويضع فيه كبد جمل مملحة بشكل كبير ويضع بجانبها إناء فيه خمر، فعندما يأكل اللقلق كبد الجمل المملح يعطش ويضطر لشرب الخمر فيسكر ويصبح ثقيل الحركة وغير قادر على الطيران فيصعد إليه الشماس ليمسكه.

وفعلاً اتبع الشماس التعليمات بحذافيرها حتى سكر اللقلق، فصعد إليه الشماس وأمسكه من رقبته وقال له باللهجة العراقية) :فهمني إنت من يا ملة؟!!، يهودي شلون تاكل لحم جمل؟!!، نصراني شلون تقضي حاجتك على الناقوس؟!!!، مسلم شلون تشرب عرك) خمر(؟.!

اشتهرت القصة وشاعت بين الأجيال حتى ذهبت مذهب المثل) مثل لقلق الكنيسة ما ينعرف شنو دينه؟؟ (لا مسلم ولا مسيحي ولا يهودي، أي لوصف من لا دين له ولا مبادئ ولا ثبات، ولا يحترم الأديان ولا الشرائع السماوية، يعمل بوجهين، ويتكلم بلسانيين .واختزل البغداديون المثل فأصبح لقلقي وباللهجة العراقية" لكلكي أو إملكلك "لتختصر وتصبح" لوكي ."

بغداد التي تكره طائر اللقلق تحفظ له غيرته على اهل بيته وتروي عنه تجربة أجراها عالم فرنسي حيث قام بوضع بيض الدجاج في عش أنثى اللقلق، بعد أن أزال بيضها دون أن تراه، وراح الذكر والأنثى يتبادلان إحتضان البيض إلى أن فقس، ولكنه فقس دجاجا و ليس لقالق، وكانت مفاجأة بالنسبة للزوج الذي طار بعيداً بينما بقيت الأنثى في مكانها تتطلع للفراخ باستغراب.

وبعد ساعة تقريباً حضر الذكر ومعه مجموعة من اللقالق الذكور وراحو يضربون الأنثى بمناقيرهم ضرباً مبرحاً حتى فارقت الحياة وأتجهوا بعد ذلك إلى ضرب الفراخ الصغيرة حتى الموت.

وقال الشاعر العراقي على لسان انثى اللقلق التي فارقت الحياة مظلومة ومطعونة الشرف:

ذبحتني گِدّام ربعك وأنا أفديك .....كسرت گلبي مثل كسر الزجاجة

يالقلقي ما چنت أخونك مع الديك ...البيض اللي بعشنا من دجاجه

قسوة اللقالق أكدها الاتحاد الالماني لحماية البيئة حين ذكر أن أعداد طيور اللقلق التي تلقي بصغارها خارج الاعشاش تزايدت نتيجة التراجع المستمر في الغذاء، بسبب الجفاف في مناطق شرق ألمانيا.

لوحة الفنان نبيل علي

بغداديات 48

هفت سين ونوروز مجيد

اصيب ملك فارس المسمى أزديهاك بلعنة لشدة ظلمه وجبروته، ونما على كتفيه ثعبانان نهمان لا يشبعان، اشار عليه مستشاروه بان يطعمهما أدمغة الأطفال الأكراد، استجاب ازديهاك لمشورتهم وظل يفعل ذلك .تقول الحكمة الكردية" :العقل ليس حنطة حتى يتم كيله"، وعقل هؤلاء المستشارين لم يكن حنطة، وأحيانا يكون" الطربوش كبيرا والرأس فارغ (كرأس الملك تماما .

ظهر البطل الكردي كاوا والذي كان يعمل حدادا في اصفهان، فقدم للملك دماغ خروف بدلاً من دماغ ابنته .وسار باقي الأكراد على نهج الحداد كاوا، وقدَّموا أدمغة خراف بدلاً من أدمغة أبنائهم الذين هرَّبوهم إليه في الجبال . تقول الحكمة الكردية" :الموت اقل مرارا من الهزيمة "و" الخوف مقبرة الذئب "والحداد كاوا لم يكن خائفا.

ومع مرور سنوات طويلة شكَّل كاوا جيشاً جرَّاراً من الأطفال، وتمكَّن من التغلب على الملك الظالم، وقتله بمطرقته الحديدية، وأوصل رسالة النصر لشعبه عبر البلاد عن طريق إشعال النيران على رؤوس الجبال .الدنيا لا تدوم لأحد، هكذا تقول النار.

كان ذلك في يوم الاعتدال الربيعي، يوم تساوي الليل مع النهار، يوم تفتح الازهار، وانقشاع الزمهرير وحلول دفء الشمس وبركتها، اعتبر الاكراد يوم النصر يوما جديدا) نوروز(، وصار ذلك اليوم مطلع سنتهم الكردية

والتي احصوا منها الى الآن 2632 عاما .يقول المثل الكردي" :حتى العشب يرفض ان يظل تحت الصخور ."

وظلوا يحتفلون بهذا اليوم باشعال النار على رؤوس الجبال في انتظار انتصار آخر، على اعداء آخرين غير ازديهاك او الزحاك او الضحاك .حين ننتصر يتوجب علينا ان نكتب التاريخ ونحن نحتفل .

يرفض بعض الاكراد هذه الرواية الاسطورية، ويقول بعضهم ان النوروز هو يوم نزول سيدنا آدم عليه السلام الى الارض، ويقول بعضهم ان النوروز قديم جدا وان من الطبيعي ان تحتفل به حضارات عديدة، لأنه يوم اعتدال الربيع وتفتح الزهور .لا انتصار دون هوية .

ويرفض آخرون الرواية جملة وتفصيلا، ويقولون انها كذبة فارسية، وان ازديهاك لم يكن ظالما ولكن كورش استولى على العرش مطيحا بذلك بالمملكة الميدية التي اعطت الاكراد حقوقهم، وان مجيء كورش سلبهم حقوقهم واملاكهم وشردهم .تقول الحكمة الكردية" :لا تُبنى الأوطان بالأكاذيب"

يؤمن هؤلاء ان الحادي والعشرين من آذار ليس يوم عيد ولا انتصار، وان عيد النوروز هو الاربعاء الاولى من شهر نيسان ففيها اكتمل خلق الحياة من عناصرها الاربعة :الماء والهواء والتراب والنار .وتقول الحكمة الكردية ايضا" :الخرافة التي لا تأكل من ثمارها لا تسقيها ."

في عيد راس السنة الكردية تجتمع العائلة حول مائدة السبع سينات) سبعة حاجيات تبدأ بحرف السين بالفارسية (وتسمى بالفارسية) هفت سين (وتتألف من :

سبزه :الخضرة وترمز للحياة الجديدة

سمنو :حلوى فارسية ترمز للوفرة والبركة.

سركه :الخل ويرمز للنضج الذهني والسلوك الحكيم.

سنجد :ثمرة النبق البري ويشير الى الحب والعطاء.

سكة :مسكوكة نقدية ترمز للثروة.

سير :الثوم ويرمز للصحة والعلاج.

سنبل :السنبلة وترمز الى جمال الطبيعة.

وقد يعوض عن واحد منها بالتفاحة لأنها سيب باللغة الفارسية .

ويوضع جانبها القرآن الكريم، ويتم اشعال الشموع المنتشرة على المائدة والموضوعة مقابل مرآة ترمز للخلق .اضافة الى البيض المطلي بالوان مختلفة والذي يرمز الى الخصب واواني الماء وقارورة فيها سمك أحمر كرمز للحياة.

تفاصيل هذه المائدة وما ترمز اليه مكوناتها تعكس ثقافة وايمان الاكراد ومعتقداتهم، ومدى انسانية تطلعاتهم وارتباط وتداخل تاريخهم بتاريخ الحضارات العميقة من حولهم .تقول الحكمة الكردية" :السيف لا يقطع غمده ."

مباركون هم الاكراد، مباركون ومظلومون، ومثلهم كثيرون، في الظلم وفي البركة، وفي ضياع الدولة والهوية والرواية التاريخية .يقول الشاعر الفلسطيني محمود درويش: "الهوية هي :ما نُورث لا ما نَرِث .ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فَسادُ المرآة التي يجب أن نكسرها كُلَّما أعجبتنا الصورة!"

لوحة (هفت سين) مائدة السينات السبعة، للفنان الايراني الشهير كمال المُلك

بغداديات 49

قلبي لكردستان يُهدى والفمُ / ولقد يجودُ بأصغريه المُعدمُ

كان الملك الناصر صلاح الدين الايوبي محرر بيت المقدس كرديا، من مواليد تكريت العراقية، وتعود جذوره إلى منطقة حرير شمال غرب أربيل، وكان باني مصر الحديثة محمد علي باشا كرديا من ديار بكر عاصمة كوردستان التركية، وحسني الزعيم صاحب الانقلاب الأول في سوريا كان كرديا ايضا.

والزعيم والفيلسوف اللبناني كمال جنبلاط احد ابرز قيادات الطائفة الدرزية كان من اصول كردية، هاجر اجداده من تركيا الى لبنان في العهود الايوبية حاملين اسم العائلة) جان – بولاد (ومعناها باللغة الكردية صاحب الروح الفولاذية .

وكان الفدائي البطل سليمان الحلبي قاتل كليبر قائد جيش فرنسا وحاكمها العام على مصر كرديا ايضا من قرية كوكان فوقاني قرب حلب السورية.

وكان القاضي والمؤرخ ابن خلكان كرديا من اربيل العراقية، والشيخ ابن تيمية كرديا من حران التركية .وكان الامام المصلح محمد عبده رائد الدعوة للتجديد والاصلاح، والاديب والمصلح الاجتماعي قاسم امين رائد حركة تحرير المرأة، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد القارئ الاشهر للقرآن الكريم كانوا جميعا من الاكراد .

عائلة النقشبندي الكردية ومنها كروان السماء وملك الاناشيد الدينية والابتهالات سيد محمد النقشبندي، صاحب ابتهال" مولاي اني ببابك قد بسطت يدي "اصبغت هذه العائلة الكردية اسمها على واحدة من اهم طرق

التصوف، وظلت زعامة النقشبندية كردية بامتياز .وكذلك الطريقة الكسنزانية وقبلهما القادرية الجيلانية وربما الرفاعية ايضا.

لنبتعد عن القيادات العسكرية والزعامات السياسية والدينية والفدائيين، لنذهب الى الادب قصة وشعرا وفكرا، عباس محمود العقاد صاحب العبقريات كان كرديا، ومؤسس المجمع العلمي العربي الاستاذ محمد كرد علي كان كرديا، والاديب محمود تيمور رائد الادب القصصي والمسرحي كان كرديا.

امير الشعراء احمد شوقي ومعه الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وبلند الحيدري جميعا اكراد.

شاعر العرب محمد مهدي الجواهري لم يكن كرديا كان نجفيا، ولكنه ظل على الدوام يلبس طاقية مكتوب عليها Kurdstan ، واهدى للأكراد قصيدة عصماء من 100 بيت عنوانها كردستان يا موطن الابطال، وتمنى فيها لو انه كان كرديا :

قلبي لكردستان يُهدى والفمُ ولقد يجودُ بأصغريه المُعدمُ

تلكم هديةُ مستميت مغرم أنا المضحى، والضحية مغرمُ

ولرُبّ آهاتٍ حيارى شَرِدٍ راحتْ على فم الشاعر تنتظم

ذوَّبتْ آلامي، فكانت قطرةً في كأس من بنوا الحياة، ورمموا

ووهمتُ أني في الصبابة منهمُ ولقد يُعين على اليقين توّهمُ

الشاعر الفلسطيني محمود درويش اهدى الاكراد عام 1963 قصيدة كردستان التي غنتها المطربة الكردية نسرين حميدان :

معكم أنا .. معكم أبي .. أمي

وزيتوني وعطر البرتقال

معكم عواطفنا .. قصائدنا

جنوداً في القتال

يا حارسين الشمس .. من أصفاد أشباه الرجال

ما مزقتنا الريح .. إن نضال أمتكم نضالي

إن خر منكم فارس .. شدت على عنقي حبالي

شيخ الخطاطين حامد الآمدي كان كرديا، ولقد تتلمذ على يديه ابرع الخطاطين العرب والاتراك، المخرج المبدع علي بدرخان كان مصريا وكذلك سندريلا الشاشة العربية سعاد حسني، وطبعا شقيقتها المغنية صاحبة الصوت الدافئ نجاة الصغيرة، ومعهما رشدي اباظة ومحمود المليجي واحمد رمزي وصلاح السعدني، وكذلك الفنان الكوميدي نجيب الريحاني، ومن الممثلين الاكراد في سوريا منى واصف وخالد تاجا .

الصحفي الاشهر عربيا محمد حسنين هيكل ايضا كان كرديا، والفنانان التشكيليان الشقيقان أدهم ومحمد سيف وانلي من الرواد الاوائل للفن التشكيلي في مصر كانا كرديان.

لا اعرف رياضيين عرب من اصول كردية ولكنني اعرف ان اسم الزمالك، سواء الحي القاهري الراقي او النادي الرياضي الشهير هو اسم كردي معناه مصيف الملوك .

إنهم الاكراد، قوم شاء الحظ ان يعيشوا بين العرب وفارس، ولكنهم لم يصبحوا) أعراب فارس (ولم يصيروا) عجم العرب . (

قلبي مع الاكراد المظلومين في ايران الظالمة وتركيا الفاجرة والقطر السوري المأزوم والعراق المقسوم .يقول المثل الكردي" :سيان بالنسبة للشجاع عدوّ واحد أم ألف عدو"، ويضيفون" :لا نستطيع سلخ جلدين من دب واحد."

لطالما احببت الاكراد، احببت ارضهم الجبلية ذات المناخ الاكثر اعتدالا، واحببت ينابيع المياه الحارة والباردة التي تتدفق من ارضهم، والشلالات التي تنشر البهجة والانتعاش مع رذاذ الماء محمولا على النسيم العليل .يقول المثل الكردي" :موج الروح أقوى من موج البحر ."

واحببت ماكولاتهم وطريقة صنعهم للكباب، متبوعا بكاس لبن اربيل المميز، احببت عربيتهم المكسرة، وكيف يقلبون الضاد زاءً فتصير) قزيتنا مثل قزيتهم(، ولطالما احببت عنايتهم بجمالية الحرف العربي ومهارتهم في تخطيطه .يقول المثل الكردي " :لا يوجد من هو أنشط من الغزال لكنه لا يأكل إلا نصيبه . "

ولطالما احببت ازيائهم التراثية الجميلة وطريقة استخدامهم الكوفية كعمامة، واحزمتهم العريضة ذات الاستخدامات والمآرب الكثيرة، واحببت دبكتهم الشعبية وطبلهم الكبير والمزمار، ولطالما قدرت حجم اصرارهم على صيانة هذا التراث من لغة وازياء ودبكة .يقول المثل الكردي" :بدون لغة يضيع الشعب . "

ولطالما تضامنت مع الاكراد ولا ازال، في اصرارهم على حفظ هذا التراث، والوقوف في مواجهة دول وانظمة ظلت تضطهدهم باستمرار،

وتحرمهم من حق التساوي في المواطنة، وحق التمايز الثقافي الذي يضفي تنوعا جميلا .وهما حقان اساسيان من حقوق اي اقلية مهما كان عدد ابنائها . يقول المثل الكردي" :حتى الام لا ترضع طفلها الا عندما يبكي ."ويقول مثل كردي آخر 100" :رجل يشكلون كتيبة، ولكن امرأتين تشكلان قافلة."

عندما تفشل الدولة في تذويب سكانها في بوتقة المواطنة، وعندما تفاضل بين مواطنيها على اساس عرقي او مذهبي او ديني، يصنع المستضعفون دروعهم ويتمترسون خلفها، يحصل ذلك في كل مكان وزمان، حصل مؤخرا في جنوب السودان، وها هو يحصل لغير سبب في قطالونيا الاسبانية واقليم كيبك الكندي، وهناك) رغم الاختلاف الكبير في الظروف والمعطيات والحقائق التاريخية (من يتوقعه للفلسطينيين في اسرائيل .وإذا ما استمرت السياسات الحالية في غير مكان من عالمنا فان مظالم كثيرة ستنشأ وستتلوها مشاعر انفصالية تتحول الى حركات .يقول المثل الكردي" :بين القول والعمل جبال عالية."

سيظل امام الكردي سؤال الهوية، وهو سؤال مطروح علينا كفلسطينيين، وسيصير سؤالا حديا في مستقبلنا المجروح .في قصيدته عن الكرد يقترح محمود درويش الانتصار على الهوية باللغة، والانتقام باللغة من الغياب، رغم ان للكلمات حيلتها لصيد نقيضها، ويضيف :

ان الكرد يقتربون من نار الحقيقة

ثم يحترقون مثل فراشة الشعراء

لوحة المدخل الشرقي للمدينة للفنان مؤيد محسن

بغداديات 50

وأشعمِلت الروزنة قمتي سـديتهه؟!

يعجبني ان تتنافس الموصل وصفد وبيروت وحلب على الاحقية باغنية الروزنا وان تنسج كل مدينة حكايتها الخاصة عن قصة هذه الاغنية التي ابدعتها فنانات كثيرات على راسهن فيروز.

لست شعوبيا ولا اقليميا ولا قطريا ولا عنصريا، وخاصة حين يتعلق الامر بالشعر والفن، بل ان اكثر ما يعجبني من قصائد محمود درويش قوله" كل قلوب الناس جنيستي، فلتسقطوا عني جواز السفر."

يعجبني ان اللبناني مارسيل خليفة ابدع في تلحين وغناء الفلسطيني درويش، كما ابدعت ام كلثوم في غناء السوداني الهادي آدم، والتونسي بيرم، والفارسي الخيام، والباكستاني اقبال، والسعودي الفيصل.

ويعجبني ان يبدع الملحن العراقي كنعان وصفي في تلحين اناشيد الثورة الفلسطينية، فيما يبدع الفلسطيني رياض البندك في تلحين اناشيد الحقبة الناصرية، وفي التلحين لوديع الصافي وفي اكتشاف السورية فايزة احمد والتي ستغني بالمصرية الخالصة اشعار السوري نزار قباني.

كما يعجبني ان اغاني الجفرا التي ابتدعها ابن قرية الكويكات في قضاء عكا احمد الحسن وهو يتغزل بابنة عمه رفيقة الحسن، قد اصبحت لونا غنائيا في سائر بلاد الشام، ويعجبني اكثر ان يؤرخ قصتها العجيبة الشاعر الفلسطيني عز الدين مناصرة، فيلتقطها الملحن والمغني اللبناني مارسيل خليفة فيصنع منها جوهرة فنية خالدة .

ويعجبني ان يحفظ العراقيون لابن نابلس روحي خماش اسهاماته الكبيرة في تطوير الموسيقى العراقية .وان يؤلفوا كتبا عنه .

يعجبني كل ذلك، واعتبره تذكير بالوحدة العربية التي لم يعد احد يذكرها هذه الايام بخير او شر، ويعجبني ان اتذكر كلمات بساط الريح لبيرم التونسي وان اردددها بصوت فريد الاطرش المصري صاحب الاصول السورية الدرزية، وان اتذكر كم ابدع في تلحين وغناء قصيدة عش انت اني مت بعدك للبناني الاخطل الصغير.

ويعجبني ان تغني دمشقية الاصل مصرية الجنسية نجاة الصغيرة رائعة فلسطيني الاصل اردني الجنسية حيدر محمود" أرخت عمان جدائلها فوق الكتفين فاهتز المجد وقبلها بين العينين."

الموصل وحلب وبيروت وصفد والى جانب اللغة والمصير والتاريخ والدم والقهر وتوابعه يجمع بينها تنافس ناعم على تبني المسؤولية عن انطلاق اغنية جميلة ورقيقة هي الروزنا:

عالروزانا عالروزانا كل الهنا فيها

شو عملت الروزانا الله يجازيها

يا رايحين ل حلب حبي معاكم راح

يا محملين العنب تحت العنب تفاح

كل من وليفه معه وأنا وليفي راح

يا ربي نسمة هوى ترد الولف ليا

لاطلع لراس الجبل واشرف على الوادي

واقول يا مرحبا نسم هوى بلادي

يا ربي يغيب القمر لاقضي انا مرادي

وتكون ليلة عتم والسرج مطفيه

لكل مدينة مقطع مضاف لهذه الكلمات او تغيير في مفردة او مفردتين مع بقاء اللحن كما هو، ولكل مدينة رواية خاصة لا تخلو من ابعاد سياسية واجتماعية، ولكل رواية موثوقية تتعزز بمقدار جماهيرية الفنان الذي يشدو بالاغنية :

من تعجبه الاغنية بصوت صباح فخري سيصدق رواية أهل حلب ومفادها ان روزنا هو اسم باخرة كانت محملة بالعنب والتفاح وقد سيرتها تركيا الظالمة نحو شواطئ بيروت بهدف كسر اسعار المنتجات اللبنانية وايقاع خسائر فادحة بمزارعي لبنان، وهو ما كاد يحصل لولا نخوة وشهامة اهل حلب الذين قاموا بشراء كافة المنتجات اللبنانية بالسعر الطبيعي وسوقوها في سوريا ودول الجوار تداركا للازمة وانقاذا للاشقاء ونكاية بتركيا.

ومن تعجبه الاغنية بصوت فيروز سيصدق رواية البيروتيين ومفادها ان روزنا باخرة مساعدات ايطالية وليست تركية وكان من المتوقع ان تحمل القمح والحبوب لبيروت ولكنها للاسف جاءت محملة بالعنب والتفاح.

ومن تعجبه الاغنية بصوت امل مرقص او سناء موسى سينحاز لرواية اهل صفد والتي اعتمدها الكاتب احمد حرباوي اساسا لروايته الاولى" الحب يموت في كانون حيا "ومفادها ان الاهل سجنوا ابنتهم داخل روزنا)الروزنة تعني في فلسطين خرزة او فتحة البئر او المغارة وكذلك هي حجرة مغلقة لتخزين الحبوب لها فتحة من اسفل واخرى من اعلى، وهي الفتحة الصغيرة او الطاقة او الرفوف المحفورة في الحائط (لمنعها من

الالتقاء بحبيب القلب ولم يفرجوا عنها الا بعد طرد هذا الشاب وابيه الى حلب، ولكي تكتمل فصول رواية اهل صفد فقد ذكروا ان الشاب كان خلافا للمنطق السليم يضع التفاح الصلب فوق العنب مما يتسبب بهرسه وتسريع خرابه، وذلك تنفيذا لرغبة والده الذي يبرر هذا المسلك بارتفاع سعر التفاح قياسا بالعنب.

انا مثلكم لم اسمع اغنية الروزنة من افواه العراقيين ولكن الشاعر والكاتب الراحل عبد الكريم العلاف ذكر إنه في أواخر الحرب العالمية الأولى أي 1918، كانت هناك في مدينة الموصل فتاة مخطوبة لأحد أقربائها، وكانا ويتبادلان احاديث الحب من خلال" كوة صغيرة "في الجدار الفاصل بين الدارين، أهل الموصل وبلهجتهم يسمون هذه الكوة" روزنة ... "وأهل بغداد يسمونها" رازونة ... "ولما علمت أم الفتاة أن أبنتها تتحادث مع خطيبها بواسطة تلك الكوه ... قامت بإغلاقها منعاً للاتصال بينهما قبل عقد الزواج، وهنا قالت الأم بعتب : علروزنه الروزنه، كل البلا بـــيهه، فردت الفتاة بتحدي :علروزنة الروزنة، كل الهنـــا بيـهه، وأشعمِلت الروزنة قمتي ســديتهه؟.!

وبحسب العلاف فقد انتشرت الكلمات في الموصل أولاً، فقام الملا عثمان الموصلي بتلحينها، وصار قراء المقام والمطربين يؤدونها في مجالس الطرب، ويبدو ان الاغنية انتقلت بتنقل الملا عثمان بين الموصل وبغداد واسطنبول والقاهرة والشام، ولاقت انتشارا كبيراً، وخاصة بعد اداء فرقة الجالغي البغدادي لها، وبالطبع فقد تغيرت بعض كلماتها وأضيفت كلمات أخرى لها لتناسب لهجة كل بلد.

الموصل الحدباء لم تعد كما كانت وكذلك حلب الشهباء وبيروت الحمراء الشقراء وصفد الشماء، كلها تغيرت، وزالت الروازين من ابنيتها، اما

الاغنية فقد بقيت ولكن دون قصتها في الغالب .قد تنفع المنازل دون روازين، ولكن هل ستنفع الاغاني دون قصصها؟ فلنؤلف قصصا للاغاني واغاني للقصص كي تعيش المدن ولو في الذاكرة الى حين.

الروزنة في الموصل والرازونة في بغداد تجمع لتصير روازين، وهي حاضرة في الشعر الشعبي العراقي كحبل الغسيل في اشعار محمود درويش،

يستعين مظفر النواب بـ رازونة السجن لتجسيد الفراغ العاطفي ويعتبرها نظرة تواسي ميت، او نظرة في دفتر فارغ من الناس، وكما نذر في قصيدة سابقة" من اشوفك انذر النجمات ترجية لسوالفنا "ينذر في قصيدة اخر بتعليق الروازين انتظارا لمقدم الصيف .

واما عريان سيد خلف فيقول بكل تحدي وامل :

وكحه النفس ما تفعل تلين / منبت حزن ومخالف آسنين

واللّيل لو سد الروازين / شمسين حمرا آيخضّر الطين

ويقول في قصيدة اخرى:

يطفال كل العالم يحلوين / يطفال شيلي الثايره وفلسطين

رادت امريكا تبوك كل چلماتكم / ورادت الظلمة تغطي كل بسماتكم

وما كدرت الظلمه تسد كل الروازين / حلوين لو كلما يمر الليل حلوين

رادوا يبعدون الشمس عن الگاع / ورادوا يمنعون الهوه من الشراع

وظنوا بكل ارصاصهم يكدرون / يطفون ومضات الفجر بالعيون

وظلت تلالي عيونكم / وظلت زهية انجومكم

وجروح كل ثاير نياشين / تروي الوفه وتكبر بساتين.

لوحة الفنانة ناديا الاوسي

بغداديات 51

الزقورة: اهرام رافدية

حسب واحدة من الروايات أخذت محافظة نينوى العراقية اسمها من الإله نينا، وهو أحد أسماء الإلهة عشتار عند البابليين، كانت ابجدية لغتهم الاكدية المشتقة من اللغة السومرية ذات الحروف المسمارية تنقسم الى لهجتين : البابلية والاشورية .

لفظة نون بالآشورية تعني" سمك "وأشتق منها أسم العلم) يونان - يونس - ذو النون (والحوت الذي هو سمك كبير ابتلع سيدنا يونس، بعدما خرج غاضبا من اهل نينوى، 33 عاما وهو يدعوهم ولم يؤمن به الا رجلين .

وقعت عليه القرعة 3 مرات، فالقوه في البحر، لم يغرق، لقد انقذه الله والتقمه الحوت 3 ايام، وحيث قذفه على شاطئ رملي انبت الله شجرة يقطين ليأكل منها، وتطرد الذباب عن جسده العاري المغطى بقشريات عوالق البحر .

عاد الى قومه فوجدهم قد آمنوا بدعوته، ومات لتحمل اسمه العديد من المقامات والقبور، مقام وجامع النبي يونس في حلحول بالخليل، ومقامان في لبنان وآخر في سوريا، وواحد هو الاضخم فوق تلة التوبة في مدينة الموصل عاصمة محافظة نينوى .

تحمل هذه المدينة العديد من الالقاب فهي الموصل لانها تصل التجار ببعض، وتصل الجزيرة بالعراق، وهي الحدباء لاحتداب دجلة عند المرور بها واحتداب مأذنة مسجدها الشهير مسجد النوري، وهي ام الربيعين لاعتدال طقسها ربيعا وخريفا، والخضراء لاتساع مراعيها، والبيضاء لان بيوتها القديمة بنيت من الرخام والجص الابيض .

للاسف ما عدت اتذكر اسماء البلدات التي كنا نعبرها في الطريق بالسيارة من بغداد الى الموصل، وما عدت اتذكر ان كنا نأخذ الاستراحة لأكل الكباب وشرب الشاي العراقي المميز في كركوك ام في بيجي ام في غيرها.

كنت احب زيارتها كثيرا فقبل الوصول اليها تسيطر عليك خضرة المراعي الشاسعة وصولا الى الافق، وتجبرك على ترك كل هموم ومشاكل ومتاعب بغداد خلفك، وفيها تلتقي بأناس صقلتهم حضارات متعاقبة وحملوا على اكتافهم وداخل رؤوسهم دروس التاريخ وحكمة الماضي فباتوا مثالا للتعايش ولحسن التنظيم والتدبير والجدية والانضباط.

ولقد فرضت هذه الاجواء نفسها حتى على طلبة فلسطين الدارسين في جامعة الموصل الشهيرة، فكانوا الاكثر تميزا وثقافة وقبولا للآخر، اسماء عديدة تلج الى ذاكرتي الآن بعضها باتت بلا وجوه ووجوه اخرى امست بلا اسماء.

كل زياراتي لهذه المدينة العظيمة اتسمت براحة البال وصفاء النفس، اذكر ذلك جيدا ولا انساه، اذكر جلسات المقاهي صباحا والافطار المكون من لبنة وزيتون وخبز سمون ساخن، مساكين كثر لا يعرفون طعم السمون الساخن، ولم يتذوقوا اللحمة بعجين، ولم يزوروا ملك الكبدة ولا سلطان الكباب ولا امير الباجة.

مساكين كثر لم يتجولوا في شارع النجفي لشراء كتاب او تذوق كرزات الموصل) التسالي (او حمام العليل وسنجار وتلكيف وعينكاوا وبعشيقة التي لا يتجاوز عدد سكانها ال 70 الفا رغم انهم ينتمون ل 6 ثقافات مختلفة،

مساكين كثر لم يجالسوا تركمانيا او كرديا او مندائيا يتطهر بالماء صبح مساء او يزيديا نجا من 72 مذبحة منظمة عبر التاريخ وما زال يصرح بان اليزيدية لا يعبدون الشيطان بل ان لا وجود للشيطان في ديانتهم وانهم يعتبرون الشر من صنع الانسان ومع ذلك يمكن للبشر ان يبقوا اخيارا تماما مثل طاووس ملك الذي نزل الى الارض طوعا – بعكس الشيطان -فتلمس الالم والمعاناة حتى بكى ووصلت دموعه نار جهنم فأطفأها.

مساكين كثر يصدرون احكاما غبية عن اليزيدية ولم يقابلوا يوما يزيديا او سريانيا او شيوعيا عراقيا) للشيوعي العراقي نكهة خاصة لا يعرفها حتى لينين .(

سعت داعش لتغيير كل هذا واعدام روح المدينة وخنق موسيقى اسحق وزرياب والحان الملا عثمان ومقامات السيد احمد الموصلي وترانيم الاخوين جميل ومنير بشير، نسفت مكتبات شارع النجفي وفجرت جامع ومرقد النبي يونس، والمنارة الحدباء التي اعطت المدينة قبل ثمانية قرون اسما آخر يضاف لأم الربيعين.

تاريخ عريق بكاه مسبقا قارئ المقام العراقي احمد عبد القادر الموصلي وهو يغني موشح" للعاشق في الهوى دلائل "من كلمات عبد الله راقم افندي والحان استاذه الملا عثمان الموصلي بداية القرن الماضي.

للعاشق في الهوى دلائل / لا يسمع من كلام عاذل

يا من رحلوا و خلفوني / ابكي اسفا على المنازل

من مقلته رمى سهاما / قد كحلها بسحر بابل

الورد على الجفون غض / والنرجس في الجفون ذابل

ناديت لسائق المطايا / ان كنت الى العقيق واصل

سرتم سحرا و سرى كَليبي / و الركب سرى لذي المحافل

سنة 1986 اقيم فندق نينوى اوبروي الدولي وكان من افخم فنادق البلد بطوابقه الاحدى عشرة وغرفه ال 262وحدائقه البابلية وطرازه المعماري المعروف بالزقورة) الأهرام الرافديه (وهو طراز مستمد من عصر السومريين والاكاديين والبابليين والاشوريين ويرمز الى الصعود للسماء، استولت عليه داعش واسمته فندق الوارثين، هؤلاء الدواعش يجسدون تماما ما قاله نابليون بونابرت" :يرددون باستمرار ان الدنيا ليست دارهم ومع ذلك يضعون ايديهم) القذرة (على كل شيء يستطيعون الوصول اليه. !"

الموصل

بغداديات 52

الاورزدي باك صديق العائلة

يتذكر العراقيون القدامى ذلك المتجر الكبير المؤلف من طابقين واسعين في منتصف شارع الرشيد، ويعرفون ان اسمه اصبح السوق المركزي، ولكنهم ما زالوا يسمونه باسمه القديم اورزدي باك، وعندما تسألهم من اين جاء الاسم سيجيبون دون كبير قناعة بانه نحت للعبارة الانجليزية Ours Day Bag.بعضهم سيقول ان اصل الاسم تركي وهو اورزدي بيك .

والحقيقة غير ذلك تماما فالاسم مشتق من عائلتي تاجرين يهوديين هما عائلة Bach وعائلة Orosdi وقد اشترى التاجران المبنى ايام الحكم العثماني، من شركة عمر افندي الشهيرة ذات الاصول الالبانية، واقاما عليه عام 1920 فرعا لسلسلة متاجر كبيرة يمتلكونها في اوروبا، وتمتاز بالاتساع والتنوع وجودة البضائع وثبات السعر والرقي في معاملة الزبائن.

كان شارع الرشيد مسرحا للعديد من الاحداث الهامة سياسيا وثقافيا وفنيا، وكان اول شارع يعبد في العراق، وعلى اعمدته الضخمة تقوم بلكونات تتزين بالشناشيل، فتظلل رصيفه الواسع وتحمي المشاة من مطر الشتاء وشمس الصيف، وكانت امانة بغداد تقوم كل مساء بتنظيفه مستخدمة المنظفات وخراطيم المياه الكبيرة .

في منتصف هذا الشارع وامام واجهات العرض الزجاجية يقف بواب انيق يرتدي الزي الرسمي قرب الباب الزجاجي الدوار، لم يكن هذا النمط من ابواب المداخل نمطا سائدا وقتها، يستقبل هذا البواب الزبائن من ابناء الطبقتين الوسطى والغنية بكل ترحاب، فيدخلون ردهة واسعة جدا للتسوق، تنتصب في جنباتها خزانات العرض، ويقف الى جانبها موظفون وموظفات

يرتدون زيا موحدا وانيقا، وكأنهم مضيفو ومضيفات احدى الخطوط الجوية، ويعاملون كافة الزبائن بقدر كبير جدا من الاحترام، وكذلك الامر في الطابق الثاني من هذا المتجر الكبير المزود بمصعد كهربائي، وهذا ايضا لم يكن معتادا لا في المتاجر ولا في البنايات العراقية ايامها .

ظلت هذه السوق البغدادية من ارقى الاسواق في العالم، وافتتحت الشركة مثيلات لها في اسطنبول وحلب وتونس وبيروت والقاهرة والاسكندرية والبصرة، وظلت هذه السوق البغدادية راقية حتى بعد تأميمها ايام السبعينيات من القرن الماضي، حيث تولت ادارتها السيدة سعاد ارشد العمري.

سعاد متعلمة وصاحبة ذوق رفيع وتهتم بالديكورات وتصاميم المنازل وتنحدر من عائلة ارستقراطية، كان ابوها والذي تولى رئاسة الحكومة العراقية لفترة في العصر الملكي قد اشرف على ترميم المسجد الاقصى وقبة الصخرة بأمر من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، واقام لهذا الغرض عدة شهور في مدينة القدس .

كنت تشاهد في الاوروزدي باك مختلف انواع الملابس محلية واجنبية، وكان هناك اقسام للادوات والاجهزة والملابس الرياضية المستوردة من ارقى الماركات، وكان هناك اقسام للاثاث الايطالي، واخرى للكريستال والادوات المنزلية، والقرطاسية المستوردة من بريطانيا، وقسم خاص بالاسطوانات والاشرطة وادوات الموسيقى ومكتبة فيها الكثير من الكتب بالانكليزية والالمانية .

كانت الاوروزدي باك في ذلك الوقت اول سوق كبير يفتتح في الشرق الاوسط، وكانت في ذلك الزمن تعادل المول التجاري في ايامنا هذه، ولكن العراقيين ورغم كل المولات الحديثة وما فيها من اشهر الماركات العالمية

سيظلون يحنون الى الاورزدي باك لانه كان صديق العائلة، بجودة منتجاته ومناسبة اسعاره .

بعض العراقيين يحن الى ايام صدام حسين، وهناك من يواظب على ضرب الامثلة عن طيبة عبد الكريم قاسم، وهناك من يرى ان النظام الملكي خير من الجمهوري للعراق، لدى العرب اجمالا حنين للماضي وكره للحاضر، لانهم عاجزون عن استشراف أي مستقبل .

قد يوصف الحنين بالجارف لأنه يجرفنا بعيدا عن الواقع، وابعد عن المستقبل، وقد يصير حنينا غبيا حين نطيل الوقوف على عتباته ونوليه وجوهنا، فيما نولي المستقبل الدبر.

المشكلة ليست في الحنين طبعا، ولا في ما نحن اليه من عهود الماضي السحيق او القريب، المشكلة في كيفية تعبيرنا عن هذا الحنين، وفي تآمرنا لتقديسه، واقناع انفسنا بان أي محاولة لتحديثه هي مؤامرة عليه .الحنين كما يقول محمود درويش:

الحنين استرجاع للفصل الأجمل

في الحكاية

الفصل الأول المرتجل بكفاءة البديهة

هكذا يولد الحنين من كل حادثة جميلة

ولا يولد من جرح

فليس الحنين ذكرى

بل هو ما ينتقى من متحف الذاكرة

الحنين انتقائي كبستاني ماهر

وهو تكرار للذكرى وقد صُفيت من الشوائب

وللحنين أعراض جانبية منها

إدمان الخيال النظر الى الوراء

والحرج من رفع الكلفة مع الممكن

والإفراط في تحويل الحاضر الى ماض

******

مشكلتنا الاخرى ان من يتخلصون من هذا الحنين يصبحون لا مبالين اطلاقا باي شيء.

نريد الحنين ونحتاجه، لا نريده انتقائيا، نحتاجه غير مصفى من الشوائب، ونريد ونحتاج ان نرفع- ودون أي حرج -الكلفة مع الممكن .نريد نقطة مرجعية نعود اليها بالحنين، نقطة ليست بعيدة كما عصور الخلافة، ولا قريبة كالحقب الملكية، نريد حنينا ذكيا يقود الى إثبات الجدارة والتفوق فيما هو متاح ودون ادمان في النظر الى الماضي الذي صفيناه من الشوائب.

لوحة الفنان نبيل علي

بغداديات 53

تتن يحرك بدلالي سعالي / غريب ومحد من اهلي سعالي

وردت في العهد القديم على انها جنات عدن، ومعروف انها شهدت بدايات الحضارة السومرية .نجت مطلع القرن الماضي من مشاريع استعمارية قضت بردمها لاستغلالها في الزراعة، ثم نجت قبل نهايته من مشاريع صدام حسين لتجفيفها كعقاب للمعارضين.

انها الأهوار العراقية الممتدة غربي وشرقي دجلة والفرات من الجنوب نحو الفرات الأوسط، ومؤخرا تم ادراجها على لائحة اليونسكو كأحد معالم التراث العالمي، وذلك بعد التغلب على معارضة ايران لأطماع جغرافية، ومعارضة تركيا لأطماع مائية.

منازلها جميلة مصنوعة من جذوع النخل والقصب المجدول وأرضها مفروشة بالبسط الصوفية المزركشة شتاء وبالحصر المصنوعة من القصب المجدل صيفا، ويكفي رش جدران المنازل بالقليل من الماء صيفا لتحصل على الهواء المنعش والبارد وقيلولة مريحة.

للقصب رائحة حين يجف واخرى عندما يكون مبلولا، يخضر بالماء ويصفر بالشمس، للقصب صوت حين تجمعه وحين تطرحه أرضا، يُصفر حين تضربه الرياح، يبكي القصب عند حرقه، ويئن عند تجديله، لا يحب القصب شيئا الا التحول لناي، ناي يئن حين يحن.

يزرع سكانها الأرز وقصب السكر، ويصطادون الطيور والسمك بالفالات، ويتنقلون بقوارب صغيرة يسمى مفردها مشحوف، وتماما كما في البندقية يعرف سكانها العشق على اصوله.

كان عبد الله مميزا بمشحوفه وحسن كلامه وطيب معشره وصوت غنائه، حتى ان الناس كانت تتجمع على الشاطئ لسماعه يغني، بينما يربط اكياس البضائع لنقلها من الكوفة الى الناصرية والعمارة والبصرة، ومن بين هؤلاء وشلة بنت إجريو، والتي لم تبح بسر عشقها لعبد الله بل لصديقتها ميحانة هندي.

نيران العشق تحرقها، ونصائح ميحانة بالإفصاح عن عشقها له ولو بالإشارة من بعيد اصبحت مستحيلة فقد غابت شمس الأهوار يوما بعد يوم ولم يأتِ عبد الله ولم يسمع صوت غنائه، لقد انهارت اجزاء من جسر المسيب الخشبي على مشحوفه فقلبته والتفت حبال بضائعه على يديه وربطتها وسحبته بعيدا .تماما كما فعلت قبل أعوام حين فجعت عريسا شابا بعروسه .

ربما يكون جسر المسيب اشهر جسور العراق لا للونه الاخضر البديع ولا لبساتين النخيل على جنباته ولا لموقعه ولا لقدمه، وانما لمواجع ودموع الحب التي شهدت عليها ضفافه، وهي المواجع التي يشهد عليها شطر من بيت شعر يقول :على جسر المسيب سيبوني .

وكما استنجد الفتى الكنعاني :دلوني على الآلهة عناة، فغناها الناس من بعده على دلعونا، استنجدت وشلة بصديقتها ميحانة :

ميحانة ... ميحانة ، غابت شمسنا والحلو ما جانا.....

وكأن غياب عبد الله لم يكن كافيا، فقد ابتلاها القدر بشقيق صديقتها وشلة، كان شابا صفيقا، وما ان سمع القصة وفهمها حتى بدأ التحرش بوشلة والتي صدته ورفضت خطوبته فبدأ في نشر أخبارها والاساءة لسمعتها حتى

اصبحت قصتها على كل لسان، وتحولت لأغنية أبدعها كتابة؛ الشاعر جبوري النجار، ولحنا :الملحن الاستاذ ناظم نعيم، وتوزيعا؛ الموسيقار جميل بشير، وغناها كما لم يغن احد من قبله ولا بعده الفنان ناظم الغزالي.

ناظم الغزالي سبق تسجيله لهذه الاغنية البديعة بموال كتبه الشاعر الفلسطيني محمود سليم الحوت :

تيهي على ارج الورود عطورا / و على عناقيد الكروم خمورا

وتمنعي فالشعر وحي تمنع / واللحن يطلق ان وقعت اسيرا

وتحكمي بالحب فهو تعطش / ان لم يعلَّ فقد يشب سعيرا

لا تسالي عني الطيور فاني / اصبحت من نظر الطيور غيورا

يا وردة ملا الضفاف جمالها / و جرى الغدير بعطرها مسحورا

ترى سقيت دمي فخطب لونه شفتيك / واعتدل الرشيق نظيرا

قد طال ليلي فاستعنت على الدجى / بشعاع طيفك يصهر الديجورا

ويشيع في دف المنى ودبيبها / و يرد اشجان الحياة سرورا

وخلال حفل ضخم اقامته الكويت عام 1963 بمناسبة ذكرى استقلالها وشاركت فيه ام كلثوم وعبد الحليم حافظ ووديع الصافي، غنى الغزالي هذه الاغنية وهذا الموال واضاف اليه بيتا اخيرا يقول فيه :

وهفا إلى أرض الكويت وشعبها / ودعا لمن سكن القلوب أميرا

وربما يكون صاحب هذه القصيدة الشاعر الفلسطيني محمود الحوت هو من قد اضاف البيت، فلقد تصادف انه بعد ان ترك يافا وغادر عمله في دار

الاذاعة الفلسطينية بالقدس بعد النكبة قد عمل في بغداد لفترات متقطعة، كما عمل ايضا تلك الفترة كمدير لتلفزيون الكويت، قبل ان ينتقل الى بيروت . وربما يكون الشاعر قد التقى بناظم الغزالي خلال زيارته لفلسطين قبيل النكبة .

قصة ميحانة كما صاغها الشاعر جبوري النجار وغناها ناظم الغزالي كالتالي :

ميحانه ميحانه ...ميحانه ميحانه / غابت شمسنا والحلو ما جانه

حيك ..حيك بابه حيك .. الف رحمه على بيك

هذوله العذبوني .. هذوله المرمروني / وعلى جسر المسيب سيبوني

عافت عيوني النوم .. عافت عيوني النوم / بعدك حبيبي العين ذبلانه

بلوح القدر مكتوب .. بلوح القدر مكتوب / بهجرك حبيبي الروح ضمآنه

ضليت انا سهران .. ضليت انا سهران / وارعى نجومي ليش ماجانه

واتسامر ويا الليل .. واتسامر ويا الليل / واجمع همومي وروحي تلفانه

خلى الدموع تسيل .. خلى الدموع تسيل / من عيني دمه الروح ضمآنه

واللي فديته الروح .. واللي فديته الروح / روحي ظلمه بسكَم خلاّنه

حيك ..حيك بابه حيك .. الف رحمه على بيك

هذوله العذبوني .. هذوله المرمروني / وعلى جسر المسيب سيبوني

في قصة عشق أخرى يرويها القصخون) الحكواتي (العراقي بلهجته الخاصة يقول :

هاي اكو شيخ عنده كهوچي بالديوان مال العشيرة، هذا الكهوچي من غير عشيرة، راحت الايام واجت الايام، صارت علاقة حب بين الكهوچي ويه بنت الشيخ، يوميه بعد ما يفرغ الديوان بالليل تيجي بنت الشيخ على حبيبها الكهوچي، ..... يسولفون بمستقبلهم ووين راح يوصلون بهذا الطريق المسدود، لان تقاليد العرب :بنت الشيخ لابن الشيخ.

يوم من الايام إجت بنت الشيخ على حبيبها كالعادة، اخذتهم السوالف وبده يطلع الفجر، قاللها حبيبها الكهوچي :كومي روحي هسه يجي ابوچ .وهي ماطلت قام طب ابوها للديوان فجأة، وين تروح؟؟ ماكو ملجأ !!نامت بصف حبيبها وتغطوا بالبطانية طب الشيخ اتفاجأ بالكهوچي نايم على غير العادة، لان من عادته يكعد قبل الشيخ، قال الشيخ يجوز تعبان مريض خل اتركه اشويه ويكعد.

كعد الشيخ وطب الضيف الاول والثاني والثالث والعاشر الى ان الديوان صار مليان بالزلم، والكهوچي نايم صارت سالفة الديوان كلها بالكهوچي قالوله فلان اشبيك اليوم؟ قاللهم :

تتن يحرك بدلالي سعالي

غريب ومحد من اهلي سعالي

وسكت .اكو شاب من ولد العشيرة كلش صديقه، ويعرف قصته، فهم اللغز كام راح على بيته وصب عليه نفط، وقال لمرته بس اطب للديوان احركي البيت وعيطي وصرخي .وبالفعل سوت مثل ما قاللها رجلها، حركت البيت وبدت تنخى بالعرب چان يكوم شكو واحد كاعد بالديوان حتى الشيخ وما بقى احد .

من فرغ الديوان قامت بنت الشيخ ورجعت لبيتهم بدون محد يشوفها وبدون فضيحه، رجع الكهوچي نام وتغطى رجعوا الزلم بعد ما طفو البيت قالوله فلان قبل اشوية قلت بيت ابوذيه بس ما كملته، قاللهم: اتركوا الموضوع قالوله ابد الا تكمله ، قاللهم :

تتن يحرك بدلالي سعالي

غريب ومحد من اهلي سعالي

صديجي اللي اودنه سعالي

حرك بيته لأجل يستر عليه

الاهوار

بغداديات 54

ابو مازن :والغنى تالي العمر يآذينا

اوقات الظهيرة في صيف بغداد هي ساعات لمنع التجول شبه الاجباري، خاصة لأمثالي ممن لا يعرفون سبيلا الى قيلولة الظهيرة، انتهى المنع وخرجت اسير على طول شارع السعدون ميمما شطر المقهى المقابل لساحة النصر والذي يحمل اسمها، كلي شوق للجلوس هناك تحت عرائشه على قريولة) كنبة خشبية (وامامي سكملي) كرسي صغير (عليها استكان شاي.

دفعتني اشواقي لاستغلال فرصة انقطاع مرور السيارات لأعبر الشارع من غير) مناطق عبور السابلة(، هكذا يسمي العراقيون مناطق مرور المشاة، لم اكن وحدي من فعل ذلك، لاحظنا ابو اسماعيل- وابو اسماعيل هو الاسم الحركي لأي شرطي مرور عراقي شاء أم أبى -فاعتقلنا جميعا وأوقفنا في غرفة صغيرة داخل مخفر المرور المطل على ساحة التحرير القريبة.

بعد نصف ساعة كنا نسبح في عرقنا ونختنق برائحته، صاح احدنا :عيني ابو اسماعيل ترى آني مثلك ابو خليل- وابو خليل هي كنية كل جندي عراقي حتى لو كان اعزبا -يا معود فطسنا من الحر.

سمعه شرطي المرور اللطيف فاحضر صوندة) خرطوم المياه (ورشنا بالماء، وافرج عنا بعد نصف الساعة.

ظللت طيلة فترة التوقيف افكر في مئات السنين التي سنحتاجها لتحرير فلسطين، والآف السنين التي سنحتاجها من اجل نسج وتكريس اسم موحد للفدائي الذي سيصبح جنديا او شرطي مرور.

وصلت المقهى غير آبه ببقع الماء والعرق، وفي انتظار استكانة الشاي بدأت بقراءة يافطات المحال التجارية، ازياء بابل، تسجيلات السعدون، فندق الفلوجة، ، طرشي النجف، مطعم ام الربيعين، شربت الحاج مهدي، مشرب الزيزفون، .....صوت ياس خضر يتسرب وئيدا:

اعزاز والله اعزاز، اعزاز عدنا اعزاز

وشوگهم شوگ الشواطي إليل دجله

مدللين والفراگ بعينهم

شوگ الحمام الجاي لأهله

والعتب بشفافهم ود وحنين

مدللين احباب گلبي مدللين

وفجاة يسيطر الصوت المتسرب وئيدا على الاجواء وهو يغني:

عزاز وحق الله عزاز

إعزاز عدنه ومن هويناهم هوينه الناس كلهه

ومن عشگهم كبرت الدنيا باهلهه

وعلى جناح الشوگ طرنا

الروح طارت ويه خلها

ويا هواهم غيمة وتفيض بمطرهه

ويا وفاهم وردة وتفوح بعطرهه

مدللين ويلوگ لاحبابي الدلال

وشوگهم نسمة جنوب

وسيرَت لأهل الشمال

اعرف الآن ان الملحن طالب القره غولي ظل 3 سنوات وعدة اشهر وهو يبحث عن لحن لهذه القصيدة التي كتبها صديقه زامل سعيد فتاح، واعرف الآن ان زامل توفي في حادث سير منتصف ثمانينيات القرن الماضي ربما في ذات الشهر الذي كنت اجلس فيه منتظرا استكانة الشاي في مقهى ساحة النصر بشارع السعدون وسط بغداد، واما طالب فقد توفي قبل 6 سنوات بعد طول معاناة مع المرض.

لم يتبق من هذا الثالوث الغنائي المدهش سوى ياس خضر شافاه الله وعافاه واطال في عمره، سنموت جميعا بلا ريب ولكن غالبيتنا لن تترك ورائها آثارا غنائية خالدة.

الرجل الجالس مقابلي كان في ذروة الانشغال بالأغنية حتى لتشعر كأنه الوحيد الذي يسمعها، او كأنها هدية سماء مرسلة له خصيصا، كان جذعه يتحرك كقوس كمان عازفها، تخيلت يداه تتحركان لتنقر اوتار القانون مرة او لتضرب على الطبلة مرة اخرى، وفجأة قطع عملاق بشري هائل هذا الجو كله، ووجه اقذع الشتائم العراقية للرجل المحتفل بالاغنية، ولعجبي الشديد فان الرجل لم يفعل شيئا سوى الابتسام وبكل سرور...

-لماذا تضحك؟!

-لأنني حكيم ولأنك مخطئ وستعتذر لي بشدة عندما تعلم انني لست الرجل المقصود.

وفعلا اعتذر الرجل العملاق بشدة وطبع قبلة على رأس الرجل فقد تبين انه ليس هو المقصود.

-من اين تأتيك هذه الحكمة؟!

-من الله ومن شكوكك.

-كيف تأتيك من شكوكي؟

-لو كنت متأكدا من انني المقصود لباشرت بضربي بدلا من شتمي، ولما تركت مجالا لحكمتي ان تظهر.

الى يميني يمنيان تحادثا ساعة عن حكمة واشعار البردوني ثم عن احدى حكايا الثأر في اليمن.

ملخص الحكاية التي رواها احدهما تقول :ان افراد قرية مجاورة هاجموهم وسط اطلاق رصاص اودى بحياة معلم مصري معارٍ لليمن ويدرس اللغة الانجليزية، فما كان من رجال قريته الا ان ردوا بمهاجمة القرية وقتل مدرس الرياضيات .لماذا الرياضيات وليس الانجليزي؟ لان مدرس الانجليزي في تلك القرية لم يكن مصريا كمدرسنا.

مر موكب جنائزي في الشارع وقف كل من في المقهى اجلالا للموت، مرَّ المركب، همهم الجميع على دفعات :الله يرحمه، وعادوا الى ما كانوا فيه.

حضر لاعبو الدومينو، هؤلاء محترفون، يلعبون بسرعة ولا يكتفون بوضع الاحجار على الطاولة، انهم يضربون بها الطاولة ضربا مبرحا، ويصيحون صياحا بقيمتها متبوعة بألفاظ تحدي نابية.

غادرت المقهى تسيطر علي فكرة واحدة هي انني لو ذهبت الى مشرب الزيزفون لما كنت قطعت الشارع وتعرضت للاعتقال، ولما استمعت الى اغنية تجرح الفؤاد، ولما شهدت حكمة الرجل المحتفي بالاغنية، ولما سمعت قصة الثأر اليمني.

يبدو انني قطعت الشارع لأجلس في رام الله بعد 35 عاما اكتب هذه السطور فيما اتلمس اخبارا عن المطرب ياس خضر، واذكر كيف جمع نبذا من اغانيه: عزاز ، تايبين ، المكير ، كذاب ، ليل البنفسج ، الريل، والف منها اغنية جديدة سماها يا حمد وجعل لازمتها :والغنى تالي العمر يآذينا.

لوحة الفنان مؤيد محسن

بغداديات 55

البكر يزوج القباني لبلقيس وعرفات يشيعها

إنتحرت شقيقته" وصال "بعد إجبارها على الزواج من رجل لا تحبه، حفرت صورتها وهي تموت من اجل الحب فلسفته في العشق، وصراع المرأة لتحقيق الانوثة.

إختزن في وجدانه ذكراها وخضرة وعبق زنبق وريحان ونعناع وياسمين الشام، وداعبت انامله ماء نوافيرها، رسم بالألوان وعزف بالعود، ثم عزف ورسم بالكلمات، ومع حلول العشرين من عمره صار نزار قباني شاعر الحب والمرأة، ولم تتغير هويته رغم انشغاله بالدبلوماسية ومرارة النكسة .

وفي امتزاج نادر بين دبلوماسيته وعشقه ونكسة امته كان لنزار السوري قصة قطباها احمد حسن بكر العراق وياسر عرفات فلسطين .

رسم بالكلمات طفولة نهد، وكتب 100 رسالة حب، واشعار خارجة عن القانون، وقصائد متوحشة لنساء زدنه عشقا في مدرسة الحب، ففصل من جلدهن عباءة، وبنى اهراما من الحلمات .

رقص سامبا مع امرأة لا مبالية وحافية القدمين وخيرها بين الموت على صدره او فوق دفاتر اشعاره، فقالت له سمراء :انت رجل واحد وانا قبيلة من النساء .

قرأت العرافة في فنجانه المقلوب ان الحب عليه هو المكتوب، فطاف الارض يبحث عن شعرها الغجري المجنون، وارسل لها رسائل من تحت الماء، كان يبحث عن امرأة يكون زواجه بها زواجا من الحرية.

في بغداد حيث اقام اجداده القبانيون لدى خروجهم من الحجاز، وجدها فابرق لها برسالة عاجلة تقول :اشهد ان لا امرأة الا انت .كان القرار بتحقيق الحب المستحيل مع البغدادية بلقيس الراوي، ولكن والدها وقف سدا منيعا امام هذا الحب الجارف .

جلس في المقهى، وصارت يومياته يوميات رجل مهزوم، ناشدها قولي احبك، احبيني بلا عُقدٍ، ممنوعة انت، ولكن لجسمك عطرٌ خطير النوايا . وكما وقف اجداده في عكاظ بالجاهلية، وقف في المربد عام 1969 ليقول :

مرحباً يا عراقُ، جئتُ أغنّيكَ / وبعضٌ من الغناءِ بكاءُ

أكلَ الحبُّ من حشاشةِ قلبي / والبقايا تقاسمتها النساءُ

سكنَ الحزنُ كالعصافيرِ قلبي / فالأسى خمرةٌ وقلبي الإناءُ

أنا جرحٌ يمشي على قدميهِ / وخيولي قد هدَّها الإعياءُ

فجراحُ الحسينِ بعضُ جراحي / وبصدري من الأسى كربلاءُ

وأنا الحزنُ من زمانٍ صديقي / وقليلٌ في عصرنا الأصدقاءُ

مرحباً يا عراقُ، كيفَ العباءاتُ / وكيفَ المها ..وكيفَ الظباءُ؟

مرحباً يا عراقُ ..هل نسيَتني / بعدَ طولِ السنينِ سامرّاءُ؟

مرحباً يا جسورُ يا نخلُ يا نهرُ / وأهلاً يا عشبُ ...يا أفياءُ

كيفَ أحبابُنا على ضفةِ النهرِ / وكيفَ البساطُ والندماءُ؟

كان عندي هنا أميرةُ حبٍّ / ثم ضاعت أميرتي الحسناءُ

أينَ وجهٌ في الأعظميّةِ حلوٌ / لو رأتهُ تغارُ منهُ السماءُ؟

إنني السندبادُ ..مزّقهُ البحرُ / وعينا حبيبتي المينـاءُ

مضغَ الموجُ مركبي ..وجبيني / ثقبتهُ العواصفُ الهوجاءُ

إنَّ في داخلي عصوراً من الحزنِ / فهل لي إلى العراقِ التجاءُ؟

وأنا العاشقُ الكبيرُ ..ولكن / ليس تكفي دفاتري الزرقاءُ

تفاعل الجمهور اشد التفاعل مع هذا الجزء من القصيدة، ومع بقيتها الطويلة التي تتحدث عن فلسطين بعد مرور عامين على النكسة، وتحدث عن النفط وقريش وعن جدوى الشعر حين يصير ارنبا خشبيا وبهلوانا يتسلى برقصه الخلفاء، او فأرا همه الغذاء، وتساءل :

يُصلبُ الأنبياءُ من أجل رأيٍ / فلماذا لا يصلبَ الشعراءُ؟

الفدائيُّ وحدهُ ..يكتبُ الشعرَ / وكلُّ الذي كتبناهُ هراءُ

وحدويّون !والبلادُ شظايا / كلُّ جزءٍ من لحمها أجزاءُ

ماركسيّونَ !والجماهيرُ تشقى / فلماذا لا يشبعُ الفقراءُ؟

قرشيّونَ !لو رأتهم قريشٌ / لاستجارت من رملِها البيداءُ

لا يمينٌ يجيرُنا أو يسارٌ تحتَ / حدِّ السكينِ نحنُ سواءُ

صار حديث الجمهور والمهتمين من هي الاميرة الحسناء ذات الوجه الوضاء الذي تغار لو رأته السماء؟، من هي حبيبة السندباد نزار قباني التي تطاول سامراء وتغفو في حي الاعظمية على ضفاف النهر ؟ .

لم تعجز مخابرات الرئيس العراقي احمد حسن البكر عن ايجادها ومعرفة اصلها وفصلها، واسباب رفض والدها، فارسل اليه الرئيس البكر وفدا

رئاسيا كبيرا يتقدمه الشاعران :الشاعر شفيق الكمالي وزير الشباب والشاعر شاذل طاقة وكيل وزارة الخارجية ايامها .

وافق الوالد على زواج بلقيس التي كانت واحدة من اجمل جميلات بغداد، من الشاعر نزار قباني بعد ان تشهّد بوحدانية حبه لبلقيس، تزوجا وغادر القباني بغداد برفقة نخلة بغدادية ظل يقول لها كل صباحٍ :صباحك سكر، وكل عامٍ :كلُ عام وانت حبيبتي .

ماتت بلقيس بعد 13 عاما من زواجهما في تفجير انتحاري استهدف مبنى السفارة العراقية في بيروت حيث كانت تعمل، يقول نزار قباني" :كنت في مكتبي بشارع الحمراء حين سمعت صوت انفجار زلزلني من الوريد إلى الوريد ..... ظلت بلقيس تحت الانقاض 15 يوما، وظل ياسر عرفات يظهر ويختفي في منطقة السفارة التي صارت ركاما، كان يقعد بالساعات الى جانب ام بلقيس يواسيها ."

يضيف نزار قباني" :تحولت بلقيس الى غمامة بنفسجية ... وياسر عرفات حول جنازتها الى مهرجان للعزة والكرامة وشيعها كما يشيع الابطال، عندما رجعنا من الجنازة، بدأ القائد الفلسطيني يتكلم عن بلقيس الراوي ... وبدأ اللغز ينكشف.

قال عرفات: في آذار1968 ، وكنا خارجين من معركة الكرامة، جاءتني الى منطقة الاغوار في الاردن فتاة عراقية فارعة القامة، وطلبت مع زميلاتها في ثانوية الاعظمية للبنات في بغداد، تدريبهن على حمل السلاح، وقبولهن مقاتلات في صفوف الثورة الفلسطيني ..... كنا سعداء بأن تنضم الى الثورة الفلسطينية زهرات من ارض العراق. ودارت الايام وكتب لنا

القدر ان نواصل نضالنا في لبنان، كما كتب لبلقيس أن تعمل في سفارة العراق في بيروت.

وذات يوم، كنت مدعوا للعشاء لدى احد الاصدقاء في بيروت، فاذا بالفتاة ذات القامة الفارعة، التي جاءتني متطوعة الى الاغوار قبل عشر سنوات تدخل، ومعها ذكريات نصرنا الجميل في الكرامة وتصافحني بحماسة رفيق السلاح.... هل تعرف يا نزار أن الفتاة التي تزوجتها انت، فيما بعد، هي رفيقة السلاح التي جاءتنا الى الاغوار، واكلنا معها خبزاً.. وزيتوناَ..؟ بلقيس الراوي لم تكن زوجتك، بقدر ما كانت ابنة الثورة الفلسطينية' ...

يختم نزار قباني شهادته عن ياسر عرفات وابنته بلقيس قائلا :ذهبت في اليوم التالي الى مقبرة الشهداء لأزورها فوجدت على رخامة قبرها:

الشهيدة بلقيس الراوي

استشهدت في15/12/1981

لوحة بريشة الفنان محمود فهمي عبود

بغداديات 56

بين الجرف والمي بطة وصدتني

بلمات كثيرة تنقل الركاب من الكرخ الى الرصافة لكن دجلة سيغرق واحدا منها فقط ليبتلع المحبوبة الفتية ووالديها، وعلى الضفة الاخرى صرخ فتى كان ينتظر المحبوبة وظل يصرخ حتى بح صوته واصبحت البحة رفيقة دائمة لجسد خاوٍ لا تحركه سوى الخمرة والالحان.

كان الموت قد فجع الفتى قبل عامين بوفاة امه التركية وابيه القادم من كركوك الى بغداد للسكنى بجوار الاعمام واولاد الاعمام وعموم ابناء عشيرة البياتي التي سادتها جرائم قتل على خلفيات عشائرية.

وعلى خلفية احدى هذه الجرائم تمت التضحية بالفتى اليتيم القاصر حماية لآخرين.

كان عمره عندها 15 عاما فقط وتم الحكم عليه بـ 15 عاما قضى اولها يصيح مبحوحا انا مظلوم يا ناس، ولكن صيحاته لم تنفعه فاستعان على الظلم ووحشة السجن بترديد ما ادى من اناشيد في المدرسة الحيدرية وتقليد ما كان يسمع ويحفظ لكبار قراء المقام في زمنه امثال رشيد القندرجي ومحمد القبنجي وغيرهم.

انهى يوسف داود سلمان البياتي محكوميته وخرج من السجن عام 1948 ليلتصق بالقبنجي ويتعلم على يديه ثم ليخرج من تحت عباءته مطربا مجددا اصيلا ورقما صعبا لا يمكن تجاوزه في عالم المقام.

وسيشهد التاريخ ان الفتى السجين والذي بات يعرف بـ يوسف عمر سينقل المقام من جلسات الاغنياء والسادة في القصور والفلل الى المقاهي الشعبية

وبعدها سيدخل الى الاذاعة ليخرج متوجا بحب وشعبية ومجد فني لا يدانيه سوى ناظم الغزالي.

كان التلفزيون العراقي هو اول تلفزيون عربي في العام 1954 وقد سبق التلفزيون الصيني بعامين والمصري بستة اعوام وفي ذلك العام عاد المخرج كاميران حسني الى بغداد قادما من الولايات المتحدة بعد ان اشبع شغفه بنيل الماجستير في صناعة السينما وبدأ الاعداد لفيلم" سعيد افندي " وقام باختيار يوسف عمر لأداء دور الرجل السكير الذي يدخل الميخانة ويغني مع دعبول البلام هذه الابوذية الرائعة على نغم الصبا:

ناموا وعين الصب ليس تنام ..... لله ماصنعت بي الأيام

أرعى النجوم ولي فؤاد خافق ..... مزجت بنغمة وجده الأنغام

تتالت الاعمال الفنية التلفزيونية ومعها الاغاني والسهرات البديعة التي قدمها يوسف عمر برفقة صديقه الصدوق عازف الجوزة الشهير شعوبي ابراهيم خارج العراق وداخله ولا سيما في خان مرجان مساء كل خميس.

وفي اثنائها ظل يوسف عمر يتنقل من زوجة الى اخرى بحثا عن حبه الغارق في نهر دجلة وعن غلام يربيه ويعوض نفسه فيه عن الحرمان واليتم والظلم الذي عايشه ، لكن زيجاته الاربع لم تورثه الا الشلل الرعاشي ليرحل عن دنيانا بسيطا كما بدأ وكانه ما زال في تلك المحلة البغدادية المسماة بـ جديد حسن باشا .وفي تلك المحلة ظلت روحه تتنقل بين مقهى الزهاوي ومن يجلس عليه من المثقفين ومطابع شارع الصحافة ومن يزورها من الكتاب وحوانيت الكتب في شارع المتنبي ومن يؤمها من الطلاب وداخل دكان صغير لـ محمد فاضل وفيه تم صنع افضل الاعواد لافضل مطربي العالم العربي.

هذا نموذج من بين عشرات لاغانيه رحمه الله، اغنية جي مالي والي أي لا سند لي وقد غنتها من بعده عدة فنانات مثل سيتا هاكوبيان، امل خضير، مكادي نحاس، نوفا عماد، وبيدر البصري .وغنتها ايضا المطربة والراقصة فلة الجزائرية، بعد ان رقصت جيدا على اغنية لا خبر لا ، والعديد من المطربين الذكور غنوا ايضا هذه الاغنية فيما اعادت الفرق الموسيقية العديدة انتاج وتوزيع موسيقاها المميزة .

چي مالي والي ... بويه اسم الله / چي مالي والي ... صدقه ال الله

.متعذبه بدنياي يا بابا ... چي مالي والي

لا بعد اونن ... ثاري اللي يون خسران /يا بابا ... لا بعد اونن

كلهن يحنن ... لمن يصير الكيف / يا بابا ... كلهن يحنن

مكَلد والبسه ... ريت العزيز يصير / يا بابا .... مكَلد والبسه

سنتين احبسه ... بين النهد و الزيكَ / يا بابا .... سنتين احبسه

طكَني على ايديتي ... خلى الخصر طشار / يا بابا ... طكَني على ايديتي

لا كَال اخيتي ... لا كسر كَلبه بجاي / يا بابا ... لا كَال اخيتي

حلو المعاني ... علمته يرمي سهام / يا بابا ... حلو المعاني

صد ورماني ... لمن تعلم زين / يا بابا .... صد ورماني

يا لماردتني ... تكسر جناحي ليش / يا بابا .... يا لماردتني

بطه وصدتني ... بين الجرف والماي / يا بابا .... بطه وصدتني

اللوحة من موقع افكار عراقية

بغداديات 57

لميعة عمارة بين درويش وعرفات

لميعة عباس عمارة شاعرة عراقية، كانت بنت اربعة عشر ربيعا عندما علق ايليا ابو ماضي على احدى قصائدها قائلا" :اذا كان في العراق مثل هؤلاء الاطفال فعلى اية نهضة شعرية يقبل العراق؟ "!!أجادت في الشعر الشعبي والفصيح بقسميه الحر والعمودي، وعدها النقاد ركنا من اركان الشعر كالبياتي والسياب ونازك الملائكة.

لم تكن مسلمة شيعية ولا سنية ولا مسيحية كانت من الصابئة المندائيين ديانة، ومن اليساريين نهجا سياسيا ومن الديمقراطيين التقدميين سلوكا اجتماعيا، عارضت البعث والبعثيين، ودفعت ضريبة ذلك .

عاشت وهي طفلة في مدينة العمارة، وفي حديث مع نشرة" جدلية "قالت عن تلك الفترة" :وجدت في لغتهم الكثير من الفصحى المنسية والعواطف الحقيقية، وجدت في العمارة روح الشعر، الكل يشعر، عمال البناء، بائعو الخضار ينادون بوزن وقافية ويؤلفون الردات للمزح وتسيير الوقت خلال العمل، وكذلك الشعائر الحسينية أو مرثيات الحسين، كنت أذهب من "مرثية الى مرثية "وكنت أكثر الناس بكاء، تعلمنا على هذا الوزن وهذه اللمسة الإنسانية .الرثاء الحسيني يُعلم رقة القلب .تعلمنا الكرم الحقيقي والبساطة .أهل العمارة طيبون جداً وبسطاء الى أبعد الحدود .أطيب أكلة عندنا كانت هي الخبز والبصل والملح الخشن على سطح البيت .انا أحببت كل شيء في العمارة.

انتقلت الى بغداد لتدرس في دار المعلمين ضمن نسبة الـ 2% المخصصة للمندائيين في مقاعد التعليم العالمي، فعاصرت هناك السياب والبياتي وعبد الرزاق عبد الواحد .كانت من اجمل بنات عصرها حتى قيل ان السياب كتب مطلع قصيدته انشودة المطر بعد ان تمعن في عينيها:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السَحَرْ

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمرْ

عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ

وترقص الأضواء كالأقمارِ في نَهَرْ.

ظل السياب صديقها الاقرب حتى وفاته في الكويت، كانت تقول له بيتا او بيتين او فكرة شعرية فيرد عليها بقصيدة .وظلت يسارية مثله ومعارضة للنظام البعثي، وكان لها مآخذ على الشعراء الذين تقربوا من النظام مثل البياتي وعبد الرزاق عبد الواحد ابن عمتها .

هاجرتْ من العراق عام1978 ، وتنقلت بين عدة عواصم .اقامت ببيروت زمن الثورة، وحين كرمتها الحكومة اللبنانية بوسام الأرز تقديراً لمكانتها الأدبية لم تتسلم الوسام) لان الحرب الاهلية قائمة (وكتبت تقول :

على أي صدر احط الوسام ولبنان جرح بقلبي ينام

روى عنها الكاتب الفلسطيني المبدع صقر ابو فخر قصتين طريفتين اولاهما مع محمود درويش والثانية مع ياسر عرفات.

في إحدى المرات كانت تجلس إلى جانب ياسر عرفات، وكان محمود درويش يجلس أمامها، فراحت تتطلع إلى قسماته بروية .وعندما لاحظ

محمود درويش ذلك فاجأها بسؤال محرج قائلاً :لماذا تحدقين في وجهي؟ فرد عرفات على الفور :وهل تريدها أن تحدق في وجهي أنا؟ !وكتمت لميعة ما حصل إلى أن جمعها إلى محمود درويش وبعض أصدقائه لقاء سريع في صالة أحد الفنادق .فما كان منها إلا أن دفعت إلى محمود أمام الجميع ورقة فيها شعر رقيق ورائق هذا نصّه:

أَزحْ يا حبيبي نظارتيكَ قليلاً

لأمعن فيك النظرْ

فما لون عينيك؟

هل للغروب تميلان

أم لاخضرار الشجرْ؟

أحبهما،

فوالله من أجل عينيك محمود

أصبحت أعشق قصر البصرْ.

قرأ محمود درويش الورقة، ثم انثنى عليها ليقول لها باستفزازيته المعهودة : لماذا تناديني" يا حبيبي "وأنت لا تقصدين ذلك؟ فردت عليه فوراً :هكذا أنادي جميع أولادي .وتضاحك الجميع، وردت لميعة على" لؤم "محمود بلؤم مساوٍ.

وفي هذا الميدان اشتهرت قصيدتها التي قالتها في ياسر عرفات شهرة فائقة في بيروت، وكان أبو عمار آخر مَن وصلته أصداء تلك القصيدة فطلب من

يحيى يخلف أن يأتيه بنصها، وحين قرأها يحيى يخلف عليه طرب لها أشد الطرب، وكانت النشوة تفور من عينيه مع كل جملة .وهذا بعضها:

صنوُ الملوكِ ويطلبون رضاهُ / يختال من زهدٍ على دنياهُ

لا بيت، سرجٌ داره، ومروره / حلم، وبغتةُ ضيغم مسراهُ

كل الشعوبِ توحدت في شعبه / وحدوده أنى تشير يداهُ

يدعونه الختيار، ذلك لحكمة / وأنا كما الطفل النقي أراهُ

لولا جلالة قدره ولكونه / رمز الفداء لخلتني أهواهُ.

لميعة التي اهدت ياسر عرفات هذا المديح رفضت ان تمدح غيره من الزعماء، أخرجها المدرسون من الصف وهي صغيرة وضعوها في غرفة المكتب ووضعوا امامها قلما واوراق، وطلبوا منها ان تكتب قصيدة بمناسبة ميلاد الملك .انتظروها يوما كاملا ولم تكتب شيئا .

وفي إحدى المناسبات دعاها أحمد حسن البكر وقال لها" :يا بنتي هاي شيبتي ما تستاهل تكتبين لي قصيدة ."فردت عليه :لا أجيد هذا النوع من الشعر، وهناك من هو أحسن مني .قال :ومن يكون أحسن من لميعة؟ قالت : عبد الرزاق عبد الواحد .وفعلاً دعاه وكتب له .

التقت بفريد الأطرش وطلب منها قصيدة فقدمت له قصيدة اسمها" الغد الأعمى"، فرفض .قالت له لماذا هذه من أجمل قصائدي؟، قال :لا أريد ان ينادي الناس" يا أطرش غني الأعمى."

في مقابلة اجرتها معها مؤخرا عفاف نعش اختصرت الشاعرة لميعة وضع العراق ادبا وسياسة بالقول :الشعر كثير في جنوب العراق وهو شعر

حزين، فالحزن متعمق هناك، والجنوب كله مآسي، قطيعة مع بغداد وفقر . حتى أن الطريق الذي يوصل ببغداد لم يكن معبداً كي يمنع هجرة الفلاح . الفلاح العراقي كان مظلوماً تحت سيطرة الإقطاعي ولهذا كانت الحركة الشيوعية قوية في المناطق الجنوبية .وعندما جاء عبد الكريم قاسم وبلط الطرق هاجر الفلاح فكانت مدينة الثورة التي سميت بعدها مدينة صدام ثم مدينة الصدر ولا أعرف ماذا بعد ذلك.

تعيش لميعة اليوم في شقة صغيرة بكاليفورنيا قرب اولادها، وما تزال محتفظة بذلك الرونق الانثوي العراقي الذي اهلها لتكون موديلا ولوحة للفنان والنحات العراقي المبدع جواد سليم صاحب نصب الحرية القائم وسط بغداد.

ذهبت الى مرسم جواد سليم لتعلم الرسم، فحولها الى موديل، قالت له مشاكسة :إعتن باللوحة جيدا، غدا سيقولون هذا هو الفنان الذي رسم الشاعرة لميعة، فرد عليها :بل سيقولون هذه هي الشاعرة التي رسمها جواد سليم .

عرضت اللوحة بعد ذلك للبيع بـ 50 دينارا، ولم تستطع لميعة شرائها فاشتراها الروائي الفلسطيني جبرا ابراهيم جبرا وعلقها في منزله .

تضيف لميعة وقد قاربت التسعين من العمر :بعد كل هذا، انتهى به المطاف للعيش تحت رحمة تقاعد خدمة المسنين الأمريكي، يدي تمتدُ لصدقات يرميها الذي قتل الحضارةَ للقتيلِ، هذا هو مصير العراقيين في الغربة.

لوحة لميعة عباس عمارة كما رسمها الفنان جواد سليم سنة 1954

بغداديات 58

كان يغني من قلبه

في العراق تجايل اربعة مطربين يحملون اسم سعدي :سعدي الحلي وسعدي البياتي وسعدي البغدادي وسعدي الحديثي، الحقيقة ان حظهم من الابداع ومن محبة الجمهور كبير جدا، ولكن حظهم من السعادة لم يكن كبيرا .

اقواهم في الاداء هو صاحب الحنجرة الكونكريتية سعدي الحلي، صوته صلب ولكنه يتموج، ويحسن التجانس مع الموسيقى والتناغم مع الكلمات .

كان يقود الحافلة ذهابا وايابا من الحلة الى طويريج، وهو يغني ويطرب الركاب، أحب ابنة عمه، ولكن والدها رفض زواجهما لأنه يغني، حاول معه مرة ثانية فاشترط عليه ترك الغناء، فكر قليلا ثم ارسل للمحبوبة بيت ابوذية يقول فيه :

حجايانا كظن يشكر وكتهن

لون يحصل مجال إلهن و كتهن

إلكه ادموع بعيوني وكتهن

لو دمعي خلص و انكطع ميه

زاد غنائه شجنا، فاكتشفه احدهم وارسله للاذاعة، كاد يرسب في امتحان الاذاعة بسبب ما وصفوه) بشاعة (وجهه، فقال لهم :استحلفكم بالله مين اجمل؟ انا ولا عوض الدوخي !ضحكوا على رده كثيرا وقبلوه .

اثارت شهرته الواسعة وقدراته الفذة حسد الآخرين، فنشروا اشاعة خبيثة واتهموه بانه مثلي جنسيا، تهمة لم يسلم منها كلكامش وهو يبكي صديقه الحبيب انكيدو قبل الميلاد بـ 2500 عام، ولم يسلم منها حتى مولانا جلال الدين الرومي وهو يبكي صديقه الدرويش شمس التبريزي بعد الميلاد بـ 1200عام، ورغم نفيه ونفي الاصدقاء وكل من يعرفه لهذه الشائعة الا ان نكات كثيرة انتشرت حوله، وسببت له اذى بليغا نفسيا واجتماعيا .

ظل يغني ويدفع ضريبة شهرته من سمعته الشخصية، حتى صار رمزا من رموز الغناء الريفي، ومطربا كبيرا تسعى الناس في العراق وكافة دول الخليج لحضور حفلاته واقتناء تسجيلاته .

اذا شاهدت هذا الرجل وهو يؤدي موالا، ستجده قد وضع خده على كفه، فتحتار من اين يأتي هذا الصوت، وكيف يخرج بهذه القوة والاتقان، فيما لا يبذل صاحبه أي جهد يظهر في عضلات وجهه؟!!!

لم يكن سعدي الحلي يغني من حنجرته لقد كان يغني من قلبه .

الفنان الثاني هو سعدي البياتي، عانى من مصاعب كثيرة في طفولته وليس اقلها انه كان كفيف البصر، وعانى في شبابه من تزاحم مدينة العمارة بالعديد من المطربين والشعراء المبدعين الذين تصعب منافستهم، وعانى في حبه ولكنه ظفر اخيرا بمحبوبته فغنى لها في عرسهما :

تعبت إوياك من زغرك وربي..

وعلي يشهد رسول الله وربي..

سهرت أهواي بدروبك وربي..

تجافي إبشوفتك واشح عليه..

ما ان بدأت شهرته تمتد الى خارج العراق، حتى نكبه الدهر بموت محبوبته، نعاها قائلا :

نحل جسمي بودادك حيل وانشال..

ودليلي من ونيني إجبال وانشال..

لون أدري بظعنكم رحل وانشال..

أتبعه وين مايبعد عليه...

ما ان استعاد وعيه وعزيمته حتى لبى دعوة لاحياء حفل فني في الموصل، وما ان وصلها حتى جاءه خبر ان بيته في بغداد قد احترق بالكامل فغنى ابوذية تقول :

ياهو الشاف حالي أبد مالام..

عرفني و شاف جرحي كلف مالام..

صرت مثل الطفل بالمهد مالام..

يتيم و عيشته كله ردية ...

السعدي الثالث هو سعدي توفيق البغدادي، لم يولد كفيفا كزميله البياتي، لقد فقد البصر وهو بعمر الرابعة، دخل معهد المكفوفين ببغداد وتعلم أصول الموسيقى، صار عازفا للناي في استوديو جميل بشير، والذي سمعه يغني مرة فشجعه على الاستمرار في الغناء، حاول ولكنه تعرض للظلم كثيراً لأن المسؤولين عن الإذاعة والتلفزيون في ذلك الوقت لم يهتموا به، وتأخروا كثيرا في السماح له بالظهور في البرامج الغنائية التي تختص بالغناء الريفي الجنوبي وأيضاً المقام العراقي .

احتاج سعدي توفيق البغدادي عدة محاولات ليتغلب على الخجل ورهبة المسارح ولكنه صار صاحب الاداء الاكثر هدوء بين كافة مطربي الغناء الريفي في العراق، واكثرهم وضوحا في النطق ومخارج الحروف .

واحتاج مجهودات خاصة لتمييز نفسه عن زميله البياتي فكلاهما كفيف ويغني ذات اللون، ويتعرض لذات المخادعات والالاعيب من موسيقيي الفرق التي تصاحبهم، وتحاول اثارة التنافس بينهما .

السعدي الرابع هو الدكتور والباحث سعدي الحديثي كان وما زال يغني يوميا ولكن لنفسه، ولا يغني النمط الريفي وانما البدوي، شاء القدر ان يعمل مع الشاعر مظفر النواب خلال عملهما في التدريس فتصادقا في الحياة وترافقا في عضوية الحزب الشيوعي، وتزاملا في ذات الزنزانة في سجن نقرة السلمان سيء الصيت والسمعة.

صارا ينظمان حفلات غنائية لبقية المساجين، ولاحقا قدم مجموعة من الاغاني للتلفزيون والاذاعة لمجرد حرصه على ابراز التراث الفني والاغاني البدوية في منطقته حديثة بالانبار .

دفع ضريبة انتمائه الوطني والحزبي، وغنى مع مظفر في اكثر من مسرح، وظل المغني الابرز للنمط البدوي .

كلماته تطاوع احساسه فيأتي الاداء مشحونا، ومعبرا ومقنعا.

يجلس سعدي الحديثي يوميا للغناء لنفسه وتأمل نواعير المياه المنتشرة بكثرة في منطقته، يراقب ديمومتها فيراها ديمومة امل، ويراجع سنين حياته فيراها ديمومة ملل .

ويضيف في كل ناعور 24 عودا) قطرا (و 36دلوا، والناس تتشارك في ملكية النواعير، كل واحد يحصل على عدد من العيدان بحسب مساحة ارضه، ومقابل كل عود هناك عدد معين من ساعات الري .وقد يكون ليلا او نهارا .

هكذا يعيش المزارعون متعاونين اما الفنانين الجدد فانهم لا يتعاونون انهم يسرقون اغانيه وكلماته ويؤدونها بشكل هابط، خالي من الاحساس .

كنا نقول الدهر دولاب، لم يخطر ببالنا مرة ان نقول العمر ناعور !

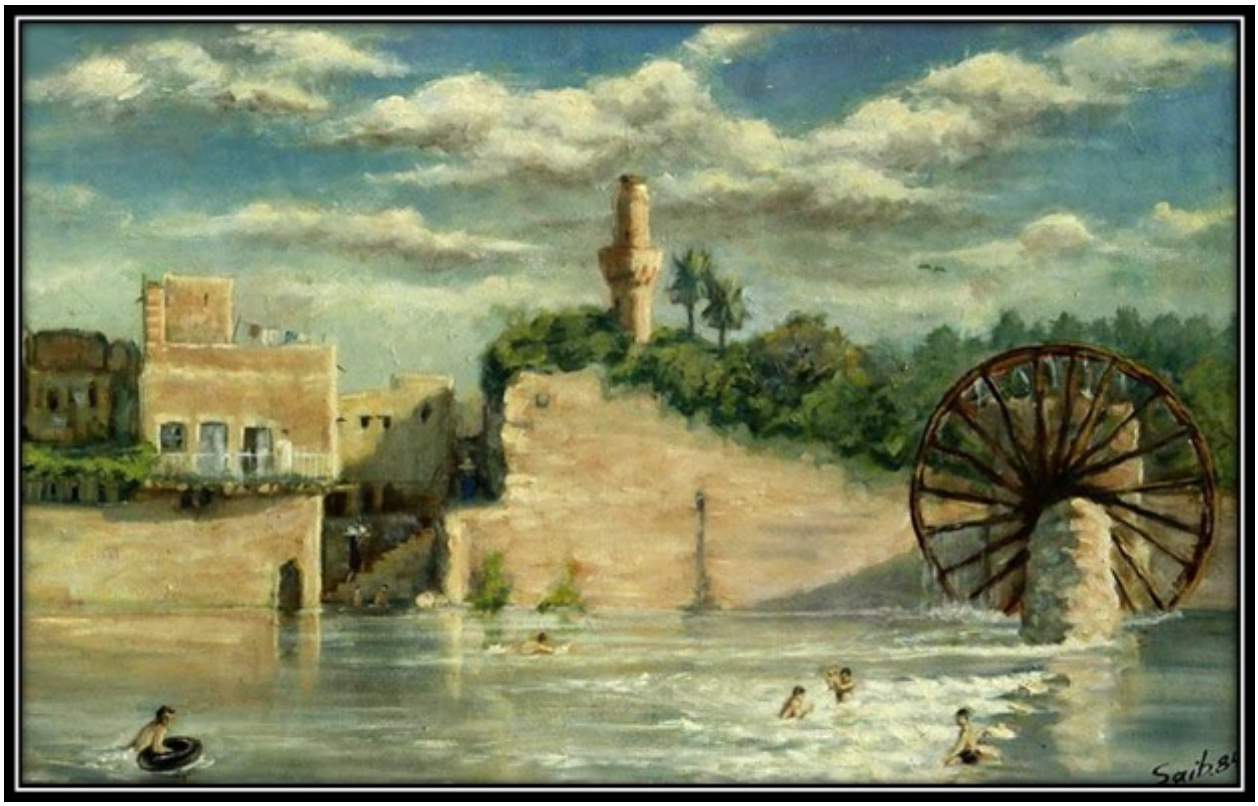

لوحة الناعور من صفحة الكاتب العراقي صائب خليل الراوي

بغداديات 59

يا مطر يا شاشا عبر بنات الباشا

لا احد يستطيع ان يؤكد ان تلك الشجرة في القرنة شمال البصرة، هي من صنف شجرة سيدنا آدم عليه السلام، سواء تلك التي اكل منها في الجنة، او الثانية التي جلس في ظلها منتظرا مرور حواء التي جاءته تمشي من سيرلانكا، حاملة معها مواصفات كل ما التقته في طريقها من لون وإحساس ورائحة وطعم وصوت.

التقت في طريقها بأفاعي ملساء ناعمة، وديدان تنتج الحرير، وحيوانات ترضع صغارها، واخرى تقاتل لحمايتها، وطيور تغرد وتبني الاعشاش، وزهور تنشر العطور، واشجار تفيح برائحة التوابل والبخور، واخرى تنتج الاكاليل والزيوت، سبحت في بحيرة هادئة، وشربت من شلال هادر، صعدت جبلا، نزلت واديا، فصارت ما هي عليه الآن، وأورثت بناتها كل ذلك اضافة الى تشقق الكعوب، لأنها كانت تمشي حافية القدمين .

عجز العلماء عن ادراك عمر هذه الشجرة التي ماتت، وبقيت مغروسة لوحدها في الارض، كتبوا بجانبها على قطعة رخام، إن هذه البقعة المباركة، حيث يلتقي دجلة والفرات، كانت تشرفت بزيارة سيدنا إبراهيم الخليل) عليه السلام (سنة 2000 ق .م .حيث قام وصلى بها وقال" :ستنبت هنا شجرة كشجرة آدم عليه السلام في جنة عدن ".

يزورها الناس للتبرك وطلب المغفرة، ورفع الدعاء بالستر والامان والشفاء، وتوسيع الرزق وقضاء الحاجات، ولكن من دون ان يسقطوا عن انفسهم

واجب الحج بركنه الاعظم الوقوف على عرفات، حيث التقى آدم وحواء وتعارفا، فالحج عرفة .

وكما كان اللقاء على الارض بعد الجنة فاتحة بشرية بدأت بمعصية، واستمرت بالشر العاجل والخير الآجل، كان التقاء دجلة بالفرات فاتحة حضارات يتعاقب فيها الخير والشر كالليل والنهار، ويسيران احيانا معا، يدا بيد وكتفا الى كتف .

لم تعرف بلاد ما بين النهرين الراحة ولا الكسل في أي يوم من ايام تاريخها البعيد، لقد ظلت منتجة على الدوام وقلقة باستمرار، كان عليها ان تشتق الابجدية وان تخترع الحرف، وكان على رجالها ونسائها ان يستيقظوا من الفجر ليتعلمو كتابة الادب والملاحم والشرائع، ويبنوا السدود والمعابد وتماثيل الآلهة، وان يرفعوا الصلوات طلبا لمساعدة القادة الباحثين عن الخلود، وكان عليهم بين كل حرب وحرب ان يصنعوا الاسلحة، وان يستقطعوا من ساعات نومهم ما يكفي للغناء والرقص، وهدهدة الاطفال والبكاء على الراحلين .

والبصرة لم تأخذ قيلولة كشقيقاتها، كانت تعمل تحت الشمس حتى في آب اللهاب، وكان مائها مالحا، فاحترقت بشرتها وتشققت، وكانت ثغورها مهددة، وعقائدها على طرفي نقيض، فظل اهلها مستيقظون، يهاجمون قوافل العدو وامداداته، ويقفون في وجه حملاته، يخلصون من فتنة الجمل فيأتيهم الحجاج، يطفئون لهيب حرب اموية عباسية، فتبدأ ثورة الزنج على المُلاك، يسقط العباسيون، وتستبدل البصرة حروبهم بحروب مغولية – تترية – صفوية – عثمانية – بريطانية .

تستقل مع عراقها لتتوالد لديه الانقلابات ولديها المظالم، تصير بوابة شرقية لحرب طاحنة مع ايران ستستمر 8 سنوات، ثم بوابة لغزو الكويت، فارضا لحرب استعادة الكويت، فحربا بين العراق والعالم لـ) تحرير العراق(، ثورة وانتفاضة بين كل حرب وحرب.

ومع ذلك فالبصرة لا تتوقف ولا تغفو ولا تستريح، ولا تسمح للكوفة ولا لبغداد ولا للقاهرة او الاندلس ان تستأثر بمدرسة في اللغة، او الفقه، وتقدم الفاتحين، والقضاة، والمجتهدين في التفسير قرآنا وحديث، والمناظرين القادرين على إفحام الخصوم، ومن يقدمون العقل على النقل، وتحول متسوليها الى ابطال مقامات حريرية" تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، توشحها الآيات، ومحاسن الكنايات و الأمثال العربية واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل المبتكرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهية."

عرفت البصرة طفلا بالاسود والابيض من شاشة التلفزيون الاردني، كان اللبناني رشيد علامة بفخامة لغته، بعباءته وعمامته وكل سطوته، يلعب باقتدار دور ابو زيد السروجي مقابل مروان حداد الذي يلعب دور الشخصية الساذجة صالح المهول، هل كان معهما عبد المجيد مجذوب؟ هل كانت معهما الاميرة هند ابي اللمع؟ لقد كان هؤلاء درة التاج في عرش الدراما التلفزيونية الفصيحة .

عرفت البصرة بعد ذلك من المكتبة، من الدؤلي وهو يشكل حروف القرآن وينقطها، ومن الفراهيدي وسيبويه وهما يبنيان قواعد النحو ويؤسسان علم العروض لضبط ايقاع واوزان بحور الشعر، ومن الفرزدق، والاصمعي، وابن برد، وهم ينسجون بالشعر آيات في الغزل والحكمة والرثاء والفخر

والمديح والهجاء، ومن ابن الهيثم، وابن المقفع، والجاحظ، والمعتزلة واخوان الصفا والزنج ورابعة العدوية، عرفتها من هؤلاء :علما وفلسفة وفكرا وثورة وزهدا .

سأزور البصرة لأيام في خضم حرب مع ايران، لا مجال لرؤية تمثال الفراهيدي او السياب، التماثيل اليوم فقط لجنود يشيرون بأصابعهم الى العدو شرق الماء .

وسأزورها لأيام اخرى في خضم حرب مع تحالف دولي، لديه صواريخ تسيرها اقمار صناعية تُغنيه عن ابي رغال، ثم في خضم انتفاضة سميت صفحة غدر وخيانة .

في المرتين لا مجال الا للإسراع بالمرور والنجاة .

اين البصرة؟ البصرة موجودة في الكتب، في الكتب فقط، هذه ليست البصرة هذه اوجاعها، وهذا ليس المربد هذا مقر للجيش الشعبي، وهذه ليست عباءات سود إنها يافطات تستعد لنعي الشهداء القادمين من الجبهة .

******

على مطلع قصيدة جسر المباهج القديمة جلس مظفر النواب، وكانت حانات العالم فاترة، وكان الملل كعلك بغي، قد التصق بقلبه، طلب من بحار البحارين ان يوقد فانوسا بزيت ما لمسته يدان، لعل الفانوس يصيرا روحا ترى العالم الفاسد :

دوزنت عقوداً أربعة

وشددت على وجع المفتاح الخامس والسابع

فاعترض النحو البصري عليَّ

كذاك اعترض النحو الكوفيّ

وأوغلت كثيراً في البحر

فأين البصرة ؟!

صحيحٌ أين البصرة ؟

البصرة بالنِيّات

لقد خلصت نِيّاتي

وتسلق في الليل عمى الألوان عليها

أين البصرة ؟

أين البصرة ؟ مشتاق

بوصِلتي تزعم عدة بصرات

*****

يشاء قدر البصرة الاسود ان لا يعيش مبدعوها طويلا على ارضها، فما عاشته مع اخواتها الجنوبيات من اقطاع وحروب واهمال دفعهم ليصبحوا قيادات شيوعية ومثقفين يساريين، تطاردهم السلطات فيندفعون الى المنافي، يموت بعضهم هناك غريبا منسيا كما حصل مع الفنان فؤاد سالم، او ليعود تمثالا كما حصل مع بدر شاكر السياب، فيما يمضي البقية ايامهم يكتبون شعرا يفيض حنينا كسعدي يوسف، وهو يكتب" أكثر من ذكرى ، أقل من ذاكرة"، او سخرية كأحمد مطر حين يعتبر ان المصاب بحبسة الصوت مصاب بالشفاء، فيما يرسم الآخرون شناشيل بيوت البصرة، يلونون

زجاجها بأحلامهم، ويضعون خلفها بنات الجلبي كما كن في خيال مراهقتهم البعيدة .

اعجبني كثيرا غناء الفنان سعدون جابر لمقاطع من قصيدة بدر شاكر السياب" شناشيل ابنة الجلبي "ضمن احدى حلقات المسلسل التلفزيوني عن حياة الشاعر، لقد جاءت الموسيقى وجاء الاداء منصفا لروعة الشاعر وجمال القصيدة :

وأذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور

من خلل السحاب كأنه النغم

شناشيل ابنة الجلبي نور حوله الزهر

وآسية الجميلة كحل الأحداق منها الوجد والسهر

وفتحت السماء لغيثها المدرار بابا بعد باب

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلئ

***

يا مطرا يا حلبي، يا حلبي / عبر بنات الجلبي

يا مطرا يا شاشا، يا شاشا / عبر بنات الباشا

يا مطرا من ذهب / عبر بنات الجلبي

****

ثلاثون انقضت , وكبرت كم حب وكم وجد

توهج في فؤادي!

غير أني كلما صفقت يدا الرعد

مددت الطرف أرقب : ربما ائتلق الشناشيل

فأبصرت ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي!

ولم أرها . هواء كل أشواقي ,أباطيل

ونبت دونما ثمر ولا ورد!

لوحة الفنان فاضل عباس

بغداديات 60

عمّو بابا وحلاق اشبيلية

مات اللاعب العراقي احمد راضي امس (20 حزيران من عام الكورونا) بالكورونا الحقيرة، كان اسمه قد ورد في حلقة لم تنشر بعد من سلسلة بغداديات، مجرد ورود في سياق قصة عن المطرب سعدون جابر والشاعر كريم العراقي، غير ان وفاته واتصال الصديق محمد علوي، وطلبه مني ان اكتب عن هذا اللاعب الشهير، دفعاني بعيدا الى جزء غير مضاء من الذاكرة.

لم اتعلم على اية آلة موسيقية، سعيت لتعويض النقص مع اولادي، لم تكن ثقافتي الموسيقية تتجاوز حدود ما هو شرقي، قرأت سيرة حياة بيتهوفن مبكرا جدا، من كتاب استعارته شقيقتي الكبرى من مكتبة مدرستها، ما زلت اذكر ذلك الكتاب بغلافه المصقول المتين، كان من اصدار دار العلم للملايين ببيروت، ايامها كانت القاهرة تؤلف وبيروت تطبع، وبغداد تقرأ .

لم يصدق شقيقي الاكبر انني قرأت الكتاب كاملا، فتح احدى الصفحات، وسألني :ما معنى انامله؟ لم اتذكر ساعة السؤال ان الكلمة قد مرت علي اثناء قراءة هذا الكتاب او غيره، ولكنني اجبت ودون سابق معرفة : اصابعه الصغيرة، جاء الجواب من الوحي والتوقع المبني على السياق .لم انج فقط من السؤال، لقد نلت الاستحسان، والمزيد من الكتب .

كنت افضل القراءة على اللعب مع الاقران في الحارة، كانوا يضعون الاحجار لرسم حدود المرمى ويتقسمون فريقين، تنتهي كرة القدم في الحارات عادة بمعركة، او كسر شباك، او خروج جار غاضب لتفريق

الاولاد، اذكر انني لعبت معهم مرات قليلة، كحارس مرمى، ليس ابعد من ذلك .

اذكر انني قرأت كامل اصدارات هذه الدار عن المشاهير :مدام كوري، هنيبعل، ليوناردو دافنشي، عباس بن فرناس، هيلين كيلير، وغيرهم، قبل ان انتقل لقراءة الالغاز) تختخ ونوسة ومحب وعاطف ولوزة، والشاويش فرقع (وبعدها الشياطين الـ 13.

ان تقرأ عن بيتهوفن دون ان تسمعه خلل كبير، سيتكرر هذا الخلل ليرسم معارف جافة دون مهارات، وان تسمع بيتهوفن وغيره دون معارف تضع الموسيقيّ والموسيقى ذاتها في سياق، هو الآخر خلل يتكرر ليصنع ذائقة تفتقد الى التأصيل، ويقودك في الاربعين الى شراء طبل الكشافة لأولادك، لمجرد انك كنت تشتهي في طفولتك ان تكون كشافا، ترتدي البنطال الرمادي والقميص الازرق السماوي (السمائي او الماوي حسب التعبير العراقي) وتعقد منديلا حول رقبتك وتضع طاقية خاكية على راسك، فيما تثني اصبعين وترفع ثلاثة بتحية الكشافة .

ربما يكون اول التقاء لذائقتي الموسيقية مع الاوبرا او السيمفونيات تم عبر برنامج الرياضة في اسبوع والذي كان يقدمه شيخ المعلقين الرياضيين مؤيد البدري على شاشة تلفزيون العراق، كانت مقدمة هذا البرنامج قطعة موسيقية رائعة، لا تمل الاستماع لها، ولن تجد ما هو انسب منها كمقدمة لبرنامج رياضي، ستصير هذه المقطوعة شيفرة لكل برنامج رياضي ولكل ذكرى رياضية ولكل هدف او انتصار كروي، وها هي تعود تتموج وتتقافز في راسي لمجرد سماع خبر وفاة اللاعب احمد راضي .

لقد كانت موسيقى" حلاق اشبيلية "للايطالي جواكينو روسيني.

ها هو الخلل التأصيلي يتكرر، والاوبرا الاشهر عالميا، والتي تتحدث عن حلاق سليط اللسان ينجح في فركشة زواج المصلحة، ويعيد المحبوبة الى حبيبها، تتحول الى شيفرة تدل على برنامج رياضي يقبع في الذاكرة بمقدمه مؤيد البدري صاحب الوجه الاكثر سماحة، والتعليق الاشد انتصارا وحماسا، كان في تعليقه الرياضي يعاتب اللاعبين بشكل ابوي دون ان يجرحهم :يا عيني، يا ابني، هاي ليش هيج؟ !يلّا ما يخالف خيرها بغيرها .

والذكرى تمتد لتطال نجوم كرة القدم في هذا البلد، ومدربهم السرياني صاحب الوجه الذي يفيض طيبة، بلغته المكسرة التي لا تفرق ابدا بين المذكر والمؤنث،" عمو بابا "الاسم وحده فقط يفيض طرافة وطيبة .

كان اسمه عمانوئيل بابا داود، لكن العراقيين لا يتركون اسما على حاله، نحتوا الاسم فاصبح أجمل واطيب واصدق تعبيرا عن سمات هذا الرجل، او (هذه الرجل كما كان يقول).

في مقابلة معه، وجوابا على الاستعانة بمدربين اجانب قال عمو بابا حرفيا ما نصه .....:"آني اختلف عن هوايا ناس ...انا عراقي صافي، من صميم قلب، احب عراق، احب الاطفال العراق، انا يلزمني بكاء لما اشوف اطفال عراق"، ....هاجرت عائلته ولكنه بقي في العراق متحملا كل المطالب التعجيزية والتدخلات غير المهنية التي كان يمارسها عدي صدام حسين في الرياضة العراقية .

توفي عمو بابا في عام 2009 ، تلكأت حكومة العراق الغارقة في الفوضى والفساد والطائفية في علاجه من مرض السكري، بدأ الاطباء ببتر اصابع قدميه التي ركضت كثيرا خلف الكرة، ودفن اخيرا حسب وصيته في ملعب الشعب، هذا الملعب الذي شهد امجاده كلاعب وكمدرب .

وتقاعد مؤيد البدري) ابو زيدون(، بعد 30 عاما واسبوعا من تقديم برنامجه الرياضة في اسبوع دون أي انقطاع، تقاعد مع انقضاء العصر الذهبي لكرة القدم العراقية، الفوز بأربع بطولات من خمس مشاركات بكاس العرب، الفوز بكاس آسيا مرة واحدة، والفوز بكأس الخليج 3 مرات.

من بين النجوم الذين حققوا هذه الانجازات :فلاح حسن، حسين سعيد ، عدنان درجال، ناظم شاكر) وأخته (سمير شاكر) حسب تعبير الرائع عمو بابا(، كريم صدام، باسل كوركيس، وغيرهم وكان الالمع حضورا على الدوام احمد راضي) ابو هيا(، كان الاكثر وسامة وجمالا، ترون ذلك بوضوح في وجه ابنته الدكتورة هيا.

كانت صور احمد راضي مدفونة في كتب وصدور وتحت مخدات فتيات العراق، وكان الاشد تهذيبا في الملعب وخارجه، والافضل في آسيا عام 1988، وواحدا من بين عشرة لاعبين هم الافضل في آسيا خلال القرن الماضي، وكأن هتافات التشجيع لفريقه الزوراء صيغت لأجله:

يلعب بخلق راقي / زورائي وعراقي

ابيض يرفع الرأس / عالي وفوق باقي

وكان كذلك الألبق حديثا، لذلك لم استغرب اطلاقا ان يكون المبادر لتسجيل ونشر فيديوهات تدعو الى الوقاية من مرض الكورونا، وتحث العالم على امداد العراق بأجهزة التنفس التي يحتاجها المرضى في هذا البلد المنكوب، ولم استغرب انخراطه في السياسة وفوزه بعضوية مجلس النواب ولكن ضمن كتلة التوافق العراقية .

اعاود الآن سماع" حلاق اشبيلية "فلا ارى عازفين ولا الآت، اشاهد احمد راضي يستقبل الكرة بصدرة يكتم انفاسها بقدمه، يتقدم بها بكل اناقة، يسير

مسرعا واثقا، يراوغ لاعبا لاعبين، يتقدم الى منتصف الملعب، يمرر الكرة بكل ثقة، ويتقدم متهيئا لاستقبالها مرة اخرى، يستقبلها فعلا، ويراوغ ويراوغ بكل اناقة، مؤيد البدري يقول برجاء :روح احمد، روح احمد، الجمهور يقف على رؤوس اصابع اقدامه متحسبا متحفزا يقظا، يضع احمد الكرة في الزاوية البعيدة، ويضع جسده في احضان الفريق، مترفعا عن اظهار الفرح بالهدف حتى لو كان هدفا حاسما، مؤيد البدري يهتف: جووووووول، جول بديع، الله عليك يا احمد راضي، الهدف الاول لمنتخبنا الوطني العراقي في مرمى بلجيكا يسجله احمد راضي، الهدف الاول للعراق في كاس العالم يسجله احمد راضي .

النجم الرياضي المرحوم احمد راضي

بغداديات 61

بستوكة من طرشي النجف بالكرادة

مات حميد الربيعي امس (21 حزيران من عام الكورونا) بعد يوم من موت احمد راضي، الموت امر محتوم، خبر مسبق يكتب مع الولادة، ويتأخر نشره، يتأخر ليقهرنا، ليذكرنا بما نحن عليه من أفول يتدحرج، الموت لا يأتي منفردا، وقد يأتي جماعات .وحين يأتي فهو لا يتراجع .

مات حميد عن 69 عاما و 5روايات ومجموعتي قصص ومتوالية قصصية، وكتاب عن السرد كشغف، ومات عن كثير من الاحبة، وكثير من الاوجاع، مات قبل ان نلتقي، وقبل ان يلبي فضوله الشخصي فيكتشف سر معرفتي بالعراق وحجم محبتي له، وقبل ان تُلبى رغبته بزيارة فلسطين .

كان يسألني، ويضيف بعد كل سؤال :لك الحق في عدم الاجابة .كنت اجيب حتى اصبحنا تقريبا على ثقة غير معلنة باننا سنلتقي يوما ما، وربما تولد لدينا الانطباع باننا نلتقي فعلا ولكن دون ان ندري .

كتبت عن حي الكرادة الذي عشت فيه لسنوات فعلق لي مستغربا :اسكن في هذا الحي ولكنني لا استطيع وصفه كما فعلت، قلت له :انها رومانسية المكان حين يصبح بعيدا، وافق واضاف :ان الاغتراب داخل المكان يجعل من سردياته واقعية غرائبية، فحال العراق اليوم لا يمكن التعبير عنه الا بالواقعية الغرائبية، قلت له :وحالنا ايضا في فلسطين، ولذلك اهرب احيانا للكتابة عن اماكن وازمنة مريحة.

بحسب ما قرأت للنقاد فان روايته الاخيرة" احمر خانة "تجاوزت الخطوط الحمراء، ووظفت التاريخ والأساطير بأسلوب سردي مبتكر .ويبدو ان الاسلوب الابتكاري في السرد قد تكرر في متوالية" غيمة عطر "حيث جمع كافة شخوص قصص المتوالية في قصة اخيرة.

السرد كان شغفه وقد عبر عن ذلك في عنوان كتابه" سرد بوصفه شغفاً :عن الرواية وآفاقها"، تحدث عن أسطرة المكان وأنسنته، فعقد مقاربة بين رواية "المسكوبية"، للصديق أسامة العيسة، ورواية" عمكا "للروائي العراقي سعدي المالح، فالأولى تسلط الضوء على بناء السجن/الخان، القريب من القدس، والثانية تحاول أن تؤسطر منطقة عينكاوا، القريبة من مدينة أربيل .

الكرادة بالنسبة لي كانت مريحة مكانا وزمانا، وقتها كان الربيعي كالاحبة الآخرين في الغربة لأسباب سياسية، لقد غادر العراق عام1979 ، وتنقل بين الكويت وبلاد المغرب العربي والنمسا، وعاد إلى بغداد بعد 30 عاماً . كانت الانفجارات تستهدف هذا الحي اكثر من غيره، ربما لأنه اجمل من غيره .

بنظري كان السعدون شارعا تجاريا متوحشا، واما الكرادة فشيء مختلف تماما، ما ان تبلغ نصب كهرمانة حتى تستوى قامة التاريخ، وتشاهده منتصبا على قدميه، وترى النحات محمد غني حكمت حارسا لهذا التاريخ، ومستحضرا علي بابا من الف ليلة وليلة، ليجسد الفتاة الشجاعة كهرمانة، واقفة تصب الزيت الحار من جرتها الكبيرة على أربعين جرة تطل منها رؤوس أربعين لصاً.

لا نظير للبهجة التي كان يبثها شارع الكرادة، ولا مثيل للتعايش الذي كان سائدا في هذا الشارع، حيث المساجد والحسينيات والكنائس، وبقايا يهود وكثير من الكرد والعرب .

في مطلع الكرادة تشكيليون وادعون يؤمنون بإلحاح ان الله محبة، حتى لم يعودوا يذكرون دياناتهم ولا طوائفهم، يعيشون في مراسمهم الصغيرة، يشربون ويرسمون ويبيعون لوحاتهم فقط اذا ساءت احوالهم وفقط لمن يقدرون انه سيقدرها .

اين ذهب هؤلاء الرائعون الغائمون ذوي الحضور الخفيف اللطيف، والصمت الحكيم، هل اغتالهم" فرانكشتاين في بغداد "طبقا لرواية السعداوي، ام دفنتهم انعام الكجه جي في مقبرة بالمنفى ووضعت شواهد قبورهم على خارطة افتراضية كما في روايتها" طشاري."

في سوق الكرادة المسمى ارخيتة طاعنات في السن يفضن رحمة، حتى ليصبح كل المارين اولادهن، يبعن الخضار واللبن وزنود الست والزلابية والكاهي والقيمر، امام متاجر يتصف اصحابها بالرحمة، ولكل من بضاعتهم إن اشتهى نصيب.

في الكرادة محلات ملابس أنيقة يمر أمامها الشباب مغازلين اي أنثى، وإناث يفضن شهوة، كل عراقي هو بالفطرة عاشق هز الهوى مهده، فصار شاعرا او مطربا، وكل عراقية تستطيع ان تكون عشتار حبيبها ومريم سواه.

قالها الشاعر مظفر النواب وغناها الفنان رياض احمد :

تعلل فالهوى علل / وصادف انه ثمل

وكاد يشف لطيب منبعه / ومانع الخجل

عراقي هواي وميزة فينا / الهوى خبل

يرب العشق فينا في المهود / وتبدا الرسل

وامي ارضعتني من فرات حليبها

ان الصلاة على تراب لا يوحد

ليس تكتمل.

لا احد يمل السير في هذا الشارع الطويل المحاذي لدجلة الخير ام البساتين كما قال الجواهري، كان يلفظ العراق بعين مضمومة مرفوعة، لان عينه لا يجب ان تكسر .لعن الله من كسر قلوب امهات العراق، وادمى اجساد اطفاله وابكى اعين رجاله

تمر بسرب طويل من البارات، حيث فريدة تجالس اختيها لؤلؤة وشهرزاد، لكل بار مطربه المفضل فهذا يتشدد لحميد منصور ويسمعك منه سلامات، وآخر يتحفك بعيون قلب نجاة الصغيرة وبتقريبها للبعيد، وذاك يتشدد فقط للعزيز ياس خضر باحثا عن طعم ليل بنفسج النواب، وتائبا من الحلو الكذاب، ورائحا غاديا مع قطار حمد، باكيا قرب ام الشامات، او لإم كلثوم حائرة ساهرة فاكرة صابرة، ذكريات وآهات ووعد بلقاء الغد الآت.

تعبر المطاعم التي تفيض خيرا ولا تتفاضل الا في الخيار الصعب بين السمون وخبز التنور .فمحلات الجزارة والخضار والطرشي القادم من النجف مختالا في بستوكات، لتقف امام السيراميك وهو يشهد على ابداع الانامل، وينبض بقلب صانعه.

قد تنحرف يميناً فتبلغ نهر دجلة وقد تستمر قدما فتبلغ جسر الجادرية وجامعة بغداد، قد تتعب فتجلس على احد المقاهي، حيث لا مثيل لاستكانة

الشاي وأصالة الناس ومتعة الأحاديث، اذا سرح خيالك وحلق سيصطدم بالمتنبي بالسياب وسيرتد سومريا اشوريا بابليا عباسيا .....تعود من سرحة الخيال لتجد انك استحضرت معك كل الازمان ....وانك تشمها وتلمسها في صوت حسين الاعظمي وهو يندب وفراقهم بكاني....

الكرادة لم تعرف الملل يوما، قديمها يعانق جديدها، ويسبحان معا بحمد خالق واحد أحد، ساكنها يرحب بوافدها، ويتسامران ليلا طويلا يقصره الانسجام .

في ذلك الشارع عاش حميد الربيعي، ولم يكن بمقدوره ان يكتب هذا لأنه يرفض وضع رأسه في الرمال مثلنا، كان سيكتب سردا غرائبيا عن ولادة كهرمانة شجاعة، تنتج من تمازج الخمر في احمر خانة، واحمر دماء الضحايا، واحمر علم الثورة لتسكب الزيت الحار على اوكار تجار الدين ولصوص الشرائع .لتتحول الى تنين يحرق خطابات السياسيين .

لم يضع راسه في الرمال ايضا حين هجم فيروس كورونا، كتب يومها :

نحن بأمس الحاجة الى عالم اخر، تسوده القيم والاخلاق والمبادئ الانسانية.

مرض كورونا كشف كل المستور من التاريخ الطويل، الذي مر الانسان به، حيث اصبح يواجه مصيره الفردي بنفسه وليس ثمة انظمة) عادلة (تحميه او تقية شر ما يخطط له رأسمال وعولمة الانظمة السائدة الان.

ان الاستمرار بهذا النظام العالمي سيقود البشرية الى التعاسة والتهلكة، ولابد من بحث عن مخرج اخر ، يعيد الى الحياة رونقها وبهاءها ويجعل من الانسان قيمة ، بعيدا عن التلاعب بمصيره بشكل اهوج من قبل افراد او شركات او حكام اغبياء وطغاة.

ان العودة الى الخليقة الاولى والتي يكون الانسان فيها هو المحور، من ناحية وجوده وحاجاته وامانيه في عالم جديد، تسوده العدالة , هي المسعى القادم للنظام العالمي.

انها دعوة لان يلتقي الحكماء والمصلحون والمثقفون لانقاد البشرية مما هي سائرة نحوه.

وداعا حميد الربيعي، اشعر اننا التقينا فعلا، رغم ان راس احدنا كان في الرمل، فيما رأس الآخر مشغولا في اظهار مدى غرابة الواقع .

الروائي المرحوم حميد الربيعي

بغداديات 62

كيف اتى ايمن المقدسي الى بغداد؟ واين اختفى؟

ان اعيش كفلسطيني في بغداد، بأجواء مريحة نسبيا، وان يحرم من العيش فيها بذات المقدار من الراحة عراقي اجبرته السياسة على مغادرتها للمنفى، مفارقة تنبهت اليها مرارا، وكنت اطويها على عجل، غير انها ثارت بالأمس بقوة، وانا اتذكر شارع الكرادة الذي عشت فيه، فيما كان الراحل حميد الربيعي وآخرون كثر يعيشون في المنفى.

ان اعود الى وطني فاكتب عن العراق، شبيه بغربة حميد داخل وطنه حين عاد للعيش في هذا الشارع فاختار ان يكتب عن بغداد ولكن في زمن وفضاء آخر غير الذي يعيشه، مستخدما التاريخ والاسطورة ورموز ازمان قديمة لعكسها على شخوص الحاضر .

"المدينة المدورة :مدينة إن لم تدخلها، كأنك لم تر الدنيا "هكذا يفتتح حميد روايته احمر خانة، وفيها مدينة بغداد موجودة بخارطتها السياحية ومعالمها الرئيسية :بوابات، ازقة، اقواس، حمامات، اسواق، وتماثيل محمولة على شخوص اصحابها :علاء الدين على فانوسه، وشهريار وشهرزاد في رخام تمثاليهما، وكهرمانة تسكب الزيت الحار على الجرار، وشخوص الماضي يقومون بمهام الحاضر، وبلغة الحاضر وبكل ما فيها من صفاقة، ابن الاثير، اهل الكهف وكلبهم لاوي ذيله، ابو النواس البرونزي محمولا بأيدي عامل متكرش يعيد وضعه في مكانه، ليسترخي التمثال ويشرب العامل كاسه.

بشكل او بآخر المقارنة بين الفلسطيني اللاجئ الى العراق وما يملكه من حظوظ، وما يحمله من افكار، وبين عراقي لا يملك من حظ سوى النجاة من

حروب العقدين الاخيرين من القرن المنصرم، ولا يحمل من افكار سوى ما يقوده غربا على امل الخلاص من الديكتاتورية والحرب، هذه هي الفكرة التمهيدية التي احتلت الصفحات السبعين الاولى من رواية الكاتب العراقي علي بدر" مصابيح اورشليم :رواية عن ادوارد سعيد ."

قرأت الصفحات السبعين الاولى، ولم استطع مواصلة قراءة ما جاء في الصفحات التالية وعددها 270 تقريبا، حصل معي تماما ما توقعه الدكتور عادل الاسطة، والذي حكّم الرواية واعطاها علامة ممتازة وجعلها الثانية على 25 رواية تقدمت لمسابقة مؤسسة فلسطين للثقافة عام2009 ، يومها كتب الدكتور عادل" :مصابيح أورشليم "رواية جيدة، ولكنها رواية لنخبة النخبة .ولن يستطيع قراء كثيرون فهمها واستيعابها، بل ومواصلة قراءتها . الا اذا قرأ الكثير من الروايات الاسرائيلية .

تعجبني آراء الدكتور الاسطة، ويعجبني حجم اشتغاله وانشغاله وفرادة المواضيع التي يطرحها وكذلك بعده عن اي حسابات مهما كانت .

علي بدر العراقي الذي لم يزر القدس، الا بعد عشر سنوات على الاقل من صدور روايته، يرسم بكلماته ادوارد سعيد في القدس، يرافقه يائيل وإيستر، وهما من أبطال روايات إسرائيلية، حيث يقودانه في المدينة التي غيرت الكولونيالية معالمها، فأصبحت غريبة على ساكنها المحلي .

إيستر ويائيل مولودان في إسرائيل، وحالمان بدولة لا تتحقق أبداً :يائيل المؤمن بدولة إسرائيل يفقد إيمانه بسبب الحرب ثم يخون إيستر مع سائحة أمريكية، فتنهار حياة إيستر، وتجد أن كل شيء يحيط بها زائف، كل شيء في إسرائيل معرض للخلل والانهيار، وتخونه ولكن ليس مع امريكي بل مع عربي .

هذا التبسيط الروائي، المأخوذ من غلاف الرواية، والذي قد يراه البعض كاشفا، يأتي محمولا على صفحات طوال تحتشد فيها وقائع سيرة ادوارد سعيد الحقيقية وما هو متخيل خلال زيارته الحقيقية للقدس، حيث يحتدم النقاش مع الاسرائيلي، فيتم استخدام آراء وافكار ادوارد سعيد لتفنيد رواية الاحتلال .

مهد الروائي علي بدر لكتابة الرواية بجعل نفسه الراوي والصديق الوسيط الصامت بين طرفي نقيض: الفلسطيني ايمن المقدسي والعراقي علاء خليل .

كيف اتى ايمن المقدسي الى بغداد؟

كانت الاميرة عالية مع زوجها الوصي على عرش العراق عبد الاله في زيارة لفلسطين، تفقدا خلالها الجيش العراقي المرابط في جنين، والذي يستعد للانسحاب بعد هزيمة النكبة، لاحظت فتاة منكسرة اسمها بهية، من بين الفلسطينيين الذين لجأوا الى معسكر القوات العراقية، رق قلبها لها، ورجت زوجها ان يأخذ هؤلاء اللاجئين الى العراق ليكونوا ضيوفه وهكذا كان.

كانوا فلاحين يزرعون في القرى وتحولوا الى سكان مدينة واسعة جدا ومعقدة، فعاشوا بداية على هامشها الاجتماعي، بحساسية مفرطة ورثها ايمن، الذي انجبته اللاجئة بهية عام 1964 في بغداد.

ولد ببغداد واحب بغداد ولكنه ظل لاجئا يشعر باليتم :يتم الهوية ويتم المكان، لم يكن امامه سوى الايمان بالقومية، لم يذهب الى الحروب الثلاثة، لا حرب العراق مع ايران ولا حرب احتلال ثم تحرير الكويت ولا حرب ما سمي

بتحرير العراق، ذهب للدراسة في الولايات المتحدة وهناك اعجبته افكار ادوارد سعيد وعاد يحملها معه الى العراق حيث عمل استاذا جامعيا .

علاء عراقي من الطبقة البغدادية المتوسطة، فشل والده في ان يصبح كاتبا، وظل يبكي ويعزو الامر الى تفاهة الجمهور وسطحيته، ولكي ينجح علاء في ان يصبح كاتبا، ولكي يحوز العذر والتبرير اذا فشل، ظل يحتقر ويتجاهل الثقافة العربية وجمهورها وكتابها، ووضع نصب عينيه تعلم اللغات الاجنبية، والكتابة بها، ثم الهجرة الى دولة غربية والاستقرار هناك، وهو ما لم يحصل، رغم اتقانه لعدة لغات ورغم قراءته لأمهات الكتب الغربية .

ايمن المقدسي هو نموذج المقتلع المغترب المنفي، ولد في بغداد ويحبها ولكنه لا يشعر انه ابنها، يشعر فيها باليتم، فيهرب من الوجود الواقعي الى ذلك الوجود المتخيل للقدس، كان يقول :اسرائيل نشأت من اسطورة وطالما كل الحروب فشلت لماذا لا نجرب الرواية .....اعادة سرد الاساطير لتكذيبها، زيارة ادوارد سعيد للمدينة وافكاره تنسف اساطيرهم سأكتب ذلك في رواية اعكف على جمع مواردها .

علاء العراقي كان يحسد ايمن الفلسطيني لأنه غير متورط بوطن، كان يقول :ان تحلم بوطن خير من ان يكون لك وطن تكرهه، وتبغضه وتريد ان تتحرر منه، والحرب تكشف زيف ان يكون لك وطن تموت من اجله .اذا كان التاريخ بالنسبة لأيمن اختراع فان الوطن بالنسبة لعلاء اختراع يريد ان يكذبه ايضا .

يعود ايمن في الاجازات من امريكا مرتديا ثيابا امبريالية، فيما يعود علاء من الجبهة مع ايران، ايمن يقدم نقدا لاذعا لسياسات امريكا، فيما علاء

يعتبرها المنقذ ويردد اكثر الافكار الاستشراقية سلبية عن الثقافة العربية : جمود العقل العربي، اتكالية، ايمان بالغيبيات، غياب للحرية الفردية .

كان ايمن منفيا خارج وطنه، واما علاء فقد نفى نفسه بنفسه داخل وطنه . انتهت حرب اولى مع ايران بعد 8 سنوات، فبدأ علاء سعيه للهجرة، وقبل ان تنجح مساعيه، دخل العراق الى الكويت فعاد مجبرا الى الحرب.

كان يرى ان هذه حرب لها طعم مختلف، الغرب الذي يريد الذهاب اليه، جاء الى هنا، الهناك اصبح هنا، البعيد اصبح قريب، ...لكن هذا الهناك الذي كان مرغوبا دمر الشكل الاوروبي لبغداد واعادها الى مرحلة البداوة .

تبددت احلامه :اسطورة الفكر القومي تبددت على يد الديكتاتوريات، واسطورة الديمقراطية الغربية تبددت تحت نيران القصف الجوي والصاروخي لبغداد، ولكن في مرحلة التيه يحمل الناس افكارا متطرفة ولا يرون غيرها، ولا يستطيع امثال علاء ان يعيشوا دون يافطة فكرية، دون شعار يدافعون عنه، ويستخدمون في سبيل الدفاع عنه ما اختزنوه من ثقافة .

بدأت الحرب الثالثة وعلاء يحلم بالديمقراطية الآتية لا محالة هذه المرة مع الجنود الغربيين، ديمقراطية، وحداثة، وسلام مع اسرائيل، واقتصاد سوق، وثقافة حرة في عراق فيدرالي .

في مواجهة ايمن الذي يريد الاستعانة بأفكار ادوارد سعيد لتفنيد روايات الاحتلال عن القدس، كان ايمن يحتفي برواية" الصخرة "لكنعان مكية، الرواية التي تقول ان قبة الصخرة بناها كعب الاحبار بعد اسلامه، وانها صخرة موسى ومحمد معا، اليهودية والاسلام في قطعة واحدة، حيث هبط آدم من الجنة، وحيث كاد ابراهيم ان يضحي بابنه، حيث وقف المسيح في هيكل سليمان، وحيث صعد محمد الى السماء .

بدأت الحرب التي آزرها بكل قوة كنعان مكية من موقعه الاكاديمي كمعماري بارز، ومن موقعه السياسي كمعارض بارز لحكم صدام حسين، انهارت الدولة سريعا، ومع انهيارها طال السلب والنهب كل شيء، طال متاحف آثار، ومكتبات، ومؤسسات دولة، وجامعات، وقصور، سقطت ديكتاتورية السياسة ولكن الديمقراطية المنتظرة لم تقم، لقد حلت محلها فوضى وديكتاتورية الشارع .

اختفى الفلسطيني ايمن بعد ان سلم كل ما جمع من موارد لروايته عن القدس وادوارد سعيد للراوي) للكاتب علي بدر(، وكذلك اختفى العراقي علاء، اين اختفيا؟ ربما انتحرا لشدة خيبة الامل، ربما ماتا في انفجار عرضي من الانفجارات الكثيرة التي وقعت ايامها، ربما قضيا في احد السجون حيث يتم التعذيب الممنهج والسادي، ربما خطفتهما جماعة وطالبت بفدية ثم قتلتهما كما حصل في عدة مناسبات، ربما قتلوهما لمجرد تطهير الحي من أي ازدواج طائفي .اختفيا واخذ الراوي موارد الرواية ليكتبها خارج العراق .

خارج رواية مصابيح اورشليم سنجد ان الرواية الاسرائيلية التي تحتاج تفنيدا، ستتلوها روايات اخرى عن حقيقة امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، عن حقيقة التدمير الذي طال منشآت حيوية دون أي داعي، عن الديمقراطية والحرية التي اراد الغرب زراعتها، عن الانتخابات والطائفية والمحاصصة والفساد والفوضى .

ترى هل تراجع علاء عن افكاره وشعر بالندم بعد كل هذا الدمار؟ سؤال لن نعرف جوابه، ولكننا نعرف ان كنعان مكية ذلك المعماري والسياسي البارز، والذي شجع الحرب على بلده وكان عونا عليها، ابدى ندما وتراجعا وسعى الى ترميم بقايا سمعته في روايته الاخيرة" الفتنة ."

يقول مكية على لسان بطل روايته حيدر العراقي الشيعي، واصفا عملية اعدام صدام حسين :

"نجح الطاغية في إذلال سجانيه.... كان مجرد حضور هذا الرجل قد أصاب الجميع بالشلل" .... "لم يستسلم الطاغية .هنا يكمن معدن هذا الرجل، القائد الحقيقي المخلص لمعنى القيادة التي آمن بها دوما ...كل من تواجد في غرفة الإعدام كان عربي اللسان، وعربي الأصل، لكنه لم يكن عربي الروح ."

يا الله كم هي الحياة غير منصفة حين تخيرك بين صدام حسين وكنعان مكية، وتقترح عليك صناعة بديل ثالث لم تستطع هي صناعته .

لوحة الفنان مؤيد محسن

بغداديات 63

اللي يحب بطرف الجفن يطرز چفافي احبابه

كان صبيا على أبواب البلوغ مع بداية السبعينيات من القرن الماضي، يقضي نهاره على أطراف بلدة الهندية والتي سُميت كذلك نسبة لمستشار ملك الهند الذي زار المنطقة قبل قرنين في رحلة حج للمراقد المقدسة في كربلاء وقرر حفر قناة لتخفيف ملوحة الارض.

وككل صبي في عمره كان متمردا على جده وأبيه وعلى العادات والتقاليد، ولم يحرم على نفسه اكل سمك الجري والتي قال جده ان الامام علي لعنها بعد ان خبطت الماء أمامه وهو يتوضأ.

ولم يمنع نفسه من التلصص على الجارات، وهن يرفعن فساتينهن اثناء دعك الملابس في طشت الغسيل المعدني .

ولم يحرم على نفسه الخمر ايضا، بل انه صنعه بنفسه، حيث كان يضع طرف دشداشته في فمه ويتسلق نخلته المفضلة فيصنع حفرة في الجمّار الابيض بأعلاها لتتجمع هناك عصارة حلوة يتركها لتخمر وتصير مسكرا شديدا.

ومن اعلى النخلة وبفضل ذلك العرق المصفى كان يرى جارته زينب اقرب وأقرب، جرعة الخمر الصافي واغماضة العينين والالتصاق بِجِذْع النخلة تجعل رعشته الجنسية هزة كونية كادت في احدى المرات ان تطيح به أرضا، كما فعلت بأحد ابناء بلدته قبل سنين .

كانت زينب قريبة لكن الوصال بعيد، كأن الشاعر طرفة بن العبد عناه بهذين البيتين:

وأمّر ما لقيت من ألم الهوى / قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما / والماء فوق ظهورها محمول

في اوراقه الرسمية صار اسم منطقة سكناه طويريج) طويريق (وقالوا له انها تصغير لكلمة طريق ويقصد بها الطريق المؤدي الى مرقد الشهيد الحسين، ولكن صديقه الشيوعي المثقف قال ان سبب التسمية هو ذلك المهندس البريطاني الذي شيد الجسر الواصل بين طرفي الفرات وقال انه (Tow way reach) ولكن الاهالي دمجوا الكلمات وحوروها لتصبح طويريج .

اوراقه الرسمية تشير الى ان موعد خدمته العسكرية الالزامية قد بات على الابواب وتحديدا بعد عاشوراء .سيشارك في ركضة طويريج نحو المراقد المقدسة هذا العام عله يتمكن من الالتصاق بنخلته الحبيبة" زينب "للمرة الاخيرة قبل السفر شمالا لأداء فترة خدمته للعلم.

لقد اصبح شابا يجالس العشاق في الحانات بعد ان كان يشرب خلسة من الحفرة في نخلته الحبيبة، وكانت جسد زينب ايضا بديلا لجذع نخلته في مناسبات سرية متفرقة، ستكون تلك المناسبات سلواه ودفئه في ليالي الشمال الباردة والتي لا يقطع صمتها سوى أزيز رصاص البشمركة الأكراد.

نجا من الرصاص ومن حادث انقلاب ناقلة الجند التي تدحرجت واستقرت ككتلة من حديد على صخور شلال كلي علي بيك، ونجا كذلك عدة مرات من التسمم بعد تناوله عرقا رديئا قال بائعه انه من افخر خمور بعشيقة وهبهب ليتبين عكس ذلك ولكن بعد وقوع الفأس في الرأس .

نجا ليعود الى طويريج وليقع ضحية محبوبته زينب فقد كان ذلك يوم زفافها لشاب آخر، شعر ان طويريج مجتمعة صغيرها وكبيرها ونخيلها وجدران

منازلها تخرج لسانها له ساخرة منه، دار على عقبيه واتجه الى المشرب تناول من العرق المُسيّح ما يكفي للبوح بسره لمن لا يعرفهم ، ومن هناك اتجه الى نخلته فاعتلاها والتصق بها وسقط مرتعشا رعشته الاخيرة.

في الذكرى الاولى لسقوط العاشق صار قصيدة خطّها الشاعر طارق ياسين ولحنها حسين السعدي وغناها الدكتور فاضل عواد، فكانت جواز سفره الى عالم الفن قبل ان توقعه الأكاديميا في روتينها القاتل :

لا خبر لا چفيه لا حامض حلو لا شربت / لا خبر قالوا صوانيكم شموع انترست

والتمن الحلوات من كل بيت حلوه التمت / واترف اصابع ليلة الحنه بعذاب تحنت

وفد نوب فد نوب ما مش وفه لهنا وصلت / فد نوب فد نوب ما مش طيب لهنا وصلت

وفِي الذكرى الثانية لسقوط العاشق تحولت قصته الى قصيدة اخرى ولكن على لسان الحبيبة زينب ، كتب القصيدة الجديدة الشاعر زامل سعيد فتاح ولحنها طالب القرة غولي وغنتها اللبنانية دلال الشمالي لتكون الاغنية الابرز بين أغانيها السبعين.

وفِي الذكرى الثالثة جمع القدر بين فاضل عواد ودلال الشمالي في الكويت فكان هو حمد وكانت هي زينب وكان لهما هذه المحاورة الغنائية وفيها يقول الدكتور فاضل عواد احمد الجنابي:

ماسألتي لا قبل المهر، لا بالمهر لا بعده

يا حلوة جا ماي العشق يتبده ويتبده

العشق ما ينحزر جزره ومده

والشوق ذبني بحيرتي واتعده

وترد عليه دلال:

وگبل المهر ودينا الك، خط بهضيمة ترده

زيفك طلع يابد وفه، وحبك بصبخة تبده

عشگك حزرناه وانعرف جزره ، وتبين مده

چم گيظ واشچم شتا، ايش جاب العشگ وايش وده

اشتل ورود محبتك ، وزودك علي تسده

يقول فاضل :

ودينا لأهلك، القمر ويا النجم خطابه

صغنالچ انجوم الثريا قلادة يا حبابة

يللي محبتچ شجرة صنوبر بوحشة غابة

ما اريد عشرة من شمع وسط الشمس تتبدى

فترد دلال:

مالك فخر تمشي النجم، ويه القمر خطابه

اللي يحب ، بطرف الجفن يطرز چفافي احبابه

نجوم الثريا بكل وكت ، بگلادتك چذابه

چنک ولا معاشر نجم ، چنك نسيت حسابه

وانا بحمادك نوسرت، ايش جاب الحماد لغابه

الكويت التي احتفت بالمحاورة الغنائية ستصبح الى حين محافظة عراقية، ستسبق ذلك حروب شنيعة وستليها حروب اشنع، حروب ستلقي بدلال في مهاوي امريكا وبفاضل في غياهب ليبيا.

اللوحة للفنانة نادية اوسي

بغداديات 64

ابو لؤي صديقا لهتلر

تزوج 90 مرة زواجا شرعيا، و 200مرة زواجا مدنيا، انجب 365 ذكرا، ولا يعلم عدد الاناث، وله اكثر من الف حفيد، و 20 كتاب، حصل على 15 جنسية، أتقن 17 لغة، انشأ 16 اذاعة وجريدة، طاف العالم اربع مرات، وحكم بالإعدام اربع مرات.

التحق بالمدرسة العسكرية البحرية في تركيا العثمانية، ثم بالمدرسة الحربية للخيالة في المانيا، ولم يفلح في المدرستين، عمل مذيعا في بغداد وبرلين، وألف 20 كتابا في السياسة والرحلات، وعمل طباخا للمشاهير ببغداد والكويت، ومفتي ومراسل صحافي وداعية في اندونيسيا، وخطيب مسجد ورئيس تحرير وراقص في ملهى ليلي في باريس، وراهب في معبد بوذي بالهند، ومراسل لعدة صحف، وسباحا عالميا.

كما عمل مستشارا لعدد من الملوك مثل غازي في العراق والسنوسي في ليبيا وعبد العزيز في السعودية، وقابل عددا كبيرا من الرؤساء كالرئيس المصري جمال عبد الناصر ثم السادات والملك عبد الله ملك الاردن والشيخ زايد حاكم الامارات، والزعيم النازي هتلر ووزير دعايته غوبلز، اضافة الى الايطالي موسوليني وغيرهم كثير .

هذا غيض من فيض السيرة الذاتية لشخص عراقي حقيقي يدعى يونس الجبوري، وكنيته ابو لؤي، واما اسمه الفني فهو يونس بحري، المولود في الموصل عام 1904 والمتوفى فقيرا معدما دون عائلة او اصدقاء في بغداد

عام1979 ، وبين التاريخين كان هذا الرجل الداهية مثار الجدل في كل المجالس، ونجما من نجوم صفحات المشاهير في المجلات العربية .وصار بعد وفاته عنوانا لكثير من الكتب والابحاث التي تناولت سيرته .

كان من الصعب عليّ تصديق ولو ربع ما جاء في سيرته الذاتية، لولا انني اطلعت على مقابلات اجريت مع ابنته دكتورة علم النفس منى يونس الجبوري، وقرأت ما كتبه مجايلوه من الثقاة عنه، وما قرأته من مقالاته، واستمعت اليه من خطبه المؤيدة لهتلر، وما سمعته منه في مقابلة نادرة اجاب فيها على اسئلة كثيرة .

هذا الشهريار، السندباد، الصعلوك، الرحالة، المغامر، الدونجوان، الكاتب، السباح، الطباخ، المفتي، الرقاص، الخطيب، الداعية، المذيع، الرياضي، السجين السياسي والمتحلل من اية مسؤولية عائلية، كان وسيظل اكثر الشخصيات اثارة للجدل ليس في العراق فقط وليس في زمانه فقط، بل في العالم اجمع وربما على مر الازمان .

تقول ابنته الدكتورة منى انها لم تشاهد والدها مطلقا، رغم انه كان شخصية عامة في العراق، وشهيرا خارج العراق ايضا، وان كل ما تعرفه عنه هو انه كان وسيما ذكيا محبا للحياة ومغامرا، وتضيف انها لا تعرف من بين اخوتها الكثيرين جدا سوى الدكتور لؤي الذي يدرس في الجامعات الامريكية، والدكتور سعدي الذي يدرس في جامعة السوربون الفرنسية، وانها سمعت مثل الآخرين ان لها اخ يشغل منصب قائد البحرية الفلبينية .

كان والده صالح الجبوري برتبة يوزباشي مسؤول عن البريد بين اسطنبول وولاية الموصل، درس في الموصل وعمل فيها مبكرا صحافيا لسنة واحدة، ذهب الى بغداد ليدرس في دار المعلمين فلم يفلح وطرد بعد 3 اشهر، عمل

موظفا في وزارة المالية ثم استقال، وخرج الى تركيا سائحا وهناك بدا بدراسة العلوم البحرية العسكرية فلم يفلح، ذهب الى المانيا للدراسة في مدرسة الخيالة فلم يفلح ايضا، ولكنه تعرف هناك الى رسام اسمه هتلر، سيصبح فيما بعد زعيما للرايخ الالماني، وواحدا من قلائل تركوا ابلغ الاثر على تاريخ البشرية في القرن العشرين .

يقول بحري :تعرفت هناك الى هتلر كان يعمل رساما بائسا، يرسم بالفحم على جدران مطعم كنت اجلس فيه يوميا، فصرت اجالسه واعطيه دينارا كل يوم، فصار يرسم الزبائن على الورق مقابل بعض النقود .

خرج في رحلة حول العالم فكون ثقافة عالمية، وتعلم العديد من اللغات، وكسب الكثير من الاصدقاء، واقترن بالعديد من الزوجات، وانجب العديد من الابناء والبنات، وحاز العديد من الجنسيات، والكثير من نقمة الزوجات السابقات، وحسرة الاولاد والبنات .

يصفه المؤرخ الدكتور سيار كوكب الجميل بانه كان عجائبياً حقاً، فمن)معجزاته (أنه عبر مضيق جبل طارق سباحة 14) كم في اضيق نقطة (، وعبر صحراء الربع الخالي مشياً، بعد أن أوصلته سيارة بأمر الملك الي منطقة جازان .

ذكر د ,يعقوب الحجي في كتابه عن سيرة المؤرخ والصحفي الكويتي الشيخ عبدالعزيز الرشيد ، كان بحري يمنّي نفسه بأن يكون أول رحالة عربي يعبر الربع الخالي، لكنه بالاتصال بالسلطات النجدية الحجازية قبل توحيد المملكة وجد أن من الصعب السياحة في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية، وأنه لابد من الاستئذان من السلطان عبدالعزيز، وحين قدم إلى الحجاز أحسن استقباله، وسمح له بالتجول في تهامة، وأمر الشيخ عبدالله السليمان وزير

المالية بتجهيز سيارة تنقله الى الليث ثم بيشة وجازان، وقد استمر في رحلته حتى بلغ صنعاء وقابل الامام يحيى، ثم اتجه من اليمن عبر البحر إلى سنغافورة.

شارك بالصدفة ودون أي تدريب او اعداد في بطولة عبور بحر المانش 34)كم في اضيق نقطة (فحاز المرتبة الاولى متفوقا على سباحين من 36 دولة .وحصل على الف ليرة ذهبية .بحثت المانيا عن هذا البطل السباح، ومنحته جنسيتها وجواز سفر دبلوماسي .

وكان من الطبيعي ان تعلن العراق ان احد ابنائها الابطال قد فاز في مسابقة عالمية، وكأنها هي من ارسلته وليست الصدفة المحضة، وبعد فوزه في بطولة السباحة صار حديث الصحافة العربية التي بدأت تنشر اخباره وتسميه السائح العراقي، وتنشر مقالاته .مما سمح له بإقامة اوثق الصلات مع الكتاب والمفكرين والسياسيين في الدول التي زارها بعد ذلك .

ذهب مع صديقه الكويتي عبد العزيز الرشيد لزيارة مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود، والذي كان يطمح الى بسط النفوذ الديني لمملكته على المسلمين في كل مكان، فكلفهما بنشر الدعوة الى الحج في دول الهند الشرقية ذهبا الى اندونيسيا وكان لهما صولات وجولات واسسا هناك جريدة اسمها) الكويت والعراقي(، ليس العراق وانما العراقي في محاولة للاستفادة من شهرته ولقبه الجديد" السائح العراقي ."

من طريف ما يروي عن بحري انه عمل هناك مفتيا للدولة، اضافة لعمله في الصحافة والدعوة الاسلامية والتوسط السياسي بين الاحزاب، وذات يوم جاء رجل طاعن في السن يريد الزواج من فتاة صغيرة في العمر، فرفض بحري تزويجهما بحجة الحلال والحرام، وتزوجها هو في اليوم التالي .

عاد بهذه الشهرة الى بغداد فاصدر جريدة العُقاب المسائية، وكانت اول وربما آخر جريدة مسائية تصدر في العراق، لقد اراد من وراء ذلك منافسة الصحف التي تصدر صباحا في سرعة الخبر، وقد فاز في هذه المنافسة وصارت اخباره تسبق اخبار الصحف الاخرى ب 14 ساعة، وصار مذيعا في الاذاعة العراقية .

يقول المذيع يونس بحري" :كنت أذيع تعليقا سياسيا عن الوضع في فلسطين وما يعانيه أهلها من عنت اليهود وطغيان البريطانيين ,وبعد الانتهاء من التعليق طلبني رجل لم يذكر اسمه ,على الهاتف ,وقبل ان أسال من المتكلم , انهالت علي التوبيخات والشتائم ,وبعد أن هدأ الصوت من حدته اخذ المتكلم يردد ,آه لو كانت لدي اذاعة لا ريتكم كيف تذيعون ,ما هذه الميوعة المشينة في مخاطبة البريطانيين ,وانتهى الحديث .لقد كان المتكلم الثائر هو الملك غازي، وفي تلك الليلة كنت أسهر عند الوزير الألماني الدكتور فريتزغروبا وفي سياق الحديث رويت له قصة الغضبة الملكية .وقلت له :إنَّ الملك غازي يتمنى لو كانت لديه اذاعة قوية ليري العالم ,كيف يخاطب البريطانيين ,وغيرهم من المستعمرين .

كان الملك غازي على خلاف مع حكومته المؤيدة لبريطانيا، وكان مغرما بأجهزة الاتصال اللاسلكي، وكانت هوايته اقتناء هذه الاجهزة، وقضاء الساعات في المراسلات اللاسلكية عبر العالم مع اصدقاء افتراضيين لديهم ذات الهواية .

بعد اسبوع واحد فقط، أي في نهاية عام 1938 طلب الوزير الألماني غروبا يونس بحري، واراه صناديق ضخمة وقال له وهو يبتسم بخبث :هذه محطة اذاعة على الموجة القصيرة وبقوة (150) كيلو واط) اربعة اضعاف قوة

المحطات الاذاعية العربية في ذلك الوقت (خذها إلى الملك هدية من الزعيم هتلر.

قام يونس بحري بنقلها شخصيا إلى القصر ,واستقبله الملك غازي دون ان يمد يده لمصافحته ,فلقد كان حاقدا عليه بسبب تعليقاته المائعة ضد بريطانيا.

قال بحري للملك :سيدنا ان اذاعة بغداد هي اذاعة رسمية حكومية وأنا لا املك حق التصرف واقرأ ما من الحكومة عبر الاذاعة .ولكن يا سيدي لدي نبأ سار، هذه محطة اذاعة على الموجة القصيرة هدية من الزعيم هتلر لسيدنا .

تم تركيب الاذاعة وصار بحري الآمر الناهي فيها، فقدم الملك غازي ليلقي الخطب والتوجيهات، وقدم هو الرسائل والتعليقات السياسية المناوئة لبريطانيا وللحكومة وللاردن والكويت، وكان يتلو القرآن على المستمعين ان تأخر القارئ المكلف بذلك، واستقبل في هذه الاذاعة السياسيين والمطربين والادباء، وكان يصطحب منهم من يريد لمنادمة الملك مساء كل يوم .

قالت عنه بريطانيا بانه شخص متجرد كليا من المبادئ، وقال قنصلها ان تأثيره كان واضحا على سياسات وتوجهات الملك .

كان الوحيد تقريبا الذي المح الى ان الملك غازي مات في حادث سير مفتعل داخل قصره، وليس حادث سير ذاتي، ونتيجة لتحريضه هاجم عراقيون غاضبون من ابناء مدينته مقر القنصلية البريطانية في الموصل وقتلوا القنصل، صار مطلوبا للحكومة العراقية وللبريطانيين، فتوجه الى سفير المانيا الذي ساعده في التخفي والسفر الى برلين .

بحث عن صديقه القديم الرسام هتلر، فأعطاه رتبة ماريشال، فصار يضع الصليب المعقوف على ذراعه، واصبح واحدا من ابرز مذيعي قناة المانيا الناطقة باللغة العربية، والتي افتتحت بعد 3 ايام من وصوله وخصصت لتحريض العرب ضد بريطانيا، والتبشير بانتصار الفوهرر وهزيمة بريطانيا وعملائها من الحكام العرب، وكان يلقي الخطب الحماسية بادئا بعبارة تقليدية ظلت محفورة في اذهان مئات الألاف ممن كانوا يتابعونه "هنا برلين....حيّ العرب ."

في ذات الفترة كان اعداء بريطانيا يتوجهون الى هتلر ومنهم الوزير العراقي رشيد عالي الكيلاني، رئيس وزراء العراق في العهد الملكي لـ 3 مرات، والحاج امين الحسيني، والذي جند مقاتلين مسلمين من عدة دول للقتال مع الجيش الالماني، فتوطدت علاقة بحري بهم .

يقول بحري :جاء معظم المقاتلين من البوسنة، ولذك ظل الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروس تيتو يكرهني انا والحاج امين الحسيني طيلة حياته ويعتبرنا مجرمي حرب .

اقترح على الالمان بث تسجيلات للقرآن الكريم لكي تجذب العرب الذين كانوا يتابعون ايامها البث العربي لهيئة الاذاعة البريطانية BBC وافقوا على الامر، ويبدوا انه قد اثمر، فقامت الاذاعة البريطانية بعد ذلك بتقليدهم .

يقول الكاتب عيسى اللوباني في كتابه "صفحات مطوية من التاريخ، ان الحاج امين الحسيني ظل لشهر يخفي نبأ وصول رشيد عالي الكيلاني الى برلين، فيما فوزي القاوقجي يريد الاطمئنان عليه، تحرى يونس بحري عن الخبر، واذاعه قبل الحصول على موافقة الالمان او المفتي، كان بحري يشعر ان نفوذه البرليني قد تضاءل بعد وصول المفتي والكيلاني .

لم يتأخر الحاج امين الحسيني في فهم شخصية يونس البحري الزئبقية، وحبه للإثارة والتهويل، خاصة وانه كان يلجأ الى سب وشتم القادة العرب، ولا يلتزم بنصوص البيانات والتعليقات التي كان يعدها المكتب العربي في القدس، فأوصى بعزله، وكان له ما اراد .

وبحسب اللوباني فقد كان لبحري اصدقاء يمتهنون الرقص الاجتماعي : يذهبون الى الحفلات لاصطياد اية سيدة تأتي منفردة، او عجوز ثرية، فيراقصونها ويشربون على حسابها ثم يقتادونها الى اوكار متعتهم، داهمهم مرة قائد الغستابو بحثا عن ابنة اخته، فلم يجدها لأنها كانت في غرفة سرية، وقالوا يومها لو كانت لهتلر بنت جميلة لما سلمت منا .

هرب الى باريس بعد هزيمة المانيا، يقول الكاتب منير الريس في" الكتاب الذهبي للثورة الوطنية في المشرق العربي : "في صباح اليوم الثالث من مايو عام1945 ، جمعتنا الصدفة في مرسيليا بيونس بحري طليقا، يندفع نحونا يهنئنا ويعانقنا، فسألته :كيف استطاع الوصول إلى مرسيليا دون أن يقع بيد الحلفاء؟ فقال :إنه خرج من برلين مع عدد من الأجانب قبل أن يحاصرها الروس، وحرَّف اسمه المسجل في جواز السفر بالأحرف اللاتينية، ليكون :يوني باري جبوري، تحريفاً من يونس بحري الجبوري، وزعم للمحققين أنه كان معتقلا في ألمانيا، وأطلعهم على أثر جرح قديم في جسمه نتيجة شجار قديم، مدعياً أنه آثار التعذيب، فسمحوا له بالسفر إلى باريس

عمل هناك خطيبا في مسجد باريس، وانشأ جريدة العرب، وقتها طالبته بلدية باريس بضريبة مقدارها ثلاثة ملايين فرنك متراكمة عليهِ لم يدفعها طوال فترة إصدارهِ لهذه الصحيفة، وكان القانون الفرنسي آنذاك يعفي كل من أنجب 12 ولداً من الضرائب ، فأخبرهم إنه لديه أكثر من هذا العدد من

الأولاد، فطالبوه بإثبات ذلك، فذكر أسماء 45 منهم، وأماكن سكناهم حول العالم، فخرج موظفو بلدية باريس في حدث فريد من نوعهِ للبحث عنهم ووجهت لهم دعوة للحضور، وجمعت البلدية أولاده واستضافتهم لمدة شهر في فرنسا معه وعلى حسابها الخاص، وكان لقاءاً نادراً ذكرتهُ مجلات وصحف أجنبية عديدة في أوروبا بوقتها، وأعفي من الضرائب على أثر ذلك .

خرج من باريس في جولة جديدة من الترحال، فزار عددا من الملوك والرؤساء العرب، ومنهم الزعيم المصري جمال عبد الناصر، مما اثار خشية الحكومة العراقية من ان يستأنف هجومه الاعلامي عليها من القاهرة هذه المرة، فسعت لإعادته وعاد، وطلبت منه ان يتولى منصبا اعلاميا يهاجم من خلاله الرئيس عبد الناصر فوافق، ولكن ثورة تموز التي قادها عبد الكريم قاسم سبقت استلامه المنصب، فتم سجنه والحكم عليه بالإعدام، وتم تخفيض الحكم لاحقا الى المؤبد .

من النوادر التي حدثت لهُ في السجن أثناء اعتقاله بعد ثورة تموز 1958 إنه كان سجيناً مع توفيق السويدي) رئيس وزراء العراق الأسبق في العهد الملكي (في قاعة واحدة، وكان كلاهما يُكنى بأبي لؤي، وفي يوم من الأيام جاء ضابط السجن منادياً :من هو أبو لؤي؟ فخاف توفيق السويدي لأنهُ توقع أن يكون وراءه شراً ولم يجب .وأجابه يونس بحري وكانت المفاجأة أن الضابط أحضر مظروفاً يحوي مائة دينار فوقع بحري باستلامها وأخذها، وبعد أيام جاءت رسالة إلى توفيق السويدي تقول :هل استلمت المائة دينار؟.

جرى الافراج عنه، فخرج ليعمل طاهيا في مطعم يرتاده سياسيون يخططون للانقلاب على قاسم، وللتغطية على هذه المخططات قام بدعوة الزعيم قاسم الى مطعمه، فلبى الدعوة، ولكن سرعان ما انكشف امره فهرب

الى بيروت، وانتظر حلول الانقلاب على قاسم ليمدح الرئيس الجديد عبد السلام عارف الذي عفى عنه واعاده الى العراق .

عاش لفتره بسيطة في بيروت فالف عدة كتب، ثم سافر الى الكويت حيث اصبح مديرا لمطعم اسمه" مطعم المدينة "كان يملكه احد اصدقائه، وعمل كذلك في ابوظبي عام 1971 حيث اصدر صحيفة" ابوظبي نيوز "الناطقة بالانجليزية، ومسئولاً عن قطاع الشؤون الصحفية في وزارة الاعلام .

لما شعر بخفوت شهرته، سرب خبرا عن وفاته فتناقلته الصحف، حتى ان الشيخ زايد مازحه معزيا لما شاهده بعد ذلك، وحدث ان ام كلثوم كانت تزور ابو ظبي، فقالت له كيف بعثت من جديد؟ فقال لها سمعت انك ستغنين هنا، ودعاها الى حفل زواجه التسعين من فتاة سورية تدعى شهرزاد .

مكث يونس بحري أواخر أيامه في بغداد في بيت زميله الصحفي نزار محمد زكي) الذي كان مدير مكتب وكالة الانباء في بيروت(، وتوفى في مستشفى الراهبات ببغداد يوم 30 أيار1979 ، ودفن في مقبرة الغزالي، دفنته البلدية على نفقتها حيث مات فقيراً معدماً ومعزولا عن الاهل والاصدقاء .

ظلت ابنته الدكتورة مي تزور المقبرة، ولكنها لم تستدل على قبره الذي ترك دون شاهد، فصارت تجلس الى قبور الآباء الآخرين فتبكيه، وتترحم عليه وتسامحه .وكلها ايمان بان سيرة والدها لا تخلو من مصادفات ساعدته، ومن ظروف احسن استغلالها بذكائه وجرأته، ولكن تضخيما كبيرا جرى لعلاقاته النسائية وصداقاته مع الملوك، وربما يكون هو من سعى او ساعد في عملية التضخيم هذه .

يقول ابنه الفنان سعدي في أحد حواراته" :والدي اتقن عدة لغات، وكان الصوت العربي الذي ينتظره الجميع إبان فترة الحرب العالمية، وحكم عليه الإنجليز بالإعدام؛ لأنه كان رجلاً وطنيًّا مع حركة رشيد الكيلاني، وقد هرب من العراق وناضل ضد الاستعمار البريطاني، وكان ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، في فيلم سنوات الجمر للمخرج الأخضر حامينا والذي عرض في مهرجان كان السينمائي رايت مشهدًا يصور المجاهدين الجزائريين وهم يستمعون إلى صوت والدي في إذاعة برلين، وكان يقول بصوت جهوري قوي :أيها المجاهدون حاربوا الاستعمار الفرنسي وحرروا الجزائر، وكان أحد المجاهدين يهتف بحماس" حياك الله يا يونس البحري ..."ويضيف" والدي كان محبًّا للنساء، يقال إنه تزوج في كل بلد سافر إليه، أنا لا أعرف منهن إلا أمي والزوجة اللبنانية، أحاول أن أبحث عن إخوة متناثرين في أرض المعمورة، ولكن للأسف لا توجد الكثير من المعلومات أو الكتب التي صدرت عنه .ولكن أعرف أن والدي كان عاشقًا للفن، وكان له صوت جميل، وكان يغني في بعض المجالس والحفلات"

تنقل يونس بحري كثيرا في ارجاء العالم وما كان يحمل معه غير جوازات سفره، وفرشاة اسنان وادوات حلاقة، وصوت اذاعي رخيم، وحس فكاهي فريد، وروح مغامرة لا تعرف الخوف، والعديد من اللغات ومهارات العلاقات العامة، ولباقة اجتماعية، ومات وحيدا ومفلسا، وربما نادما على كثير من الاشياء .ولكنه ظل على الدوام منحازا لألمانيا في السر والعلن، حتى بعد هزيمتها وسقوط الحزب النازي

يصف يونس تلك الفترة العصيبة في لقاء مع رجل العراق القوي نوري السعيد، فيقول: "راح نوري يلومني ويعاتبني لاستمراري في نقد سياسته إبان الحرب وقبلها من إذاعات برلين، ثم قال وهو يتهكم ضاحكاً وبيده

مسبحته التقليدية: أرأيت كيف كانت نهاية أصحابك الألمان؟ وكيف اخترت يا يونس الصفقة الخاسرة".

ويضيف بحري: "كان اختياري عقلانيا، بريطانيا احتلت دولا عربية وانا اكره الاحتلال، واما المانيا فكانت صديقة للعرب أولاً، وعدوة لليهود ثانيا".

يونس بحري الى اليسار في حضرة الحاج امين الحسيني ورئيس وزراء العراق الاسبق رشيد عالي الكيلاني وعدد من الضباط الالمان

بغداديات 65

ولائي: اعيدوني الى العراق

"ذات مرة استطعت أن أغني في مكان ما، لكنهم انتظروني في الخارج وأشبعوني ضرباً بأعقاب المسدسات، وجعلوا دمائي تسيل على الأرض، عندها أيقنت أن لا مكان لي في العراق؛ لأنهم سيقتلونني في المرة القادمة ."

هذا ما قاله الشيوعي فالح حسن بريج، بعد ان حرمه البعثيون من العمل في معهد الفنون الحميلة ببغداد، ومنعوه من الغناء حتى في الأماكن العامة، بل ومنعوه من مجرد دخول الاذاعة والتلفزيون الذي احتفى به قبل ذلك بأعوام، ومنحه اسمه الفني" فؤاد سالم."

غنى مع فرقة الطريق العراقية التي اسسها حميد البصري وزوجته الفنانة شوقية العطار والشاعر زهير الدجيلي، ولكن هذه الفرقة رحلت عن العراق بعد التضييق على انشطتها .

ورحل هو ايضا، حمل مسقط راسه" التنومة "في قلبه وكانت غافية على ضفاف شط العرب، ومضى يغنى حب البصرة وبغداد في عواصم الخليج، الى ان وجد مستقره الفني المؤقت في عدن عاصمة اليمن الجنوبي ايامها .

غنت الفرقة العراقية اليسارية الكثير من الاغاني لفلسطين، على مسارح عدن ودمشق وبيروت والجزائر، قبل ان تواجه انشقاقات، وتتحول الى فرقة عائلية اسمها فرقة البصري، وتضم الاب حميد والام شوقية والبنت بيدر، واربعة اولاد يتوزعون على مواهب العزف والاخراج المسرحي والتصميم الفني، وتستقر الفرقة الآن في هولندا .

من ينظر الى المسالة بعين مجردة سيرى ان" الطريق "الاممي، سار بالفرقة من البصرة مرورا بعواصم ترتدي زيا اشتراكيا، وصولا الى هولندا، لتصير فرقة عائلة" البصري "لا البصرة ولا العراق ولا الامة ولا الاممية ولا الطريق المفضي الى أي واحدة منهن .

وانتقل هو الى سوريا فغنى كثير من الأغاني الجميلة مثل :صابرين، مشكورة، يا عشكنا، سوار الذهب، حجيك مطر صيف، ردي ردي، هنا يا الحادي، واغنية موبدينه، والكثير من الاشعار التي اذيعت عبر اذاعات المعارضة العراقية.

زار العراق بعد سقوطه فغنى انشودة لجيش العراق، وحصل على راتب تقاعدي، وعاد الى دمشق ليموت هناك عام ٢٠١٣ عن ٦٨ عاما وعشرات الاغاني و٣ دواوين شعر .

قبله مات في سوريا ايضا الشاعر الغنائي سيف الدين ولائي، بعد ان كتب عشرات الاغاني الشهيرة المستقرة في وجدان العراقيين.

ولد ولائي ببغداد 1915 لعائلة من الاكراد الفيلية، وطرد من المدرسة لأسباب سياسية، فعمل اسكافيا مع والده في الكاظمية، ثم خياطا في شارع النهر، وواظب على تنمية كتابة الشعر الغنائي، حتى غنى قصائده عشرات المطربين العرب كسميرة توفيق وفايزة احمد والعراقيين كفاضل رشيد وفاضل عواد وياس خضر وزهور حسين ولميعة توفيق ورضا علي وسليمة مراد وعباس البصري ومائدة نزهت وعفيفة اسكندر وغيرهم .

حاربه النظام السابق بحجب اغانيه تارة وبحجب اسمه عنها تارة اخرى، ساوموه على كتابة اغنية تمجد القائد فرفض، كان بعمر الخامسة والستين

عندما رحلوه مع زوجته واولاده الخمسة وبناته الست، عن بلده الى ايران مع آخرين بحجة انه ليس من اصول عراقية.

تقول ابنته فريال جمع والدي افراد العائلة واخذ معه شهادات الميلاد والهويات وذهب بنا الى مركز امن المنصور تلبية لاستدعاء امني، فسحبوا الهويات، وسفرونا الى مندلي وهناك وضعونا على الحدود العراقية الايرانية، ادخلنا حرس الحدود الايرانيون، ووضعونا في خيمة بأحد المعسكرات .وبعد ثلاثة اسابيع ذهبنا الى وزارة الداخلية الايرانية بطهران، وبعد البحث عن اي مستمسك يثبت علاقتنا بإيران، لم يتم العثور على اي شيء، قال لنا احد المسؤولين في تلك الوزارة :انتم عراقيون عرب .ليست لكم اية علاقة بإيران.

عانى الامرين مع عائلته في بلد لا يمت له ولا للغته ولا لناسه بأية علاقة، تقول فريال :بقينا في ايران عشرة اشهر، ثم طلبنا المغادرة الى سورية، فمنحونا وثيقة مرور، بعد ان تعهدنا بعدم العودة الى ايران.

غادر ايران الى سوريا ولكن بعد ان صمتت حنجرته وجف قلمه، تضيف فريال :في سورية، سكنا في بيت متواضع، في حي السيدة زينب عليها السلام، وبدأنا نعمل جميعا، اذ لم يبق معنا شيء من المال .بدأت صحة والدي ووالدتي تتدهور، ماتت اولا ولحقها بعد اربعة اشهر .

مات بعد 4 سنوات على ابعاده ودفن في مقبرة الغرباء مع من سبقوه من العراقيين للموت في سوريا .

حين زارته مذيعة عراقية من إحدى إذاعات المعارضة، في الثمانينيات، وحاولت استدراجه لحديث إذاعي رفض، ولاذ بصمته المطبق ولم يرد

عليها بشيء .وحين سألته عما يريد، لم يُجب، وحين ألحت عليه نطق بثلاث كلمات لا غير، قال لها :أعيديني إلى العراق.

من بين العشرات من اغانيه اعرف هذه الاغاني واعتقد ان كثيرين من خارج العراق يعرفونها، وللغرابة فانا اجد في مطالعها ما يجسد قصته رغم انها كتبت قبل ترحيله بثلاثة عقود او اكثر :

الله الله من عيونك / غنتها احلام وهبي وبعدها شذى حسون

ادلل علي ادلل / غناها العراقي رضا علي وبعده اللبنانية نهاوند

هذا الحلو كاتلني يا عمة / غنتها لميعة توفيق وبعدها مكادي نحاس وساجدة عبيد وماجد المهندس

خالة شكو شنهو الخبر / غنتها زهور حسين وبعدها حميد منصور وماجد المهندس وساجدة عبيد ومكادي نحاس

على الميعاد أجيتك / غنتها امل خضير وبعدها رضا علي وقحطان العطار وملحم زين وصباح اللامي

ما اقدر اقلك مع السلام روح / غنتها سميرة توفيق وبعدها امل خضير وسهير عودة

حركت الروح لمن فاركتهم / غنتها عفيفة اسكندر وبعدها حسام الرسام وساجدة عبيد

غريبة من بعد عينج يايمه / غنتها زهور حسين وبعدها ياس خضر وسعاد عبد الله

ياغريب أذكر هلك / غناها فؤاد سالم وبعده بيدر البصري .

على بالي ماجان فركاك / غنتها وحيدة خليل وبعدها سعدي البياتي

شدعي عليك يللي حركت كلبي / غنتها نرجس شوقي وبعدها حسام الرسام .

لوحة الزقاق للفنان مصطفى كريم علوان

بغداديات 66

دللول يالولد يا ابني دللول

كتب سعيد عقل بلسان الطفل وغنت فيروز:

أُمِّيَ ...يا مَلاكي يا حُبِّي الباقي إلى الأَبَد / وَلَم تَزَلْ يَداكِ أُرْجوحَتي وَلَمْ أَزَلْ وَلَدْ.

وكتب لها ميشال طراد بلسان الام يوم ولادة ابنها زياد، وغنت :

بكوخنا يا ابني بهالكوخ الفقير / والتلج ما خلّى ولا عودة حطب

والريح عم يصفر فوق منّو صفير / وتخزّق بهالليل منجيرة قصب

وقفوا ع شباكك يدقّوا العصافير / بجوانحن يا جوانحن المتشرنين

جايين يتلطّوا ع كِثْر الزمهرير / و رفيقك البلبل شو مشتقلك كتير

مخبّيلك بعبّو شي ميّة سوسنة / يا ابني

كتبها طراد وعاد الى عمله في حراسة قلعة بعلبك والجلوس على الدرب "بلكي بتجي جلنار:"

وقفت قلبي عالدرب ناطور تفاق الف نهار

ووعيت الشمس و زقزق العصفور و ما اجت جلنار .

وهدهدت فيروز طفلتها ريما بكلمات رحبانية تقول :

يللا تنام ريما ..يللا يجيها النوم

يللا تحب الصلا ..يللا تحب الصوم

يللا تجيها العوافي ..كلّ يوم بيوم.

كبرت ريما، لم يخطفها الغجر من تحت خيمة مجدلية كما كانت فيروز تخاف او تخوف ابنتها، كبرت واصبحت فنانة موهوبة، حتى ان فيروز تمنت عليها ان تكتب لها اغاني" :كبرت ريما صار في باصبعا خاتم مبارح : غنيتلك أنت وزغيري لتنامي اليوم من بعد ما قريت شعرك حبيتو وبكاني اكتبيلي قصيدة لغنيا ."

قدم الفنان العراقي سعدون جابر دراسة ماجستير لجامعة بريطانية عن أساليب الغناء العراقي، وكتب اطروحته للدكتوراه عن أغاني المهد أو أغاني المرأة العراقية .لا شك ان تهويدة الطفل للفنانة وحيدة خليل، وهي التي عاشت طفولتها في البصرة يتيمة، كانت جزءا من هذه الدراسة :

دللول يالولد يا ابني دللول / يمه عدوك عليل و ساكن الجول

يمه انا من اقول يمه يموت قلبي والله يمه

يمه هب الهوى واصطكت الباب / ترى حسبالي يا يمه خشت احباب

يمه اثاري الهوى والباب كذاب

يمه تمنيت طارشهم يجيني / خويا وتسايله وتنام عيني

يمه تسايله ويبطل ونيني

الحزن واحد في تهويدة الاطفال مهما اختلفت الكلمات وتعددت اللهجات، وتمايزت نبرة النطق بها، وتنوعت الآلات الموسيقية المصاحبة لها، الحزن

واحد، والعدو الذي سيخطف الطفل واحد، عدو مفترض لم يخلقه شاعر، بل ابدعه قلق الام، فالأم كائن يحترف القلق، وكان عليه ان يجسده في مجاله الابرز :القلق على الابناء من المعلوم ومن المجهول.

للام تماثيل كثيرة في العالم .

في الاتحاد السوفياتي اختاروا الام لتكون تمثالا يحمل سيفا مشهرا، تجسيدا لمعركة ستالينجراد، واختار الجورجيون ان تحمل امهم التمثال قدحا من النبيذ للقادمين كأصدقاء، وسيفا في اليد الاخرى للقادمين كأعداء .

ارمينيا هدمت تمثال ستالين ووضعت مكانه تمثالا لام تحمل ايضا سيفا ولكنه غير مشهر، رغم انها تنظر الى الغرب طامحة لتحرير ما تبقى من الاراضي الارمينية، اوكرانيا لم تهدم تمثال الام التي تحمل بيسراها درعا عليه منجل وشاكوش الاتحاد السوفياتي، ولكنها قصت قليلا من طول السيف الذي تحمله الام في اليد اليمنى حتى لا يكون اعلى من صليب كنيستها.

اراد هؤلاء جميعا القول بالسيف ان الوطن أم.

العراق وهو الاكثر احتفاء بالتماثيل بين جيرانه عربا وعجما، انتقل بالأم من علياء الجمع الوطني العام المعقد ليجعلها في علياء الشخصي المباشر والبسيط المشترك لدى البشر جميعا، فصنع النحات خالد الرحال تمثال الام الموضوع في حديقة الامة وصنع شيخ النحاتين العراقيين محمد غني حكمت تمثال الام المنتظرة المنصوب في البحرين.

في التمثالين تعبث الريح بالعبائتين، وتضرب اشعة الشمس المقلتين، فتحتار كل ام بين حماية العين، لتظل تبصر الآتي، وبين وشد اطراف العباءة، لكي لا ينكشف سترها، او الامساك بالطفلين.

ذات مرة كان سعدون جابر برفقة صديقه الشاعر كريم العراقي متوجهين الى ملعب الشعب الدولي لحضور مباراة كرة القدم بين فريقي الزوراء والشرطة، وعند تمثال) الام (هاجت ذكريات وعاطفة سعدون، وتذكر تلك الام التي ارادته قارئا للقرآن ومؤذنا، ولكنها توفيت قبل ان تراه مغنيا، فقال لصديقه متحسرا :ترى لو كانت امي على قيد الحياة ماذا كنت سأفعل كي اسعدها؟!، بكى صديقه الشاعر، وبينما كان سعدون يتابع اداء وحركات اللاعبين فلاح حسن واحمد راضي انشغل الشاعر في كتابة قصيدة:

يا امي يا ام الوفا ياطيب من الجنه

ياخيمه من طيب ووفا جمعتنا بالحب كلنا

تعلمت الصبر منك يايما .. الهوى انتي الهوى ومحتاج اشمه

يا اغلى واعز مخلوق عندي

ياماي عيوني امي .. قلبها البحر امي سلام وخير امي

وجه يمطر محنه .. قمر ونجوم كانه

تعرف تحمل هموم .. وما تعرف المنه

يا امي .. يا امي .. يام الوفا

وما ان قرأها سعدون حتى طار بها الى الملحن المبدع عباس جميل، والذي ما ان قرأ ذلك النص البديع حتى شرع في تلحينه، وانهاه في عشر ساعات فقط لا غير .

عشر ساعات من المشاعر الصادقة انتجت اغنية تدوم اعمارا .

عشر ساعات مماثلة ولكن ليس في العراق وانما في مصر انتجت اغنية مماثلة ستدوم اعمارا واعمار، وتصير ايقونة ليوم الام في نيروز كل عام .

ذهب الشاعر حسين السيد لزيارة والدته في عيد الام، صعد ادراج الطوابق الخمسة، وعند الباب تذكر انه لم يشتر لها هدية، جلس على الدرج بباب شقتها، وكتب لها :

ست الحبايب ياحبيبه ...يا أغلى من روحي ودمي

يا حنينة وكلك طيبة...يارب يخليكي يا أمي

زمان سهرتي وتعبتي...وشلتي من عمري ليالي

ولسه برضه دلوقتي...بتحملي الهم بدالي

أنام وتسهري وتباتي تفكري

وتصحي من الآدان...وتيجي تشقري

بكت الام، وسألته ان كان قد كتب القصيدة لها ام لأغنية سيؤديها احد الفنانين؟ فقال لها :لك فقط، ولكن ان اعجبتك سأجعلها افضل اغنية وبأجمل صوت، اتصل من فوره بالفنان الكبير محمد عبد الوهاب والذي اعجبته الكلمات فاستدعى فايزة احمد فورا للتدرب على اللحن، سار الامر بمنتهى السلاسة والتوفيق، يدفعه صدق الشعور، وبساطة الكلام المعبر عن هذا الشعور، وتحفه وتظلله بركة دعاء الامهات، ومساء ذلك اليوم كانت اغنية "ست الحبايب "تبث من الاذاعة المصرية .

يقال ان كلمات اغنية" غريبة من بعد عينج يا يمة "ظلت عند الملحن عباس جميل لسنوات، ولم يستطع معالجتها لحنا، الى ان اتصلت به الفنانة زهور

حسين تبكي والدتها، قام من فوره فلحن الاغنية واهداها لزهور التي ابدعت في ادائها :

غريبه من بعد عينك يايمه / محتاره بزماني

يا هو اليرحم بحالي يا يمه / لو دهري رماني

حاجيني .. يايمه / فهميني .. يايمه

***

كلبي لو فرح انتي فرحتي / كبلي يا حبيّبه

ترد الروح لو يمي قعدتي / يالريحتك طيبه

حاجيني .. يايمه / فهميني .. يايمه

غريبه من بعد عينك .. يايمه / محتاره بزماني

لماذا لم نعد نغني جيدا؟ ربما لان مشاعرنا في عصر العولمة اصبحت اكثر ارتباكا واشد تداخلا واختلاطا، وصار التعبير عنها يستدعي رسما سوريااليا، وتكعيبيا وتجريديا ووحشيا، وكلاما مقعرا شديد التعقيد، وسرديات متداخلة في الازمان وتتعمد الغموض، والحانا صاخبة متوحشة، ونغمات عجولة، وفيديو كليبات لا تستقر فيها الصورة، ولا يرسخ فيها الصوت .

الحمام ايام زمان

بغداديات 67

نحت 40 حرامي ومات قبل ان ينحت حرامي بغداد

تجايل في العراق اربعة نحاتين اضافوا لهذا البلد المشهور بتماثيله نصبا وجداريات عزّ نظيرها في دول اخرى، لقد عاش هؤلاء على طريقتهم في بلد لا يمكن فيه للفنان ان يعيش بحريته، ولكنهم امتلكوا هذه الحرية، وفرضوها فرضا على السياسيين القادمين بسلاح الانقلاب .

كنت تسير في بغداد براس مرفوع فحيثما اتجهت هناك نصب او جدارية او تمثال عملاق ينبغي ان تشخص ببصرك الى الاعلى كثيرا لتراه كاملا، قبة نصب الشهيد، ملتقى السيوف في ساحة الاحتفالات، نصب الجندي المجهول، نصب الحرية، جدارية الثورة، تمثال المتنبي، تمثال المنصور، تمثال الام، تمثال ابو النواس، نصب كهرمانة والاربعين حرامي، تمثال الطيار، نصب المسيرة تمثال شهرزاد وشهريار، حماة المسلة تمثال الرصافي وغيرها كثير .

سيحسب لهذه القيادات انها اقامت تماثيل ونصبا وجداريات، وسيحسب على من جاء بعدها انها دمرت بعضها ليس بالإهمال فقط وانما بقرارات ازالة مدروسة .

النحاتون :فائق حسن، جواد سليم، خالد الرحال، ومحمد غني حكمت، ولدوا جميعا بفارق بسيط في السنوات بحدود العقد الثاني من القرن الماضي . ولكل مدرسته واسلوبه ليس في الرسم والنحت فقط بل في الحياة ايضا .

كان جواد سليم فنانا بالفطرة، فاز وهو في الحادية عشرة فقط بجائزة النحت في اول معرض للفنون ببغداد عام1931 ، وفاز نحته" السجين السياسي المجهول "بجائزة عالمية، واحتفظت الامم المتحدة بنسخة مصغرة عنه، تعلم الانكليزية والإيطالية والفرنسية والتركية إضافة إلى لغته العربية، وكان نصب الحرية الضخم في وسط بغداد آخر عمل يشارك فيه، يومها رفض قاطعا ان يجعل وجه الثائر الذي يحطم قضبان السجن كوجه الزعيم عبد الكريم قاسم، ظل على رفضه الى ان رضخوا لمطلبه .

يوم وفاته وتماما كما يحدث في افلام الآكشن، كان احدهم يقود دراجته الايطالية بسرعة، وصل الى موكب التشييع، افسح له المشيعون الطريق، استخرج معجونة من حقيبته السوداء وضعها بكل رفق على وجه زميله الراحل جواد سليم، ضغطها برفق على جنبات وجهه الذي اصبح باردا، ثم نزعها وهو يبكي .

كان خالد الرحال يستخدم دراجته في كل المناسبات عازفا عن شراء او استخدام السيارة، كان يعيش من اجل الفن، وكان يقول كل ما يخطر بباله دون تحفظ، انجز نصب الجندي المجهول وقوس النصر، وتمثال ابو جعفر المنصور وتمثال الام وعشرات الاعمال الاخرى، كان يرسم وينحت كل الوجوه التي يرى فيها حضورا مميزا، ويهدي اعماله لأصحاب هذه الوجوه ويمضي، نحت تمثالا نصفيا بديعا للحاج مهدي الصفار صاحب الحمام الشعبي واهداه اياه .

خالد الرحال اشترط على القيادة العراقية مقابل تصميمه لنصب الجندي المجهول ان يدفن بداخله بعد وفاته، فوافقت مرغمة، وكان له ما اراد بعد وفاته .

فائق حسن لم يكن يريد لجثته ان تدفن في أي مكان لقد اوصى بحرقها ونثر الرماد فوق البحر، يقال ان وصيته نفذت وان رماده وضع في 3 قوارير، بقيت واحدة عند زوجته في فرنسا، واخرى تم نثرها فوق البحر، وثالثة ارسلت بصعوبة الى بغداد بسبب خضوعه للحصار واعتبار اجواءه مغلقة امام حركة الطيران.

استقرت القارورة الثالثة في مكتب الفنانة ليلى العطار في وزارة الثقافة العراقية وتدحرجت بين اللوحات، واختفت، لم يعرف القوم ماذا يصنعون بها هل يسلمونها لمن تبقى من عائلته، التي لم توافق اصلا على مبدأ الحرق، هل يعرضونها في متحف امام جمهور لا يقر بمسالة الحرق ويرى فيها اثما كبيرا، نقاش طوته الاحداث الكبرى التي عصفت بهذا البلد .وهي احداث ادت الى اهمال وخراب وتدمير الكثير من التماثيل .

استشهدت ليلى مع افراد من اسرتها خلال قصف بصواريخ امريكية اصابت بيتها الواقع قرب مبنى المخابرات العراقية في المنصور، قالوا انها كانت مستهدفة لشخصها بعد ان رسمت صورة للرئيس الامريكي جورج بوش في مدخل فندق الرشيد كي تدوسها اقدام المفتشين الدوليين عن اسلحة العراق .

كانت ليلى العطار" سيدة الهدوء في الشرق الاوسط "و" اميرة الصمت " والى جانب ابداعها في الفن التشكيلي، واحدة من اجمل جميلات بغداد واكثرهن اناقة ملبسا وحضورا، كان وجهها يغري كافة الفنانين لرسمها .

فائق حسن كان يهتم باللون كثيرا، مختلفا بذلك عن زميله جواد سليم الذي ظل يهتم بالشكل والحركة على حساب اللون .رسم الكثير من الخيل العربية خلال اقامته بباريس، عاش زاهدا، حتى انه ظل يرتدي ذات الجاكيت ل 30 عاما، كان يجيد الرسم والبستنة والنجارة والخياطة والطبخ وتصليح

الكهرباء وتسلّق النخيل .ولما أراد رفيق عمره جواد سليم أن ينحت له تمثالاً، اختار أن ينحت كفّيه المباركتين، لا وجهه.

حديقة الملك غازي بدلت اسمها بعد الثورة وصارت حديقة الامة وكانت تمتد من ساحة التحرير حيث وضع جواد نصب التحرير بلون البرونز وتنتهي في ساحة الطيران حيث وضع فائق جدارية الثورة، ووضع فيها الآف قطع السيراميك الصغيرة الملونة ليجسد كافة فئات الشعب الثائر بما في ذلك الفلاحين العمال والجنود وتتوسطهم امرأة تطلق حمامات بيضاء، عن هذه الحمامات كتب الشاعر سعدي يوسف قصيدته" تحت جدارية فائق حسن :"

تطير الحمامات في ساحة الطيران .البنادق تتبعها,

وتطير الحمامات .تسقط دافئة فوق أذرع من جلسوا

في الرصيف يبيعون أذرعهم.

يقول المقاول جئنا لنبقى , تقول الحمامة هل قال حقا

يقول النقابي ان السواعد ابقى

وتبعه الشاعر المغربي علال الحجام فكتب قصيدة عن ذات المكان بعنوان "في ساحة التحرير امام جدارية فائق حسن "، فتحول اسمها من جدارية الثورة الى جدارية فائق حسن بقوة القصيدة وشعبية الشاعر التي غلبت شعبية قائد الثورة الذي تم اعدامه في ثورة لاحقة .

محمد غني حكمت والذي تتلمذ على يد جواد سليم كان ايضا صاحب موهبة فطرية، لقد ظل يراقب قباب المساجد في الكاظمية والمآذن، ويذهب الى شط دجلة فيصنع مثيلا لها من الطين، كانت عائلته تحرم النحت لأسباب دينية ولكن ذلك لم يمنعه من السير على جمر موهبته، حتى صار شيخ النحاتين .

اهتم كثيرا بحكايا التراث فصنع تماثيل شهريار وشهرزاد ونصب كهرمانة (علي بابا والاربعين حرامي) ونصب الفانوس السحري، ونصب بغداد، وبساط الريح، والجنية والصياد وتماثيل عشتار وحمورابي وابي الطيب المتنبي. وله الكثير من الاعمال الاخرى خارج العراق كعمان والبحرين وباريس وروما .

تم الاستيلاء على الكثير من اعماله الاصغر حجما من البرونز والخشب والحجر، كنتيجة للغزو الامريكي لبغداد، وكان آخر اعماله نصب انقاذ الثقافة، وكأنه كان يتوقع هذا الاستهداف للثقافة العراقية .

عاش ايامه الاخيرة في الاردن برفقة زوجته غاية الرحال (شقيقة النحات خالد الرحال) وتوفي هناك عام 2011 ، وكان آخر ما صرح به خلال فترة مرضه: (ما زلت احلم بالعودة الى بغداد يوما لإنجاز ثلاثة اعمال برونزية : الاول تمثال للسندباد البحري عائماً وسط نهر دجلة، والثاني نافورة مصباح علاء الدين السحري في ساحة الخلاني (وسط بغداد)، والثالث لحرامي بغداد، تلك الشخصية التي اشتهرت في العصر العباسي، عندما كان يتلثم بالليل ليسرق اغنياء بغداد ويوزع بعد ذلك المال على الفقراء".

نصب انقاذ الثقافة للنحات محمد غني حكمت

بغداديات 68

صِدامُ عرفات مع صدام

ماذا يفعل ياسر عرفات هنا على غلاف العدد الاول من مجلة الف باء العراقية فوق راس الفنانة التشكيلية سميرة الصراف؟ وماذا فعل هناك في بغداد خلال زيارة الـ 48 ساعة؟ هل جاء عن طريق البر؟ هل تعرض لحادث سير؟ واين هي المجلة اليوم ؟ واين هي سميرة الآن؟

لم اعد شابا لتنطبق عليّ مقولة" شاب وتغرب"، ولم اصل الشيخوخة بعد لتنطبق عليّ تتمة المقولة" ختيار ماتت اجياله"، ولكنني من اصحاب السوابق الذين صار لهم ماضي يحنون له، ويضعونه في غربال الذكرى بعد ضبط مدى اتساع فتحاته.

الحنين للزمن الماضي قاسم مشترك بين المتقدمين في السن، ما الذي نفتقده حقيقة من ذلك الزمان؟ !

الكتب اليوم اكثر تنوعا ووفرة، الصور اكثر بهاء وسرعة، الاصدقاء اكثر واقرب، السفر ايسر وارخص، المعلومات اوفر واشمل، المراسلات اسرع من ارتداد الطرف ودون طوابع .

يبدو لي احيانا ان الحنين في جوهره حنين للدهشة، لقد اصبحنا نفتقد هذه الدهشة، كل شيء متاح وممكن وقابل للحدوث، وبمنتهى السرعة، سرعة لا تسمح لك بالتقاط الانفاس، او فرك اليدين تشوقا لانتظار شيء ما، ما عاد احد يقول لقد رفَّ جفني واتوقع ان اشاهد احدا ما، او حكَّتني يدي ويبدو انني سأستلم نقودا، او طنّت اذني يبدو ان احدا ما ينشغل بي هذه الساعة .

لن تنتظر اسبوعا لتحميض الفيلم وتمحيص الصور ووضعها في البوم، لن تذهب الى مكتب البريد، لن تنتظر رسالة او بطاقة معايدة، لن تذهب الى المكتبة لتسأل صاحبها عن موعد وصول العدد الجديد من مجلة العربي، لن تفاجئك مجلة العربي بدولة لم تسمع بها من قبل، وتقدمها اليك مصورة مع معلومات شيقة وبلغة بديعة .ما زلت اذكر عددا مميزا عن طشقند .

للمجلات في ذلك الزمن سحرها الخاص، العربي بشمولها ورصانتها، كانت تأتي من الكويت بسعر مناسب فتدخل كل منزل، ويقرأها الجميع، المجلات المنوعة الفنية المصرية واللبنانية :الشبكة والموعد والاسبوع والمصور والصياد والكواكب وحواء والحوادث، مجلات انيقة غلافها يصبح بوسترا . ومجلتي ريما وسمر، كانتا تمتازان بنشر قصص مصورة) كوميكس (لنجوم السينما الايطاليين مثل فرانكو كاسباري وماريا انطونيلا او فرانكو داني وكلوديا ريفللي .

المجلات السياسية لاحقا :شؤون فلسطينية، فلسطين الثورة، اليوم السابع، الهدف، الحرية، الافق، الكرمل، صوت البلاد، الطليعة .ومجلة اللوتس التي كنت اظنها فلسطينية، لاكتشف فيما بعد ان رئاسة تحريرها فلسطينية ولكنها تصدر عن اتحاد كتاب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية.

للعراقيين ومن عاش في العراق ذكرياتهم الخاصة مع مجلة الف باء، والتي يقولون ان اسمها لم يكن يقصد الابجدية الالفبائية، وانما اختصار عبارة)ارادة بلادي.(

العدد الاول من هذه المجلة، صدر يوم 1968 / 5 / 21 واستمرت في الصدور الى يوم احتلال العراق عام2003 ، ظل العدد الاخير في المطبعة دون توزيع، سيفتقد العراقيون هذه المجلة المنوعة، فيعاودون اصدارها بعد

انقطاع دام 11 عاما .في العدد الاخير فتحوا ملفا سريا حول تهجير يهود العراق وعلاقة الزعيم عبد الكريم باسرائيل .

مؤكد انه لم يعد للمجلات خبزة في عصر الجيل الخامس من الانترنت، ومؤكد ايضا ان اثر المجلات اكبر بكثير من اثر النشر الاذاعي والتلفزيوني والفضائي والوفرة الهائلة التي توفرها مواقع الانترنت .الوفرة تسير عكسيا مع القيمة، والجهد يتناسب طرديا مع الاثر .

من مجلة الف باء العراقية قرأت عن افضل صانع اعواد في العالم العربي، انه محمد فاضل العراقي، والذي حمل اعواده مشاهير العازفين والمطربين مثل فريد الاطرش ووديع الصافي والاخوين جميل ومنير بشير ونصير شمة وغيرهم كثير، يقال ان وزن العود الذي كان يصنعه من خشب شجر الورد كان لا يتجاوز الكيلو غرام الواحد .

من هذه المجلة تعرفت الى السيدة جوزفين حداد والتي كانت اول سيدة عراقية تحصل على رخصة كابتن طيار عام .1948

صورة الغلاف للعدد الاول من هذه المجلة، تحتفي بالرسامة العراقية سميرة الصراف، سميرة اليوم عادت لاسمها الاصلي سيمين والذي يعني بالفارسية بريق الفضة، وتواصل العمل على مشروع لرسم المشاهير عبر التاريخ، بعد ان حازت لقب رسامة الملوك والرؤساء .

اما ماذا يفعل ابو عمار في بغداد خلال 48 ساعة من شهر ايار لعام 1968 ، أي بعد شهرين فقط على الانتصار في معركة الكرامة، وقبل شهرين او اقل من اقصاء الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف عن الحكم وتولي حزب

البعث مقاليد الحكم، فسؤال شغلني وبحثت عن جوابه طويلا، فتهت كثيرا ودخلت دروبا لا تتوفر فيها الاضاءة الكافية .

يعود تاريخ اول زيارة قام بها ياسر عرفات الى بغداد الى العام 1961، يومها كان يحاول دمج تنظيم جبهة تحرير فلسطين التي شكلها الشيخ صالح عبد الله سرية في العراق الى تنظيم فتح، تلت ذلك زيارات ولقاءات اخرى مع الشيخ، لإقناعه بهذا الانضمام، وهو ما تحقق اخيرا ولكن بعد صدمة الشيخ من وقوع النكسة عام 1967 .

كان الشيخ اللاجئ من قرية اجزم قد انتسب لتنظيم الاخوان المسلمين في العراق، ثم انخلع عنهم وشكل هذا التنظيم، فركز على استقطاب الكوادر العسكرية، متأثرا بأدبيات حزب التحرير الذي أسسه ابن قريته تقي الدين النبهاني، ثم فتح باب العضوية في تنظيمه للمدنيين متأثرا بمسلكية التنظيمات الفلسطينية التي بدأت بالتوالد من حوله، ولاحقا حمل افكارا مختلطة من كل هذه التوجهات، وحرض على احداث الفرهود (عمليات السلب الجماعي لأملاك اليهود في العراق) لتمويل تنظيمه، وبات داعيا للانقلاب على الحكومات العربية، ومحرضا على اغتيال قادتها، ادى ذلك الى اعتقاله لعام في العراق، والى ورود اسمه في مخطط انقلابي استهدف الاردن، والى محاكمته لاحقا في مصر بتهمة التخطيط لاغتيال السادات عام 1974.

جاء في كتاب "قواعد الشيوخ مقاومة الاخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني 1970 – 1968 " للمؤلف غسان محمد دوعر، ما نصه:

"بعد هزيمة الجيوش العربية في حزيران 1967 دعا صالح سرية كافة مسؤولي الجبهة في الدول العربية لمؤتمر عام انعقد في دمشق بداية عام

1968، كان اهم قرار لذلك المؤتمر اعادة تنشيط الحوار مع حركة فتح للنهوض بالعمل الفدائي من جديد، وبعدها اتصل صالح سرية بياسر عرفات، وتم دمج الجبهة بحركة فتح، وصار سرية عضوا في الدورة الرابعة للمجلس الوطني الفلسطيني والتي عقدت منتصف شهر تموز عام 1968".

وجاء في محاضر التحقيق مع الشيخ صالح في مصر بتهمة التخطيط لاسقاط نظام السادات واغتياله اواسط السبعينيات من القرن الماضي، والتي اوردها كتاب" موسوعة العنف في الحركات الاسلامية خمسون عاما من الدم"، للكاتب مختار نوح وهو محامي متخصص في قضايا الجماعات الاسلامية، ما نصه من اعترافات الشيخ صالح :

"خرجت من المعتقل عام 1964 وفي العام 1965 جاء ياسر عرفات وطلب مرة اخرى انضمام جبهتنا لفتح فوافقت، شريطة ان ابقى بعيدا عن الميدان، وطلب مني ان ايسر له لقاءات مع المسؤولين العراقيين، وكان عبد السلام عارف قد قام بثورته وتولى الحكم، فنظمت له لقاء مع وزير الاعلام عبد الكريم فرحان والذي نصحه بعدم لقاء عبد السلام عارف لأنه لا يُكِنُ ودا لمنظمة فتح بالذات، ويعتقد انها تعمل لصالح حلف السنتو) حلف بغداد ."(

بحسب هذه الاعترافات التي نشرتها الدوائر الامنية المصرية، كان صالح قد رفض بشدة محاولة جماعة الاخوان المسلمين قتل الرئيس العراقي احمد حسن البكر ، خلال خضوعه للعلاج في المستشفى حيث يعمل احد اعضاء الجماعة ممرضا في طاقم علاج الرئيس البكر، ولكن الجماعة حاولت ذلك وفشلت، فصار هو مطلوبا للأمن العراقي ولصدام حسين الذي كان نائبا للرئيس .

بقية الاعترافات تشتمل على علاقة الشيخ بالإخوان المسلمين وبتشكيل مجموعة" شباب محمد "او" الفنية العسكرية "التي حاولت تنفيذ عملية اغتيال السادات، وهي الاعترافات والاتهامات التي ادت الى اعدامه عام 1976.

هل التقى ياسر عرفات في زيارته تلك لبغداد بالشيخ صالح، لوضع اللمسات النهائية على انضمام فصيله لحركة فتح؟ هل سعى من خلاله لتنظيم لقاءات جديدة مع القادة العراقيين؟ هل سلمه الدعوة للمشاركة كعضو في المجلس الوطني الفلسطيني الذي سيلتئم في القاهرة بعد اسابيع؟ .

عن وصف العلاقة الفلسطينية العراقية في تلك الفترة، يتحدث صلاح خلف ابو اياد في كتابه" فلسطيني بلا هوية :"قامت وفود فتح بعقد لقاءات مع القيادات العربية لطلب تأييدها للعمل الفدائي، ويضيف" :كان العراقيون يتخبطون حتى ان رئيس الدولة العراقية عبد الرحمن عارف انهى محادثاته مع ممثلينا وهو يعلن :لسنا مع مشروعكم ولسنا ضده، وبصراحة فإننا لا ندري ماذا نقول فيه ."

ايامها كانت هناك قوات عراقية ترابط في منطقة المفرق لكنها تلقت اوامر من الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف، بعدم المشاركة في معركة الكرامة، وانسحبت هذه القوات مع وقوع احداث ايلول المؤسفة، بأمر من الرئيس العراقي اللاحق احمد حسن البكر .

في حوار اجراه الاستاذ صخر ابو فخر مع محمد ابو ميزر، الذي خلع رداء البعث وانتمى لفتح بداية الستينيات، وضمن كتاب" الجذور والتراب :حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة"، يقول ابو ميزر" :لا اعرف تفصيلات

قصة الجيش العراقي في الاردن وانسحابه المستغرب اثناء حوادث ايلول 1970، لكنني اعلم ان قوات عراقية كانت موجودة منذ ايام الرئيس عبد الرحمن عارف في مدينة المفرق، يقودها اللواء محمود عريم، وكان نائبه العقيد حسن النقيب، وكان هناك اتفاق يقضي في حال وقوع أي عدوان اسرائيلي على الاغوار بأن تصل القوات العراقية فورا الى المكان لتشارك في المواجهة الى جانب قوات فتح، وفي ليلة 20/3/1968، أي عشية معركة الكرامة جاءنا خبر من حسن النقيب بان الاوامر صدرت من بغداد بعدم المشاركة في المعارك ".

ذات المعلومات يؤكدها عباس زكي عضو مركزية فتح، واما وزير الدفاع العراقي ايامها حردان التكريتي، وقبل اقالته واغتياله في الكويت، فقد كتب في مذكراته: "موقفنا من المقاومة الفلسطينية لم يكن مشرفا".

يقول عباس زكي في مقال "بعد الانتصار الفلسطيني الاردني استقبل الرئيس عبد الناصر وفد فتح وقال" فتح أنبل ظاهرة وجدت لتبقى ... ورد عليه عرفات "لتبقى وتنتصر يا سيادة الرئيس" وزود عبد الناصر الثورة الفلسطينية بصواريخ الكاتيوشا وقذائف الآر.بي.جي، واصطحب عبد الناصر ياسر عرفات إلى الاتحاد السوفيتي الذي منحه الكثير من الاسلحة .. وفتحت مصر معسكر إمبابة لتدريب الفدائيين، كما فتحت العراق معسكر الرشيد".

هل قام ياسر عرفات في تلك الزيارة بتفقد معسكر الرشيد حيث يتدرب مجموعات من الفلسطينيين على تنفيذ عمليات فدائية؟ هل تفقد ورش التصنيع العسكري التي اقامها فنيون فلسطينيون هناك وبدأت تتوسع وتنتج ذخائر وبنادق؟

قرأت ما كتبته الباحثة الفلسطينية سلافة حجاوي عن ايامها الطويلة في بغداد، وعن تخرجها بامتياز من جامعة بغداد عام 1956، وكيف قاموا بعد ذلك بشطب اسمها عن لائحة الشرف الجامعي لأنها غير عراقية، رغم انها تزوجت من الشاعر العراقي كاظم جواد وكان الشاعر بدر شاكر السياب الشاهد على زواجها، وانجبت منه طفلين وحصلت على جنسية العراق، وقرأت عن نشاطها السياسي والنقابي هناك في تأسيس فروع لاتحاد المرأة ثم لاتحاد الكتاب مع الكاتبين الفلسطينيين جبرا ابراهيم جبرا وناصيف عواد، وكيف انها استضافت ياسر عرفات لافتتاح فرع اتحاد المرأة .ثم زارته بعد ذلك مع النساء المنتخبات في المستشفى حيث خضع للعلاج من كسور .

هل تكون تلك الزيارة التي ترصدها مجلة الف باء هي التي شهدت افتتاحه لفرع اتحاد المرأة الفلسطينية في العراق، وشهدت ايضا مشاركة عرفات في تشييع جنازة شهيد عراقي احضر جثمانه معه من الاردن، وشهدت ايضا تعرض سيارة كان يستقلها لحادث اصطدام مع شاحنة عسكرية فرت بعد الحادث.

قرأت اكثر في ذكريات سلافة عن نفورها المبكر من صبري خليل البنا "ابو نضال"، والذي انشق لاحقا عن فتح واسس المجلس الثوري، وسيطر على ورش تصنيع السلاح ومكتب المنظمة، ونفذ عدة عمليات اغتيال بحق كوادر الثورة الفلسطينية بأوامر مباشرة من الامن العراقي، قبل ان يتنقل من حضن صدام حسين الى حضن الاسد ثم القذافي، ليعود الى العراق فيقتل فيها عام2002 ، تقول الرواية الرسمية العراقية انه انتحر .

الثورة الفلسطينية في دمشق ولاحقا في بيروت كانت ملجأ وحضنا للمعارضين العراقيين الذين فروا من العراق. وابرزهم حسن النقيب الذي

صار مستشارا لعرفات، وفرت لهم الحضن كمناضلين عرب من اجل القضية الفلسطينية، لا كمعارضين للنظام .

لم تكن علاقة البعث العراقي بمنظمة التحرير وفتح وياسر عرفات على ما يرام ابدا، لا في تلك الايام ولا الايام التي تلتها، رغم كل ما يكتب عن طيب هذه العلاقة .

ابو نضال واحد من تجليات هذا التنافر، تشكيل فصيل فلسطيني بعثي هو جبهة التحرير العربية، ليكون نقيضا لتنظيم الجبهة الشعبية القيادة العامة الذي يتبع الامن البعثي السوري، وسيتطور الامر لاحقا لتشكيل جبهة الصمود والتصدي لبرنامج النقاط العشرة، وتكليف المنشق ابو نضال باغتيال رموز تؤمن بهذا البرنامج.

اما ما يكتب عن طيب العلاقة فيستند ايضا الى وقائع مادية ومعنوية، منها استبسال الجيش العراقي في المعارك قبل النكبة، واستقبال اللاجئين ومنع الاونروا من الانفاق عليهم) رغم ان هذا الكرم اضر لاحقا باللاجئين الفلسطينيين الى العراق، كونه قد حرمهم من تسجيل اسمائهم كلاجئين في ملفات الامم المتحدة(، ويستند ايضا الى اشتراط صدام حسين انسحاب اسرائيل مقابل انسحابه من الكويت، وهو اشتراط ساذج ولا اخلاقي، وقصفه لتل ابيب بعدة صواريخ، خلال حرب الخليج .وهو قصف يحمل كل منا في داخله عدة مواقف منه، موقف نفسي يتعلق بالمشاعر وآخر مادي يتعلق بالنتائج النهائية، وربما موقف ثالث يتعلق بالنوايا، ورابع بالمصالح الشخصية التي تضررت كثيرا للجالية الفلسطينية الكبيرة جدا في الكويت .

الحقيقة ان العلاقة ظلت مضطربة منذ البدء، وبعيدة عن الثقة، وحسن التفهم، في اجاباته على اسئلة الاستاذ صخر ابو فخر يروي ابو ميزر الحكاية التالية :

بعد زيارة عرفات الناجحة لموسكو بدأ التخطيط لزيارة الصين وكوريا الشمالية، وتم الاتفاق على سفر الوفد عبر مجموعات ومن عدة طرق، على ان يتم اللقاء في مدينة داكا عاصمة اقليم باكستان الشرقية، ذهب ابو اياد ومعه امين الهندي من خلال سوريا، وذهب كمال عدوان من خلال الامارات، وذهبت مع ابو عمار الى بغداد برا، وهناك كان يجب ان نلتقي بروتوكوليا مع الرئيس احمد حسن البكر.

في ذلك اللقاء اراد البكر مداعبة ابي عمار وممازحته، فقال: "وينك يا مهزوم؟" وهي عبارة يقولها العراقي تحببا بمعنى: تتهرب من مقابلتي، ويقابلها عند بقية العربان عبارة " وين ما بنشوفك؟ ". ارخى ابو عمار شفتيه غاضبا واعتبر ان العبارة اهانة قاسية، ولم تفلح كل التفسيرات في تلطيف الاجواء .

يضيف ابو ميزر سافرنا بطائرة عراقية الى كراتشي وقابلنا هناك حسن النقيب الذي كان يعمل ملحقا عسكريا في سفارة العراق لدى باكستان، وتجمع الوفد في داكا ومن هناك امن الصينيون لنا طائرة باكستانية خاصة وزودونا بالكتاب الاحمر لكي نلوح به فور وصولنا، كان معنا في الكرسي الاخير من الطائرة شخص مجهول ذهب ابو اياد للتعرف عليه، فتبين انه عبد السلام جلود وكان ذاهبا الى الصين كمندوب للثورة الليبية والتي لم يكن قد مضى على نجاحها سوى عدة اشهر، ويريد شراء قنبلة نووية يعود بها الى ليبيا .

يبدو ان عائقا نفسيا ارتسم بين الرجلين عرفات والبكر، ولعل ما نقله الكاتب والصحفي ابراهيم علاء الدين عن ابو اياد يلخص ذلك، يقول ابو اياد :انه بعد اجراء اتصالات مع صدام حسين وكان وقتها نائبا لرئيس الجمهورية تم عقد لقاء بين عرفات والبكر .

ويضيف ابو اياد دخلنا باب المكتب وبرفقتنا صدام حسين فلم نر احدا بالمكتب ...البكر قصير جدا فعندما يجلس على كرسيه في المكتب لا يظهر راسه من الخلف وهكذا كان عندما دخلنا يجلس على الكرسي ووجهه الى النافذة خلفه فلا يظهر منه شيء .

نظر ابو عمار الى صدام ثم لي وقال مستغربا: "ايه الحكاية" عندها "تنحنح" صدام وقال السلام عليكم سيادة الرئيس، فأدار البكر كرسيه والسيجارة مشتعلة في فمه وقال :وعليكم السلام استريحوا استريحوا.

بدأ ابو عمار يحدثه عن الاوضاع في لبنان وان الكتائب حلفاء اسرائيل يحضرون لحرب على الفلسطينيين في لبنان، وانه يطمع بتأييده ومساندة العراق للكفاح الفلسطيني ...

هنا اطفأ البكر سيجارته بعد ان اشعل سيجارة اخرى وقال اسمع يا ابو عمار :

"لا تقولي تريدون مساعدات ويمكن جاي تطالب بقوات عراقية تحارب عنكم، انا ما راح انطيك شيء، الا لما ترتبوا موضوع الوحدة بين الفلسطينيين، ...بتقدر تقول لي شلون تبون تنتصرون وانتم عندكم خمسين تنظيم!!، يا اخي انت رئيس لفتح وللعاصفة على الاقل وحدهم مع بعض، بتقدر تقولي ليش انت رئيس منظمتين؟."

هنا قاطعه صدام وقال له ان فتح والعاصفة تنظيم واحد لكن العاصفة تنظيم عسكري وفتح تنظيم سياسي .قال البكر :ايـه ايه، افتهمت.

الحقيقة ان ابو اياد لم يكن مرغوبا من القيادة العراقية اطلاقا، وان رجلها القوي المأجور ابو نضال ظل يضع ابو اياد على قائمة المستهدفين بالاغتيال .

ظل ابو اياد ضد دخول صدام حسين الى الكويت، وظل ابو عمار يصطحبه معه لمقابلة صدام حسين لإسماعه هذا الرأي وتحذيره من مغبته، في الختام قال ابو اياد لصدام :دخولكم الى الكويت خطأ كبير، ولكننا معكم اذا هاجمتكم امريكا، تم اغتيال ابو اياد عشية الحرب عام 1991 على يد عنصر من جماعة ابو نضال .

عشت كامل ايام هذه الحرب في بغداد وللمفارقة فلقد عشتها في منزل الباحثة سلافة حجاوي والتي كانت قد انتقلت للعمل في مكتب الرئيس ياسر عرفات بتونس، يقع المنزل البغدادي الانيق بحديقته الجميلة في شارع فلسطين، يقولون ان صدام حسين امر بإطلاق اسم فلسطين على هذا الشارع نكاية بالولايات المتحدة التي تقع سفارتها فيه، لقد اراد ان يظهر اسم فلسطين على كافة اوراق ومراسلات السفارة حين تكتب عنوانها .

في ذلك المنزل استمعت لأخبار الحرب عبر محطة مونت كارلو، وعلى لسان مراسليها :حسن الكاشف من بغداد، باسم ابو سمية من فلسطين، والسعودي عبد الله الشهري مراسل حفر الباطن، في ذلك المنزل قرأت الكثير من الروايات التي احتفظت بها سلافة وزوجها الشاعر العراقي كاظم جواد، كنت اقرأ على ضوء شمعة ترجمة جبرا ابراهيم جبرا لرواية وليام فوكنر الصخب والعنف، عندما هز انفجاران قويان المنطقة باسرها، لقد

تعرضت محطة الكهرباء القريبة والواقعة خلف الجامعة المستنصرية لهجوم صاروخي كبير، خرجت امشي مفضلا الموت في الشارع على الموت تحت الانقاض، كانت شاحنات عراقية تنقل صواريخ ارض ارض من داخل احد المشاتل في المنطقة، وصلت الى ساحة بيروت، كانت المدينة تموت موتا بطيئا، وكان الناس يموتون سريعا موتا بشعا، يشهد عليه الموت الجماعي لمن كانوا في ملجا العامرية، ويشهد عليه موت الفنانة ليلى العطار مع افراد من اسرتها في قصف صاروخي امريكي استهدف مقر المخابرات المجاور لمنزلها في حي المنصور قرب شارع الاميرات حيث اقام وتمشى ورسم وترجم وكتب جبرا افضل اعماله، ويشهد عليه موت الهاربين في قوافل الى الحدود الاردنية، وموت الجنود المنسحبين دون سلاح من الجبهة، وتدمير البنى التحتية دون أي مبرر، لو سار من شهدوا تلك الاحداث على سجيتهم لصاروا نشطاء سلام، ولكن الناس يخالفون سجاياهم .

بإيعاز من السفارة الفلسطينية استخدمنا ذلك المنزل لإيواء العديد من الطالبات الفلسطينيات القادمات من الاردن والكويت) التي اصبح اسمها محافظة النداء العراقية(، كان السفر صعبا وخطرا، زار المنزل والتقى بالطالبات صخر ابو نزار عضو مركزية فتح ومعه السفير ايامها عزام الاحمد، كان ابو نزار متفائلا، ردد على اسماعنا عبارته الشهيرة" لازم تزبط "لم يكن احد منا متفائلا على الاطلاق .وثبت انها لم تزبط حتى الآن على الاقل .

بعد ايام توجه من بقي من الاصدقاء والصديقات حملة جواز السفر الاردني في باص واحد الى الاردن، ودعتهم وبكيت بكاءً مرا لم ابكه في حياتي ابدا،

كانت الهزيمة بكل وطأتها وثقلها تخيم على المكان والزمان وتصبغ المرحلة بسوادها القاتم .

وبعد يومين رافقت من تبقى من الطالبات في الباص المتوجه الى الكويت مخترقا هذه الجبهة المشتعلة بالصواريخ وقذائف البوارج الحربية، كان اهلهن في انتظارهن على احر من الجمر، وكان هناك ايضا معتمد اقليم فتح ابو زياد قبلاوي والذي تم اغتياله في اليوم التالي بأوامر عراقية .

عوقب الفلسطينيون لان منظمة التحرير وقفت ضد حفر الباطن، وفسر موقفها على انه وقوف الى جانب صدام حسين وتأييد لاحتلال الكويت، لو كان هناك موقف في الوسط لسارع الفلسطينيون الى اتخاذه، ولكن لم يكن هناك موقف وسطي، ولم يكن بمقدور منظمة التحرير النأي بنفسها عن معركة تتعرض خلالها تل ابيب لصواريخ عربية .

وعوقب الفلسطينيون من جانب صدام حسين بما هو اكثر من الاغتيالات، لقد مول وبمنتهى السخاء مجموعة من الكتاب والصحفيين من شتى الجنسيات وافتتح لهم مجلات وصحف في اوروبا لمهاجمة منظمة التحرير واغتيال سمعتها، وكان يغدق على هؤلاء الكتاب المأجورين كوبونات نفط يجري تصديره سرا في السوق السوداء تجاوزا للحصار .

قبل شنقه هتف صدام حسين بكل رجولة" :عاشت فلسطين حرة عربية "لم يكن موقفه الاخير استعراضيا، فالتصوير تم خلسة، ولم يكن لمجرد مناكفة شانقيه، فقد قُضي الامر، كانت لحظة صدق مع مبادئ آمن بها، ولكنها لم تجد ترجمة ذكية طوال عقود من الحكم، والانشغال بتمتين السيطرة والبحث عن زعامة اقليمية، وهو انشغال ادخل العراق في صنف الديكتاتوريات داخليا، وفي صنف الدول المعتدية خارجيا .

هل يجب ان نقول ان الامور معقودة بخواتيمها ونمضي بعيدا عن التحليل والتفصيل؟ !هل يجب ان نقول ان المنتصر يكتب التاريخ ونرتضي بالغبن؟ !ام نحاول فهم وتفكيك هذا الالتباس في العلاقة الفلسطينية العراقية؟ .

خير من يفكك هذه العلاقة ويشرحها هو الاستاذ نبيل عمرو في كتابه" ياسر عرفات وجنون الجغرافيا "في الفقرة الاولى من الفصل الذي حمل عنوان "صدام حسين عدو الامس والحليف الاخير "يقول نبيل عمرو :

"علاقة عرفات بالرئيس العراقي صدام حسين تتلخص بكلمتين لا ثالث لهما :الاسد وايران .واذا كانت علاقة صدام بنظيره الحزبي اللدود، قد تحسنت لبضعة اسابيع او شهور، فإنها انهارت وبلغت حدة العداوة فيها اعلى الدرجات، حين اكتشف صدام محاولة انقلاب نظمها الاسد للإطاحة به، ...منذ ذلك الوقت، ظهر حرص صدام على اقامة علاقة مستقرة مع عرفات، فلا يزال قائد الثورة الفلسطينية، يصلح حليفا كما يصلح احيانا غطاء لسياسات صدام الحازمة والواقعة على حد المجازفة .ذلك ان عرفات كان يلزم لسحب البساط المقدسي من تحت اقدام الملالي في طهران، ويلزم في توفير اهم مقومات البعد القومي في سياسة صدام المتنافس بحدة مع قائد عربي داهية هو حافظ الاسد،" ان عرفات راية فلسطينية مقدسية يجب ان تخفق في بغداد وليس في طهران ."

هل من مناسبة لكتابة هذه الحلقة التي قد تزعج البعض سياسيا، وتثير مشاعر آخرين؟ لا على الاطلاق، لا يوجد أي سبب، سوى انزعاجي من الاحكام الصادرة وفق مبدأ الثنائيات المطلقة :طيب وشرير، وطني وعميل،

ورغبتي بان تكون الاحكام نسبية واكثر منطقية وغير منزوعة من السياق، فالجميع جبان احيانا وشجاع احيانا، غبي احيانا وذكي أحيانا.

غلاف العدد الاول من مجلة الف باء

بغداديات 69

توك توك لو دبابة؟

لم يكن هناك توك توك في بغداد ايام معيشتي فيها، هذا أول ما خطر ببالي عندما اصبحت احد الركاب المداومين يوميا على استخدام هذه المركبات في الخرطوم، للانتقال من شارع العمارات الى صحيفة الايام السودانية التي يرأس تحريرها الصحفي المخضرم محجوب محمد صالح .ذات الخاطر طرأ ببالي بعدها وانا اتحين الفرص لاستخدام هذه الوسيلة الرائعة للتنقل في كمبوديا واندونيسيا.

لم تكن بغداد الغنية والمنظمة ذات الشوارع الواسعة ووسائل النقل العام المشهورة بباصات ابو الطابقين بحاجة الى توك توك في ذلك الزمان، ولكنها كانت ستكون اجمل لو كان هناك الكثير من مرابط ومحطات هذا التوك توك في بغداد الواسعة والحافلة بكل شيء.

اشاهد صور التكاتك واصحابها فاقول هذه ليست بغداد، أمعن النظر في جنبات الصورة فأرى أحد معلمين اما ساحة التحرير او المطعم التركي.

لهذين المعلمين رف قديم وآخر حديث في مكتبة الذاكرة :ساحة التحرير بنصب حريتها الذي يحكي تاريخ العراق حضارة وثورة وجمهورية، والمطعم التركي بما شهد من احداث كان اصحابها يريدون ترميم الجمهورية باستعادة سيادتها وتخليصها من الفساد والطائفية .

يقول العراقيون ان في حياتهم ملحمتان :الاولى جلجامش التي لم يشاهدوها، والثانية نصب التحرير الذي يشاهدونه صبح مساء .

ويقول الفنان ان آخر ما يدور بخلده ان لا يتمكن من تنفيذ فكرة تستوطن عقله وقلبه، او ان لا يشاهدها، لكن للأقدار تصاريف اخرى، وهذا ما حصل مع النحات العراقي جواد سليم صاحب هذا النصب البديع الذي نسجه من تاريخ العراق الضارب في القدم، حكاية مصورة تجند رموز الحضارات الماضية لتصور الحاضر وتشير الى المستقبل.

14 قطعة فنية تستلهم رموز حضارات بابل واشور وسومر، حصان جامح أسقط الملك، وطفل ذو نبوءة يشير الى درب الخلاص الذي يسير فيه الثوار، يستشهد احدهم فتضمه الام الى صدرها، ويكسر رفيقه قضبان الزنزانة، تستقبله عراقية تبحث عن الحبيب بمشعل حرية، واخرى حامل وفي يدها سعف النخيل، فلاح يجسد دجلة والاخر فرات، الاول عربي والثاني كردي، والى جانبهما عامل شديد البأس مفعم بالطاقة والحيوية والثقة.

انهى جواد سليم تصميماته وذهب للإشراف على سكبها، وكان سعيدا جدا لأنه تمكن من رفض تجسيد شخصية الزعيم عبد الكريم قاسم في وجه السجين السياسي الذي يحطم القضبان في منتصف النصب.

وقبل وضع المجسمات على النصب الواقع في وسط بغداد بأشهر اصيب بجلطة قلبية ورحل عن 42 عاما. يموت الفنان ولكن الروح تدب في منحوتاته .

ولقد دبت روحه الحالمة وروح مجسماته الطموحة في سائقي التكاتك وفي عراقيين وعراقيات من مختلف الطوائف والديانات والقوميات فنزلوا الى ساحة التحرير وصنعوا من بناية مطعمها التركي قلعة .

فما هو هذا المطعم التركي الذي دخل التاريخ من بوابة التقارير الاخبارية؟

بعلو شاهق ورمزية لا تخفى على احد، اقام صدام حسين في اواخر ثمانينيات القرن الماضي هذه البناية وسط بغداد، لتطل من احدى جهتيها على الشعب في ساحة التحرير من الرصافة ومن الجهة الاخرى على منطقة قصوره في الكرخ والتي اصبحت فيما بعد) المنطقة الخضراء.(

ازدهر المطعم التركي فيها باطاييبه وبما يقدمه من مشروبات روحية وظل كذلك الى ان عقد صدام العزم ذات فلتة من فلتاته الكثيرة على إطلاق حملة ايمانية اواسط التسعينيات، فخرب المطعم ومن بعده البناية.

اطلقت القوات الامريكية الغازية قذيفتي دبابة على هذا المبنى، ليصير رمزا اضافيا لثنائية العمار والدمار .وما تلاها من إزهاق للارواح وتشريد للكفاءات وفساد اغرق البلاد والعباد.

تسلقها طالب كلية الفنون الجميلة فرسم على الواجهة المطلة على المنطقة الخضراء عينا غاضبة مترصدة وكتب حولها اقدر اشوفك، ازعجتهم العبارة التحذيرية بل اخافتهم فهرعوا لمسحها .

رموز جواد سليم الموغلة في التاريخ، صارت عينا تنظر للمستقبل، زال طلاء رسمة العين ولكنها بقيت تراقب، فبعد سنوات اعتلى الشابات والشباب طوابق البناية، وسيطروا عليها ليمنعوا الامن من احتلالها ومهاجمة المتظاهرين منها، وليطلوا على فضاء الشعب المنتفض والسلطة المذعورة، كان اسمها بناية المطعم التركي واصبح اسمها جبل احد.

التوك توك يزدهر في العراق واصحابه يصبحون ابطالا اسطوريين، انهم مهندسو الاستراتيجيات ومنفذو التكتيكات التي يعتمدها الثوار في ساحة التحرير ، يوصلون الناس غير عابئين بالأجرة، ويتدخلون لإيصال الطعام

الى اطراف الحشودات الجماهيرية، ويخلون الجرحى من ساحات الاشتباك الى الاطراف الآمنة، وقد يُجبرون على نقلهم الى المشافي، ويتدخلون لإسعاف من اصابهم الغاز المدمع، يوزعون الطعام والماء البارد والمشروبات والكمامات على المتظاهرين، يقوم احدهم بعمل جولة لمبعوثة امين عام الامم المتحدة في ساحة التحرير بين المتظاهرين، يزفون الشهداء في مواكب مهيبة، يُسيرون القوافل لكسر قرارات منع التجول، يتعرضون للإصابة، وتتعرض مركباتهم ومصادر ارزاقهم للعطب، فيتحولون الى متظاهرين عاديين.

شباب ثوري متحمس، لا تزيد اعمارهم على اواسط العشرينيات، يُسيرهم احساسهم بالظلم، وحبهم للمظلومين، وتدفعهم نخوتهم الى إغاثة كل ذي حاجة، وتشحذ همتهم غيرتهم العراقية الاصيلة، وتوقهم العالي لان يكونوا ابطالا في زمن عزت فيه البطولة.

اعرف هؤلاء الشباب حق المعرفة، يمكنني ان افهمهم، يمكنني التنبؤ بردود افعالهم غير المتوقعة لدى الكثيرين، يرقصون كمايكل جاكسون، ويحفظون مواويل رياض احمد، يتيهون غراما بأية شقراء، ويؤلفون لها القصائد، يبالغون في تقدير تقدم اليابان والغرب ثم يلعنون الذي اخترع اكياس شاي ليبتون، يبكون في الحسينيات، ويشعلون الشموع في الكنائس، يدبكون الجوبي بذات الاخلاص الذي يهزون فيه اكتافهم على لحن كردي، يرتدون ملابسهم على الموضة صباحا، ويقصون شعرهم وكأنهم في سان فرانسيسكو، ثم يرتدون دشاديشهم، وتراهم يشربون الشاي العراقي من صحن الاستكانة ويلعبون الطاولة ويتشاجرون، سيجمعهم دارمي لطيف يردون عليه بدارمي ألطف، ستُحرك اجسادهم اية هلهولة، ستوقظ كل حواسهم اية هوسة عراقية، ستجعلهم ينتشون نخوة، يندفعون للميدان،

يتسلقون جدران صماء للوصول الى المحاصرين في اعالي بناية المطعم التركي التي اصبحت جبل أُحدهم.

ولأنهم من طين العراق ولان العراق لا ينسى طينه، فان الحب الذي ناله سائقو التوك توك هو حب عراقي خالص، يستحقونه عن جدارة، يقف شاعر بحضرتهم لإهدائهم قصيدة، يغني مطرب شهير اغنية خاصة لهم، تسير حاجة بينهم وتوزع عليهم بعض المال والكثير من البركات، تقف صبية بينهم وتقول انها لا تريد زوجا إلا من اصحاب التكاتك، تتبرع سيدة بكامل ثمن توك كوك لشاب تعرضت مركبته للدمار، تصر احدى الامهات على صاحب التوك توك ان يتناول وجبة من وجبات الطعام التي توزعها على المتظاهرين، تقول فتاة عراقية انها لم تكن تشعر بالأمان خلال سيرها في شوارع الا في هذه الايام حيث يسيطر قادة التكاتك على الميدان، ويغرد عراقي قائلا :انقذنا التوك توك حين خذلتنا الدبابة.

قادة التكاتك يؤلفون مجتمعا ثوريا جديدا، يشبه القوة الضاربة والفتوة الطيبة والشقاوة الوطنية، مجتمع اهم ما يميزه البعد عن الفذلكة الثورية، والسير على الفطرة والسجية الوطنية الشعبية، وهي فطرة سليمة لا يشوهها الا السياسيون والطائفيون.

ستظل انتفاضة العراقيين في وجه الفساد والطائفية، صفحة مشرقة في تاريخ هذا البلد، رغم انها لم تنجح الى الآن في تحقيق اهدافها، وكذلك لم تنجح الانقلابات الدموية التي سادت في هذا البلد ولا حروبه المتكررة في تحقيق اهدافها.

عمارة المطعم التركي

ساحة التحرير وسط بغداد

الله اكبر
HEROES of IRAQ
Haroot Eskenian
www.doniainart.com

من الميدان

بغداديات 70

أن يعود اللحن عراقيا

خصصت مجلة هنا القدس الصادرة عن دار الاذاعة الفلسطينية عددها الـ 19والصادر يوم الاحد 29 ايلول من عام 1940 خصصته للحديث عن ذكرى انطلاقة الثورة العربية الكبرى وذكرى وفاة المغفور له الملك فيصل الاول ملك العراق، وعن العراق بشكل عام .

وعلى صفحات هذا العدد، الذي نشره موقع) جرايد (الصحف العربية من فلسطين العثمانية والانتدابية، نشاهد صورا لمدينة بغداد وجسور الفولاذ التي اقامها الملك الراحل، وصورة للراحل كتب تحتها" باني مجد العراق الحديث ومعيد مجد العباسيين "ونرى صورة تاريخية تجمع الملكين فيصل)العراق (وعبد العزيز) السعودية (على ظهر بارجة بريطانية عام 1930 يتباحثان حول الخلافات القديمة بين البلدين، وصورة للمتحف الذي جمعت فيه مخلفات المغفور له في بغداد، وصورا لقبر السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، وصورة مسجد جميل اضافة لسد الكوت، وصاحبي الفخامة رئيس الوزراء العراق رشيد عالي الكيلاني، ووزير الخارجية نوري السعيد.

ست صفحات من اصل ستة عشر صفحة خصصت للعراق، ونقرأ فيها مقالا مع صورة بقلم الدكتور رشدي بيك التميمي عن اقامة نصب تذكاري بحيفا لجلالة الملك الراحل، ويقول فيه ان اقامة النصب كلفت 950 جنيها، وقد كتب على احد جوانبه شعر قاله الشيخ فؤاد باشا الخطيب :

انت الشهيد ومن بيت شهادتهم / في الله تعرفها الاسفار والسير

في كل ناحية منهم غطارفة / مستشهدون وايام لهم غرر

وعلى الجانب الآخر حفرت مقولة الملك فيصل" :الاستقلال يؤخذ ولا يعطى حرية الامة بيدها ."

بعيدا عن السير التقليدية للملوك، كان الملك فيصل قد انعم بلقب امير البزق على العازف السوري محمد عبد الكريم، وهو ما شكل منصة انطلاق لهذا الفنان العملاق رغم انه كان من الاقزام جسديا، لقد ابدع هذا الفنان مع الفرق الموسيقية الفلسطينية التي احتضنتها وبثت اعمالها دار الاذاعة الفلسطينية والتي كانت الثانية من حيث النشوء والاولى من حيث الاداء في العالم العربي .

على صفحتين من العدد الرابع عشر من مجلة هنا القدس والصادر يوم الاحد 21 تموز1940 ، وكان عددا مخصصا للاحتفاء بمدينة نابلس، نشاهد صور فناني وموسيقيي الاذاعة والذين سيحيون حفلات موسيقية وغنائية خلال الاسبوعين القادمين .

ومن هؤلاء :الملحن وعازف القانون محمد عطية، المطرب البلدي يوسف رضوان، الملحن وضارب البزق) الامير (محمد عبد الكريم، الملحن والمطرب ورئيس التخت الموسيقي يحيى السعودي، عازف الناي توفيق جوهرية، عازف الكمان جميل ركب، عازف القانون ابراهيم عبد العال، عازف الكمان انطون بنيامين، ضارب العود يعقوب زيادة، ضارب العود رامز الزاغة، ضارب السنتور ارتين سنترجي، المطرب محمد غازي، المطرب روحي الخماش، ضارب الرق باسيل سروة، واخيرا المطرب فهد نجار .

وليس غريبا ان يحتل المطرب فهد نجار الموقع الاخير، فعمره ايامها لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة فقط لا غير .وكان رحمه الله والى جانب قدرته

الفذة على الغناء، عازفا ماهرا على العود، وقد تتلمذ على يد عازف العود الشهير في ذلك الوقت في فلسطين وفي بلاد الشام رامز الزاغة، الذي كان يعترف ويقول دائماً (رب تلميذ فاق أستاذه) ويقصد فهد نجار.

يقول الناقد صالح شبانة في كتابه "بطاقات فنية اردنية" ان فهد نجار يجيد العزف على العود اجادة تامة وقد عمل في عدد من الدول العربية مثل سوريا ولبنان والعراق وليبيا والقاهرة وتونس ومراكش .كما انه لحن الكثير من الاغاني مثل المطربة العراقية وحيدة خليل ومحمد عبد الكريم .اما الاغاني التي قدمها بصوته فقد بلغت 200 اغنية اضافة للموشحات الاندلسية التي يحفظ الكثير منها.

نعرف قليلا عن محمد غازي وما قدمه في لبنان بعد النكبة مع الرحابنة، ونعرف قليلا عن روحي الخماش وما ابدعه في العراق مع فرقة الاناشيد، غير ان اسم فهد نجار غاب عنا تماما، رغم ان اغانيه محفوظة على السنتنا وفي ذاكرتنا، ولكنها للأسف نُسبت لغيره من الفنانين .

يبدو ان هذا الفنان كان صاحب حظ سيء منذ البداية فأول اغنية غناها كانت أغنية "يا ريتني طير لأطير حواليك" من ألحان يحيى اللبابيدي، وسجلها في حيفا لشركة بيضا فون للأسطوانات، ولكن ولسوء حظه فقد حضر فريد الأطرش إلى فلسطين في أوائل الأربعينيات وسجل نفس الأغنية، وبسبب شهرة ونجومية فريد الأطرش التي طغت على معظم المطربين في ذلك العصر، فقد اشتهرت الأغنية بصوته أكثر من شهرتها بصوت صاحبها الحقيقي وهو المطرب فهد نجار.

بعد النكبة واغلاق اذاعة هنا القدس انتقل فهد نجار الى العمل في الاذاعة الاردنية والتي كانت تبث من رام الله بداية ثم من عمان، وقدم مجموعة رائعة من الاغاني منها :

على جناح الطير لأبعث سلامي واقول يا مسا الخير أول كلامي

طولتوا علينا كثير وبتقولوا بكير

كتب كلمات هذه الاغنية ولحنها الفنان جميل العاص، وغناها من بعد فهد نجار، الفنان اسماعيل خضر فكانت افضل اغانيه وبوابة دخوله للفن، وظلت تنسب له وضاع اسم صاحبها الاصلي .

ومن اغانيه ايضا :

مقدر اقولك مع السلامة روح

مقدر اقوللك ويلي ويلي، يا قلب ويلي

حبك تملك جوا الحشا بالروح

حبك تملك ويلي ويلي، يا قلب ويلي

لأحبس دموعي بين الجفن والعين

لأحبس دموعي ويلي ويلي، يا قلب ويلي

واحرق ضلوعي نار الجفا يا زين

احرق ضلوعي ويلي ويلي، يا قلب ويلي

تفضحني عيني لوجيت اودعك يوم

تفضحني عيني ويلي ويلي يا قلب ويلي

ويظهر ونيني بين الخلق والقوم

يظهر ونيني

كمية الشجن في هذه الكلمات توحي بان كاتبها عراقي، وهذا صحيح تماما، انه سيد كتاب الاغنية في العراق سيف الدين ولائي، واما ملحنها فهو العراقي المبدع رضا علي، وغنتها من بعد فهد نجار المطربة سميرة توفيق فكانت واحدة من اجمل اغانيها، وظلت تنسب لها وضاع اسم صاحبها الاصلي .

وتقول الكاتبة سهير جرادات في مقال نشرته وكالة الانباء الاردنية) بترا :("ان فهد نجار غنى ايضا اغنية عنوانها :شوقي يا شوقي يا ابو الجديلة، وهي من الحان جميل العاص"، وقد اخذتها عنه سميرة توفيق ايضا.

كان فهد نجار قد زار العراق في الخمسينيات واعتمد لفترة كمطرب في اذاعة بغداد، وقد اذيعت له هناك اغنية :

قلبي معك مرهون يا ناكرة خيري

لاجلك صرت مجنون عينك على غيري

ليش يا ناكره خيري

لم تسلم هذه الاغنية ايضا فقد غناها من بعده مطرب اسمه محمد ابو غريب، وصارت تنسب له وضاع اسم صاحبها الاصلي .

وله ايضا اغنية جميلة من كلمات والحان الاستاذ عادل بشير اسمها "اتهنيت بمحبوبي" وهذه لم يسرقها احد حتى الآن حسب معلوماتي. واغنية ثورية اخرى لنفس الكاتب والملحن عنوانها "لا بد ان نعود يا وطن".

الاغنية الأخيرة "يا جارتي ليلى" هي الاروع فقد كتب كلماتها الشاعر السوري جلال زريق :

يا جارَتي لَيلى يا بَهجَةَ العَينِ
شَبَابُكِ الرَيَّانْ أحْيا صَباباتي
ولحْظُكِ النَشوانْ غَيّرَ حالاتـي
ناشَدتُكِ القُرْبَ لا تَنْفُري غَضْبا
فالعَتْبُ والعُتْبا لَمْ تُبقي لي حَيلَة
يا ..... يا جارَتي لَيْلَى
يا جارَتي لَيْلَى يا نَبْعَةَ الرَيْحـــانْ
تَميلُ آمالـــي مَع قَدِّكِ المَمـدود
ونَجْمُكِ العالي فِرْدَوْسِي المَنْشودْ
فيهِ المُنى زَوْجانْ الآسُ والرُمـّـــانْ
يا لَيتَـني رَضـوانْ أَرْعى الجَلا ليـلَه
يا ..... يا جارَتي لَيْلَى
يا جارَتي لَيْلَى يا جَنّةَ الأرْواحْ
تَهبو لِرَيّاكي نَسائِمُ الاصْبـاحْ
ومِنْ ثَناياكـي يَطيبُ وَرَدُ الراحْ
وهلْ لَها منْ كاسْ مِزاجُها الأنفاسْ

على عيونِ الناسْ أشْرَبُها حَوْلَـــى

يا ..... يا جارَتي لَيْلَى

يا جارَتي لَيْلَى يا زينَةَ الجاراتْ

هَيا بِنا هَيـــــا نلهو مع النّسمات

لا تحسَبي غَيّاتْ أن نَمْزُجَ الآهاتْ

أولى بنـــا أولى أن نَهْجُرَ القَـوْلَ

ونَسْهرَ الليْلـة في طاعةِ المَوْلى

لا يختلف اثنان على ان اول من ادى هذه الاغنية هي المطربة ماري عكاوي في الاربعينيات عبر اذاعة هنا القدس وغنتها من بعدها الفنانة فايزة احمد عام 1955 ثم الفنان فهد نجار في الستينيات، ولكن هناك اختلاف على اسم الملحن فالكاتبة الفلسطينية نجوى فرح قعوار والتي عملت في هذه الاذاعة تقول في كتابها " وكان صباح وكان مساء: امالي الذكريات "ان الملحن هو يحيى اللبابيدي، المراجع الاخرى تقول ان صاحب هذا التانغو العربي المميز والمبكر هو الموسيقار العبقري محمد عبد الكريم والذي اقبل في الثلاثينيات وبكل حماس على تاليف موسيقى تواكب دخول المونولوج الى القصائد الشعرية والزجلية .

من نوادر هذا الموسيقار العبقري انه غضب لسخرية الجمهور البريطاني من قصر قامته، فما كان منه الا ان خلع نعليه وجوربيه على المسرح وعزف لهم نشيدهم الوطني بأصابع قدميه .

والحقيقة ان هناك العديد من الاغاني الاردنية ذات المنشأ السعودي واليمني والسوري والعراقي، فمثلا اغنية "الخيزرانة" التي غنتها سميرة توفيق، هي

للفنان السعودي طارق عبد الحكيم، وهو ملحن ومغني الرائعتين" يا ريم وادي ثقيف "و" تعلق قلبي "وهما الاغنيتان اللتان اشتهرتا بصوت هيام يونس اكثر من صوته رغم براعته في الاداء والعزف.

ويقول الدكتور اميل حداد وهو ملحن واكاديمي في المعهد الوطني للموسيقى بعمان ان اغنية" يا ساري سرى الليل "والتي غناها فارس عوض، فهي يمنية الاصل، و" اغنية يا سعد لو تشوفه "والتي غناها سعد العبداللات كويتية الكلمات وسعودية التلحين والغناء .

ويضيف الدكتور حداد في مقال نشرته صحيفة الراي الاردنية ان حصة العراق كانت كبيرة، وشملت الى جانب اغنية" مقدر اقولك "اغاني" :يا عنيد يا يابا "لعبده موسى، واغنية" يا المرتكي على السيف "لسميرة توفيق، واما اغنية" نالت على يدها "التي قدمها فهد نجار على انها اغنية اردنية فهي اغنية معروفة في حضرموت اليمن .

يغني الملحن والمطرب السعودي عبادي الجوهر هذه القصيدة التي كتبها يزيد بن معاوية وتقول كلماتها :

نالت على يدها ما لم تنله يدي / نقشاً على معصمٍ أوهت به جَلَدي،

خافت على يدها من نبل مقلتها / فألبست زندها درعاً من الزردِ

سألتها الوصلَ قالت لا تُغرّ بنا / من رام منّا وصالاً مات بالكمَدِ،

فكم قتيل لنا بالحُب مات جوىً / من الغرام ولم يُبدييء ولم يُعِدِ،

وخلّفتني طريحاً وهي قائلة / :تأمّلوا كيف فعل الظبي بالأسد،

قالت لِطَيفِ خيال زارني ومضى / :بالله صِدقٌ ولا تنقص ولا تَزِد،

فقال:خلّفته لو مات من ظمأٍ / وقُلتِ :قِف عن ورود الماء؛ لم يَرِدِ،

قالت :صَدقْتَ الوفا في الحب شيمته / يا بَرْد ذاك الذي قالت على كبدي

وأمطَرَت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت / ورداً وعضّت على العُنّاب بالبَرَد،

هم يحسدوني على موتي فوا أسفي / حتى على الموتِ لا أخلو من الحسدِ

يمكن سماع اغنية" يا جارتي ليلى "بصوت فائزة احمد، ويمكن سماع صوت فهد نجار في اغنيتي" مقدر اقولك مع السلامة روح "واغنية" قلبي معك مرهون "عبر اليو تيوب العظيم بارك الله في مخترعه .

اعضاء الفرقة وهم يتدربون يتوسطهم الطفل الفنان ويظهر الى اليمين عازف البزق السوري محمد عبد الكريم. والصورة من موقع انتيكا

اعضاء الفرقة الفنية لاذاعة هنا القدس عام 1940 كما وردوا على صفحات مجلتها

المطربة ماري عكاوي يقابلها الطفل الفنان فهد نجار في ستوديو
دار الاذاعة الفلسطينية عام 1941 من ارشيف الباحث احمد مروات

بغداديات 71

منصورة يا بغداد

"لاريب ان هذه المدينة جوهرة، لكن يجب ان لا ننسى أن المدن تشبه البشر . فهي تولد، وتمر مرحلتي الطفولة والمراهقة، ثم تشيخ، وفي النهاية تموت . وأظن ان بغداد قد بلغت الان أواخر شبابها .إذ لم نعد اثرياء كما كنا في عهد الخليفة هارون الرشيد، لكن بالرغم من ذلك، يحق لنا أن نفتخر بأننا لا نزال مركز التجارة والحرف والشعر .لكن من يعرف كيف سيكون حال المدينة بعد ألف سنة؟ فقد يختلف كل شيء".

هذا ما قاله القاضي عن بغداد في رواية أليف شافاق "قواعد العشق الاربعون"، وفي ذات الرواية رد شمس التبريزي على القاضي:

"لا يجادل احد في أن بغداد مدينة رائعة، لكن لا يوجد جمال على وجه الارض يدوم الى الابد .إذ ان المدن تنتصب فوق أعمدة روحية، كالمرايا العملاقة، وهي تعكس قلوب سكانها، فاذا أظلمت هذه القلوب، وفقدت ايمانها، فإنها ستفقد بريقها وبهاءها .لقد حدث ذلك لمدن كثيرة، وهو يحدث دائما".

بغداد،،، اية طفولة واية مراهقة وشيخوخة تعيشين الآن؟ ومتى ستولدين من جديد؟ .

بغداد افق يتسع ولا يضيق، في كل درب الف طريق وطريق، وعند كل زاوية الف صديق وصديق، وفي كل نفس الف ليلة وليلة، وفي كل ليلة الف حكاية و الف عشيق، بغداد خشنة وناعمة، قاسية وحنونة، مع كل قطرة من دمها تزهر حنونة، بغداد الحزينة حين تفرح تكون افراحها مجنونة.

بغداد لا تعرف النمط، بغداد تعلو على اللغط، بغداد تسير دوما نحو سجيتها الاولى.

في كل لحظة عراقية يختلط الماضي بالمستقبل، في كل كلمة عراقية يختلط طين الاهوار بنخل السماوة وماء دجلة والفرات بقطرات من دم الحسين، ورنة استكان الشاي بدمعة عين، وهلهولة البصرة بنسائم ام الربيعين، وهوسة الناصرية بدبكة السليمانية ونفط خانقين، وشربت الزبيب والرمان بعرق بعشيقة وحناء الفاو .في رسمة كل حرف يلتقي نصب الشهيد ببرج كنيسة وهلال مأذنة، فيبتسم الجندي المجهول، وتطرب تماثيل الشعراء .

العراق لا يستورد الكلام، العراق يخلق الحروف ويصنع الكلام، العراق لا يقبل العطايا، العراق يوزع على الكون الهدايا، شعرا ونثرا، رسما ونحتا، موسيقى وغناء.

العراق يلفظ عن نفسه كل ما عداه، ولن يكون العراق الا عراقيا خالصا من ألفه الى منتهاه .وكما كان النغم عراقيا وكما كان الحزن عراقيا سيكون الفرح عراقيا ايضا بهمة الثوار.

ستفتح شهرزاد اذنيها على عزف منفرد على العود، تمد ايديها فتلمس رمل صحراء الرمادي، تفتح اعينها فتشاهد أطياف رجال يلعبون الجوبي، تشم رائحة طين ممزوج بقصب الاهوار، تسير في زحام شارع السعدون وتهرب الى هدوء ووناسة شقيقه أبو النواس، تجلس الى مقاهيه وباراته الغافية على حافة دجلة، ترقب قوارب الصيادين متهادية بحملها الذي سيصبح سمكا مسكوفا يصحبه طرشي النجف، يتلوه شاي بالاستكانة .

سيصيح سندباد:

ان باعدتنا حدود بحب الوطن نلتم / ان فرقتنا حدود وحدتنا وحدة دم

جيناك يا بغداد والله الهوى نسم / فجرك علينا عاد حتى الوطن يسلم

وتظلي ديما فوق منصورة يا بغداد / ونشوفك بعز دوم منصورة يا بغداد

منصورة يا بغداد منصورة يا بغداد

منصورة يا بغداد منصورة يا بغداد

ربما يتذكر البعض ذلك اليوم من اواسط ثمانينيات القرن الماضي حين كتب الشاعر زهير الدجيلي هذه الاغنية وطاف مع ملحنها طالب القرة غولي على مقرات اتحادات الطلبة العرب في حي الوزيرية،) فلسطين والاردن ولبنان والسودان واليمن وتونس وغيرها (طالبا من كل اتحاد انتداب مجاميع من طلبته ليرتدوا ازيائهم الشعبية ويشاركوا في تسجيل هذه الاغنية على المسرح، كان نشيدا عظيما في يوم عظيم .

قصب واهوار للفنان طارق محمد

بغداديات 72

اطول من ذكرى واقصر من ذاكرة

ليس هناك ما هو اسهل من الاعجاب بالأغنية العراقية حتى لو لم تفهم الكثير من معاني مفرداتها الموغلة في طين الاهوار، السابحة بين رصافة وكرخ دجلة، او نامية في صحراء الرمادي، او طائرة فوق شلالات اربيل كردستان .وليس هنالك ما هو اصعب على المطرب غير العراقي من اداء الاغنية العراقية حتى لو كان من اكثر المطربين اقتدارا .

(يضع الانسان دوما قواعد جميلة غير مكتوبة لنفسه، وقد يفرضها على الآخرين فتصير معايير ويصبحون عبيدا لها).

ربما لأن المطرب الاصيل تجاوز فهم مدلول الكلمات، فهضمها وسارت عصارتها في دمائه، وتشرب اجوائها فقدم روحها مع شكلها، فالتقليد يستصعب استحضار الارواح ويستسهل تقديم الشكل .

(لا بد من تبرير نظري علمي الشكل للقواعد حتى تبدو مقنعة لصاحبها ثم لغيره).

وربما بسبب اختلاف القصد والنية فالمغني الاول يريد بالأساس قلوب الجمهور، واما الثاني والثالث والرابع فلا يريدون بالأساس سوى التميز عن الاصل وعمن سبقهم .

(حين لا تكفي المبررات علمية الشكل نلجأ لما هو ابعد وغير محسوس، الخيال اخطر من الواقع، خاصة حين يكون حقيقة غير مثبتة)

كثير من المطربين العرب فُتنوا بالأغنية العراقية فحاولوا تقديمها، حاول ذلك عاصي حلاني ووائل كفوري وملحم زيم ومحمد عساف وحسين الجسمي، وفلة الجزائرية ومكادي نحاس وفايزة احمد وغيرهن كثير.

(الاستدلال بما هو نسبي لخلق اليقين، يحمل من الخداع ذات المقدار الذي يحمله من الصواب).

ذكرياتنا تلتصق بالأغنية الاصلية، فيصير مكان وزمان سماعها جزءا اصيلا منها، فللذاكرة دائما طرقها العجيبة في ارشفة الحدث، وفي اختزال طريقة التعبير عن الاعجاب به او القرف منه .

(تعميم ما هو شخصي، والانتقال من الخاص للعام لعبة تحتاج الى تواطؤ المتلقي، وهناك دائما متلقي غشيم وآخر جاهز للتواطؤ وثالث للمناكفة حتى لو اقتنع).

ما عدت اذكر من القائل ان الحياة اطول من مجرد ذكرى، واقصر من ان تصير ذاكرة، انها توالي لرسم الذكريات، ربما لو توقفت ذاكرتك وذكرياتك عند حدث معين، واحطت بتفاصيله وتداعياته استطعت ان تمنحه صفة ذاكرة .تجمع مفردة ذكرى فتصير ذكريات، ولكن يصعب استخدام تثنيتها، وتثنى مفردة ذاكرة فتصير ذاكرتان، ولكن يصعب استخدام جمعها .

(مع ذلك نسمي بناتنا ذكرى وذكريات، لم اقابل بنتا اسمها ذاكرة).

أن ترفع ذكرى ما الى مرتبة الذاكرة، يعني انك تريد ان توقف طنينها في مؤخرة راسك، كلما دق الكوز بالجرة، تريد ان تتخلص منها ولكن عبر وضعها في خزنة أمينة، فالذكريات عزيزة .يضع الاثرياء اللوحات الاصلية

لمشاهير الفنانين في خزناتهم بالبنوك، ويعلقون نسخا عنها على الحائط، ويقضون العمر سعيدين بخداع الآخرين، ومتحسرين على خداع انفسهم.

(حين ترتب مكتبتك يصبح بإمكان رفوفها استقبال مزيد من الكتب المركونة بعيدا).

مصابٌ انا بالحنين، الذي عبر عنه محمود درويش:

الحنين استرجاع للفصل الأجمل

في الحكاية :الفصل الأول المرتجل بكفاءة البديهة

هكذا يولد الحنين من كل حادثة جميلة

ولا يولد من جرح

فليس الحنين ذكرى

بل هو ما ينتقى من متحف الذاكرة

الحنين انتقائي كبستاني ماهر

وهو تكرار للذكرى وقد صُفيت من الشوائب

وللحنين أعراض جانبية منها

إدمان الخيال النظر الى الوراء

والحرج من رفع الكلفة مع الممكن

والإفراط في تحويل الحاضر الى ماض

حتى في الحب

تعالي معي لنصنع الليلة ماضيا مشتركا

يقول المريض بالحنين

سآتي معك لنصنع غدا مشتركا

تقول المصابة بالحب

هي لا تحب الماضي وتريد نسيان الحرب

التي انتهت

وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته

ولأنه يريد ان يكبر أكثر

في بغداديات غربلت الاغاني والكتب والسير الذاتية لاماكن واشخاص، بحثت عن لوحات تناسبها، خلطتها بذكرياتي، عجنتها معا، خبزتها، وانتقيت منها ما يصنع ذاكرة من حنين لا يؤلم، ليواجه ذكريات اخرى تؤلم .

(سيطالبك الآخرون بالحياد مع الآخرين، والانحياز اليهم، ليس مهما ان تستجيب لطلبهم، المهم ان تُعطِ نفسك حرية الانحياز لما صنعت من ذاكرة).

لوحة الفنان نبيل علي

بغداديات 73

بصمة بلد على الجسد

سمع الشاعر محمود درويش هسيس القيامة، ولكنه لم يكن جاهزا لطقوس التناسخ، ولم يتذكر من زمنه الذهبي القديم سوى الفرح بالنجاة من الموت، هكذا صار احساس الشاعر بالحياة فيما خط نهايتها يقترب، وكان سابقا لا عب نرد يرى ان كل الذين ماتوا، نجوا من الحياة بأعجوبة. (الشعر الصادق هو ابن لحظته الشعورية، لحظة تتواطؤ فيها اللغة مع المشاعر، لتجعل النجاة مرة من الموت ومرة من الحياة، ولتكون في المرتين صادقة تمام الصدق).

درويش لم يعتبر المكان فخا، ولكن الزمان عنده فخ كبير يُشيخ حتى الصدى، ظل يزور نفسه ذهابا وايابا ليعيد رسم ما يريد من امسه وفقا لما يشتهي وليس كما كان، واشتقاق ما يريده لغده .لم يكن يريد لقصيدته ان تنتهي قبل ان يتأكد من صحة الابدية، لم يكن يريد لنهاره ان ينتهي رغم انه كان نهارا خريفيا. (في النهاية لن نتأكد من شيء، سنترك الاسئلة والقلق وجدول الاعمال ونذهب الى البياض).

اطوي بغداديات وفي القلب حسرات، اطويها عاجزا عن وصف جمال العراقيات، وتلمس مهارة صانعي الخزف، وكيفية سكب النحاتين للأرواح في التماثيل، او ادراك الطريقة التي يضخ بها الفنان الدماء والحرارة في شخوص لوحاته وشرفات منازلهم، او الخيال الذي تسبح فيه افكار الرسامين العراقيين.

اطويها وفي رأسي رياض احمد يدندن بموال مظفر النواب (يا ريحان، اترف من جفاف المهر) في مهرجان بابل، اطويها وفي اوراقي قصاصات من اشعار موجعة كتبها سيف الدين بهائي قبل طرده من العراق ليموت غريبا، اطويها وفي راسي اناشيد حماسية تقول (يا قاع ترابج كافوري)، اطويها معتذرا لأنني لم استقر على كلمات تستطيع وصف الشجن في لطميات مقتل الحسين، اطويها عاجزا عن كتابة ولو سطر واحد عن طريقة القراء العراقيين في ترتيل القرآن الكريم، يبدو ان ذاكرتي ترفض التخلي عن اجزاء عراقية جميلة، وتريد الاستئثار بها دون مقاسمتها مع الآخرين.

اين هو الفخ الآن في المكان ام في الزمان، ام في هذه الذاكرة؟ يبدو ان الفخ يكمن في الوقوف على الشرفات الخلفية دون محاولة الاقتراب من العتبات .

مرة اخرى انا مصاب بالحنين الذي عبر عنه محمود درويش:

الحنين ندبة في القلب

وبصمة بلد على الجسد

لكن لا أحد يحن الى جرحه

لا أحد يحن الى وجع أو كابوس

بل يحن الى ما قبله

الى زمن لا ألم فيه سوى ألم الملذات الاولى

التي تذوب كقطعة سكر في فنجان شاي

الى زمن فردوسي الصورة

والحنين نداء الناي للناي

لترميم الجهة التي كسرتها حوافر الخيل

في حملة عسكرية

هو المرض المتقطع الذي لا يعدي ولا يميت

حتى لو اتخذ شكل الوباء الجمَعي

هو دعوة للسهر مع الوحيد

وذريعة العجز عن المساواة مع ركاب قطار

يعرفون عناوينهم جيدا

وهو ما يُجمع لأحلام الغرباء

من مواد مصنوعة من شفافية اللاشيء الجميل

ويحمص لهم ونادرا ما يأتي صباحا

ونادرا ما يتدخل في حديث عابر

مع سائق تاكسي

ونادرا ما يتطفل على قاعة مؤتمر

أو على موعد اول بين ذكر وانثى

هو زائر المساء

حين تبحث عن آثارك في ما حولك ولا تجدها

حين يحط على الشرفة دوريَ

يبدو لك انه رسالة من بلد لم تحبه وانت فيه

كما تحبه الان وهو فيك

كان معطى وشجرة وصخرة

وصار عناوين روح وفكرة

وجمرة في اللغة

كان هواء وترابا وماء.. وصار الى قصيدة

اسهر كل ليلة على الشرفة الخلفية، اعلق اوراقي بملاقط، لترى ضوء القمر مرة اخيرة، امنحها فرصة استرجاع العلاقة مع نجمة من الماضي، انتظر بقلق حتى تكتب احدى الاوراق سطرا اخيرا وتسقط بين يدي، اواسي اخواتها، ثم اواسيها، اضعها قربي وانام، يرن المنبه عند السابعة والربع، اقوم مخذولا بإلقاء نظرة اخيرة قبل تعليقها هنا على الفيسبوك .

اللوحة للفنانة نادية اوسي

بغداديات الاخيرة

محبة وشكر

بعد 73 يوما من هذه المطولات البغدادية، ينتابني الشعور بالضياع، او الغرق في دوامة لا استطيع الخروج منها، يجب ان استريح ولا استطيع، يجب ان اعود الى هنا ولا اعرف كيف، يجب ان اعرج على شاميات، واخشى ان اغرق ثانية .

كتبت سلاسل كثيرة في شؤون شتى، هنا على الفيسبوك وفي اماكن اخرى، وكان الخروج منها سهلا، كنت اتقيأ سياسة فترتاح معدتي، واكتب في شؤون اخرى فيرتاح دماغي، واما الخروج من بغداديات فهو صعب جدا، لان ما فيها يستقر ابعد من العقل، انه اصعب على قلبي من مغادرة بغداد عام1995 ، كنت يومها عائدا الى فلسطين، اما اليوم فأغادر لا اعرف الى اين .

ليس ان" الطريق الى البيت اجمل منه "كما قال الشاعر محمود درويش، فالبيت جميل وعزيز، ولكن الاشياء البعيدة تبدو اكثر رومانسية وجمالا، وتصير اجمل وانقى عندما تغدو ابعد في الجغرافيا والزمن .المكان يتبدل والزمان لا يتوقف الا في البال، كما قال الشاعر :

قد يهون الزمان الا ساعة / وتهون الارض الا موضعا

ورغم ان الزمان والساعة لم يكونا حقيقة في بغداد، او ربما كانا هناك ولكن خيالا ولدقائق ليس اكثر، وربما لم يكونا او لم يصيرا الى الآن، وربما كنت احاول نحتهما هنا عبر هذا الفضاء الافتراضي الازرق .

اكثر ما اخشاه هو معاودة زيارة الاماكن او مشاهدة الاشخاص الذين دخلوا الى قلبي وعقلي واستقروا في ذاكرتي بكل الق وجمال، اخشى ان يتم خدش صورتهم في الذاكرة، لم اتجرا على زيارة برلين التي عشت فيها عاما واحدا فقط ايام الشيوعية الا بعد مرور 20 عاما على انهيار جدارها .

لم تكن الحياة في برلين سهلة ومريحة كما قد تظنون، ولكنها كانت افضل الف مرة مما رُسمت في خيال من لم يزرها، ومن عمل على اسقاط جدارها، ولم تكن الحياة في بغداد، وحياتي انا خاصة، مريحة وسهلة كما قد تعتقدون، لقد كانت قاسية جدا، ولكنها كانت حياة ذات مغزى، وكانت افضل بمليون مرة مما هي عليه الآن بعد اسقاط نظامها .

لم ابدا كتابة هذه السلسلة بقرار مدروس، لقد بدأت لكي ابتعد عن ازمة انتشار فيروس كورونا، والتي واكبتها يوميا بالمقالات والمنشورات واليوميات، بدأت بكتابتها والزمت نفسي، وفتحت ابواب الذكريات والانطباعات، ولم يكن اقصى ما يمكن البوح به كثيرا، ولأسباب في بطني وستظل في بطني، ابتعدت عن اضفاء الطابع الذاتي عليها، فتحايلت عليها بالمعلومة والتاريخ ووصف الاماكن واستعنت بالسير الذاتية لكثير ممن احببتهم، ونقلت ابداعاتهم كتابة ورواية ورسما ونحتا وشعرا وموسيقى وغناء .

تذكرت الناس غجرا وكردا وصابئة ويهودا وأزايدة، والأماكن من اربيل الى الفاو، رميت نفسي من فوق شلال كلي علي بيك فوجدت نفسي في الاهوار، سبحت في الحبانية وتجففت في صحراء الرمادي، وقفت بشط العرب فرأيت سامراء وسمعت أذان الحدباء .توضأت في المندي وصليت في الكنسية ورتلت في المسجد، ولطمت في الحسينية فصار حزني شفافا

وصار بوحي شجيا .وغنيت مع رياض احمد شعر النواب حين قال: " ان الصلاة على تراب لا يوحد ليس تكتمل".

تذكرت بائعات الهوى، واحاديث البارات والمقاهي، ومناكفات الزهاوي والرصافي، احتفلت بالدارمي والنايل الجبوري والابوذية، وهوّست هوسات جنونية مع ثوار العشرين في الناصرية، دخلت قصر الرحاب وزنازين نقرة السلمان، قرأت الفاتحة في نصب الشهداء، حاولت ان اقول" :اقدر اشوفك " وانا اقف على جبل احد مواجها المنطقة الخضراء، طفت اسواق الكرادة بحثا عن مسبحة من كهرمان، بحثت في رفوف المتنبي عن" الشخصية المحمدية "فتعثرت بفرانكشتاين، وطشاري .

تتبعت دروب المنفى والعودة اللاعودة، لأرى مظفر النواب وفؤاد سالم والسياب وسيف الدين ولائي، هتفت جوووول مع مؤيد البدري، وضحكت كثيرا مع عمو بابا، وبكيت على احمد راضي، وكنت كلما حاولت التقدم الى الامام تشدني ضحكة ظلت معلقة تحت شجرة في الوزيرية، او دمعة عالقة فوق جسر الجادرية، او صرخة هناك على الحدود.

ركبت الريل مع محبوبة حمد، جالست عبدالله الذي يجيد صنع مجدافين ولا يملك قارب، بكيت على سعود، تعاطفت مع وشلة وميحانة، وبكيت على من اعطى البراءة، وهمست في اذن من صمد ولم يعطها" :ايام المزبن كضن، تكضن يا ايام اللف"، فصعد مراجف للدف، ودك راسه بكاع الحبس، وكتب على القاع: " ابنكم باعته الدنيا ولا باع".

لعبت محيبس في الحارات، واكلت من السما وزنود الست، وحضرت بعض المسرحيات، فتشت عن مقاطع لمسلسل" تحت موس الحلاق "فاجأني الذئب وعيون المدينة وصاح نسرها: "عجيب امور ... غريب قضية". واطل

عبود الكرخي من باب المجرشة ليقول: "هم دنيا وتنكضي وحساب اكو تاليها ".

اشتريت اشرطة لسعدي الحلي وياس خضر ورياض احمد وفريدة وسليمة وزهور ومائدة ووحيدة ولميعة، ونسخة من مجلة الف باء، لم اجد توك توك ليوصلني فركبت باص ابو الطابقين، مررت بكل النصب والتماثيل، وشربت شايا في شارع الرشيد وانا اتأمل ما بقي من شناشيل .ويا حريمة انباكت الجلمات، وظلت تتقاذفني لوحات التشكيليين من زقاق لزقاق، وجاء رسام سوريالي انتزع رأسي ووضعني هنا امام شاشة الكومبيوتر .

شكرا لكل من تابع وشجع وعلق، ولكل من ايد جمع البغداديات في كتاب، وشكر خاص لمن والى تقديم النصائح المخلصة حول اسلوب الكتابة، وآسف من كل قلبي لتوقفي عن الرد على التعليقات، الردود مجهدة وصعبة، اصعب على نفسي من الكتابة بحد ذاتها، لأنني اطمح دائما الى ردود خاصة ومميزة تليق بكم وبحجم محبتي لكم .

لن اضع لوحة تشي بالماضي الذي احبه، ولم اجد لوحة عن المستقبل الذي اريده .سأقول مرة ثالثة انني مصاب بالحنين الذي عبر عنه محمود درويش:

الحنين انين الحق العاجز عن الاتيان بالبرهان

على قوة الحق أمام القوة المتمادية

انين البيوت المدفونة تحت المستعمرات

يورثه الغائب للغائب

والحاضر للغائب

مع قطرة الحليب الاولى

في المهاجر والمخيمات

الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت

الى من يحن اليه في انين متبادل

هو اندماج الغريزة بالوعي واللاوعي

وشكوى الزمن المفقود من سادية الحاضر

الحنين وجع لا يحن الى وجع

هو الوجع الذي يسببه الهواء النقي القادم

من اعالي جبل بعيد

وجع البحث عن فرح سابق

لكنه وجع من نوع صحي

لأنه يذكرنا بأننا مرضى

بالأمل...وعاطفيون!!

عماد الاصفر

رام الله فلسطين

6 تموز عام الكورونا